حياتي بين العوالم والأبعاد

منصف الوسلاتي

رواية

حياتي بين العوالم والأبعاد

رواية فانتزيا

منصف الوسلاتي

العالم الأول

العالم الأول - الفصل الأول: من أنا؟؟

تبدأ الحكاية مع فتى يدعى آدم، يبلغ من العمر 15 سنة، يتيم الأبوين ويعيش مع رجل يدعى ألكسندر في أوائل الثلاثينات، يعمل ككاتب معروف ومحترف في الفنون القتالية والمبارزة. يعيشان في منزل راقي في وسط حي معاصر. كانت أكبر تحديات آدم هي تكوين الصداقات بسبب طبائعه الخجولة، وعلى الرغم من ذلك، تمكن من تكوين صداقة قوية مع جوزيف، وأصبحا أفضل أصدقاء الطفولة، حتى أنك ستعتقد أنهما أخوان من نفس الأم. مضت الأيام وهما الآن طالبان في المرحلة الثانوية، وسيذهبان لإلقاء نظرة على قوائم الفصول.

في صبيحة اليوم الموعود، استيقظ آدم في الساعة السادسة وخمسين دقيقة صباحًا، وهو لا يزال متعبًا من سهرة الأمس مع ألكسندر. بعد بضع لحظات، نزل الفتى من سريره وذهب إلى الحمام ليغتسل، ثم توجه إلى الطابق السفلي. تفاجأ بعدم وجود ألكسندر، حيث من المفترض أنه لا يملك أي مخططات. خاطب آدم نفسه: "يا رباه، إلى أين قد ذهب هذا الأبله؟ كنت سأطلب منه أن يوصلنا إلى المعهد." بينما كان يفكر في ما سيقوم بإعداده، وجد ملاحظة كتب عليها ما يلي: "عزيزي آدم، سوف أعود في وقت متأخر، فهناك عمل يجب علي القيام به. لقد اشتريت لك جهاز ألعاب جديد، وإن أردت يمكنك دعوة أصدقائك للعب. المهم، الدخول إلى غرفتي ممنوع منعًا باتًا."

من هول الصدمة، جرى آدم مسرعًا إلى غرفة المعيشة فوجد الجهاز هناك منتظرًا لكي يتم استخدامه. سيطرت الدهشة على ملامح الفتى وسأل نفسه: "كيف حدث

هذا؟ لم نخرج من المنزل في الأمس، وقد سهرنا حتى الفجر بالفعل، والآن الساعة السابعة. متى اشترى وركب الجهاز؟" عاد آدم إلى المطبخ وبدأ في إعداد الإفطار. اعتاد آدم على الوحدة لأن ألكسندر كانت تأتيه أعمال يضطر للسفر ويترك آدم لوحده أو يأخذه معه. بعد أن أتم الفتى إعداد وجبة الإفطار التي كانت بمثابة لوحة فنية، بقي يتأملها للحظات ثم قرر أن يصورها بهاتفه الجوال. تذكر صديقه جوزيف فجأة وخاطب نفسه: "يا ليت كان صديقي معي ليحب هذه العجة." طرأت له فكرة، فقرر أن يعد سندويش لصديقه.

بعد ذلك، قام بتغيير ملابسه ورش بعض العطور، وبقي يتأمل نفسه في المرآة. اجتاحته مشاعر غريبة، تنهد وقال: "يا ليت أمي هنا لتراني أو حتى أخي." نظر إلى الساعة فوجدها السابعة وخمس وثلاثين دقيقة، فقام بوضع السماعات وشغل الأغاني وانطلق في حال سبيله. أثناء اندماجه مع الألحان، اصطدم بفتاة دون قصد، فسقط هاتفها، ولكن بفضل رد فعله السريع تمكن من إمساك الهاتف قبل أن يمس الأرض. عندما رفع ناظريه ليعتذر، رأى وجه الفتاة وبدأ قلبه بالخفقان بسرعة بسبب جمالها الخلاب، وكأنها ملاك نزل من السماء. كانت ملامحها ظريفة وشعرها بني طويل وعيناها ساحرتين. قبل أن يغرق بسحرها، ناولها الجوال وبابتسامة مشرقة، وضع يده خلف رأسه وقال معتذرًا: "أعتذر يا آنسة، لم أقصد الاصطدام بك." فردت عليه بود: "ليس هناك داعٍ للاعتذار، لم أرك لأنني نسيت نظاراتي الطبية."

أكمل كل منهما طريقه، وبقي آدم يفكر في تلك الفتاة، وبدأت مشاعر غريبة تستولي على كينونته. تساءل بينه وبين نفسه: "ما الذي يحدث لي؟ وما هذا الشعور؟ أعتقد أنه بسبب جرعة الفلفل الزائدة." بعد بضع دقائق وصل الفتى إلى منزل صديقه

وطرق الباب، ونظر إلى ساعته فوجدها السابعة وسبع وأربعين دقيقة. عندما فتح الباب، استقبلته أم جوزيف بابتسامتها المعهودة وأدخلته لينتظر ابنها في الداخل. عندما رأى آدم جوزيف يتناول الفطائر المحلاة وتقابلت أعينهما، قال جوزيف مرحبًا بصديقه: "أهلاً بصديقي وتوأم روحي!" وبدأ يسعل بسبب اختناقه بالفطائر. ناوله آدم بعض الماء بسرعة، فبدأ بالشرب، وضحك عليه آدم قائلاً: "يا أخي، بالله عليك لا تتكلم وفمك ممتلئ. أتريد أن تنتهي مسيرتك المهنية بالموت اختناقًا؟"

بينما كان الولدان يضحكان، كانت أم جوزيف تتأمل وتشعر بالسعادة لأن ابنها صادق شخصًا طيبًا مثل آدم. عندما نظرت إلى الساعة، بدأت بالتصفيق وقالت: "هيا يا شباب، أسرعا، ستتأخران." ذهب جوزيف مسرعًا ليرتدي حذاءه، بينما ذهب آدم ليتحدث مع أم جوزيف. عندما نظرت إليه، قالت مباشرة: "حسنًا، حسنًا، يمكن أن تقضيا اليوم معًا." غادر الفتيان المنزل وفتحا الكثير من المواضيع ليجعل الطريق أقصر. خطر لجوزيف موضوع فقال: "أخبرني يا آدم، هل عاودت تلك الشيطانة مكالمتك؟" استغرب آدم وسأله: "من؟ عن من تتحدث؟" حاول جوزيف أن ينعش ذاكرة آدم قائلاً: "أقصد ستيفاني التي أعجبت بك ولكنك رفضتها." عندما حفر آدم في أعماق ذاكرته، تذكرها وقال: "أه، لقد تذكرتها. لم تعد تكلمني وأصبحت تتجاهلني. فلتذهب إلى الجحيم، هي من بدأت بتكسير خاطري."

حينها وصلا إلى المعهد، وقد رصد آدم من بعيد تلك الفتاة التي رآها باكرًا وعادت إليه تلك الأحاسيس. بقي ينظر لها، بينما لاحظ جوزيف شرود آدم وحاول أن يعرف، فناوله الشطيرة وقال له: "خذ، وأصمت." أخذ جوزيف الشطيرة ودخل الولدان إلى الثانوية.

العالم الأول - الفصل الثاني: بداية حب؟؟؟

بعد دخول جوزيف و أدم للمدرسة وجدا المكان الذي ستعلق به قائمة الأسماء مزدحم و لم يتم تعليق أي شيء فأقترح جوزيف أن يقوما بجولة لأستكشاف المكان و القاعات وافق أدم على الفكرة و بدأ يتجولان كان جوزيف يتحدث عن بعض المواضيع بينما أدم كان في حالة شرود يحاول معرفة ذلك الشعور الغريب الذي يسيطر عليه عند رؤية تلك الفتاة صحيح شعر به مرتين و لكن هذا جعله يدخل في حالة حيرة و لكن خاطب نفسه: ما هذا يا هذا ما هذه المشاعر التي تغمرني هذا بالفعل ليس من تأثير الصلصلة الحارة لا تقل لي .

توقف عن المشي و نظر إليه جوزيف و قال في نبرة أستغراب : يا رجل مالذي حدث هل أنت بخير؟؟؟

وضع أدم يده على وجهه و قال :يا رجل لن تصدق مالذي حدث لي ستدخل في حالة صدمة

بدأ يشعر جوزيف من جهة بالفضول و من جهة أخرى بالقلق و قبل أن يتكلم أدم وضع أحدهم يده على كتف أدم و عندما ألتفت وجد أنه صديقهم جيروم فتى بطول متوسط أو أقل يشعر طويل مجعد و ملتف صاحب نظرة فذة للحياة و الموسيقى نظرتي لكونه منتج موسيقى و فلسفي رغم صغر سنه ألقى الفتية التحية على بعضهم البعض و قال جيروم :لماذا بحق الجحيم لم تمرا على منزلي لنذهب مع بعضنا

نظر كل من جوزيف و أدم إلى بعضهما البعض بنظرة سخرية و من ثم كلاهما نظرا إلى جيروم و في نفس الوقت قالا : فعلا أيها اللعين و أكمل أدم كلامه : في كل مرة نمر عليك نجدك نائم صباح ظهر عصر و كأنك حيوان كسلان و لكن الفرق أنك تنام 7/24 و حتى عندما تستيقظ يأخذك 5 أيام تجارية لتستعد أظهر جيروم تعابير

أستغراب و قال :حسنا حسنا أخرسا تتشكيان كعجائز في الستينات من العمر أسمعا سيعلقان القوائم قريبا فلنسرع و فلنخرج

و في طريق ذهابهم تذكر جوزيف شيئا و ألتفت إلى أدم و سأله عن ما كان الموضوع الذي كان سيقوله فأحمر وجه الفتى ووضع يده خلف رأسه و بدأ بالكلام متعلثما: أح أه ذلك الموضوع امىم لا علينا فيه سأخبركم لاحقا أن الجدران لها أذان .

أستغرب كل من جوزيف و جيروم من ردة فعل أدم الغريبة و العجيبة لأن و حسب وجهة نظرهما أن ظهور ملامح الخجل على وجه أدم هي علامة من علامة الساعة الكبرى بسبب أن طبيعة أدم نوعا تعتبر من النوع المتهمج و المتهور من البعض من الطيبة و الحنان و لكن فتى كأدم و يخجل و كأنك تقول أسد جبار يخجل و عرفا أنا هناك إن و أخواتها و عندما وصلا وجدا قوم عظيم أمام القوائم و لمح أدم تلك الفتاة من بعيد و عادت إليه تلك الحالة الغريبة بدأ قلبه بالخفقان بسرعة مع شعور بالحرارة في جسمه مع رغبة في الأبتسام لا أراديا و نوع من السعادة بدأ يسيطر عليه لاحظ الشباب سروح صديقهم فبدأ جوزيف بطقطقة أصابعه في وجه أدم و هو يقول بنبرة سخرية من كوكب الأرض إلى أدم حول حول

عندما ألتفت أدم قال : مالذي تفعله بحق ال

فقاطعه جيروم : أنظر إلى قوم يثرب المجتمعين هناك كيف سنرى أنا لست مستعد لأبقى هنا طوال اليوم

فرد أدم :سهلة أنت من اليمين و جوزيف من اليسار و أنا من الوسط و من يرى أسم الأخر فليقل

أجاب جيروم :أتريدني أن أدفن حي لست مضاد لطائرات مثلك

فقال جوزيف لداعي السخرية: أذهب أعطهم خطاب فلسفي عن الحضارة و أن لم يستمعو فأخرج لهم الهو

فضحك أدم و قال : حسنا سأذهب أنا من الوسط مادام التجمع الأكبر هناك و أعتقد قد نجد أسمائنا هناك

أفترق كل في طريقه و بدأ أدم يحاول شق طريقه حتى تقابلت عينيه بأعين تلك الفتاة التي وقع في غرامها و بدأ يحاول تماسك نفسه لكي لا يقوم بأي حركة غبية أمامها نظرت إليه أمبر لوهلة فأبتسمت و قالت: أه أنه أنت مجددا

_أجل يا لها من صدفة

_ نعم بالفعل أسمك أدم صحيح ؟؟

_ أجل أنه كذلك "بدأ قلب الفتى يخفق بسرعة أكبر"

فردت عليه مع أبتسامة : يبدو أننا سنكون زملاء في الدراسة فقال بداخله :أحا و رد عليها : أتمنى أن نتوافق مع بعضنا

و صرخ في داخله : ما هذا بحق الجحيم مالذي أقوله تبا تبا تبا

و عندما ذهبت أمبر أخذ أدم نفس عميق و ندى كل من جوزيف و جيروم و لكن سمع صوت صراخ جيروم و هو يقول أحدث فنون الشتم و السب الحديثة أذا صارت معه مشكلة أحدهم و أنتهى الموضوع بمشادة كلامية و بعدما أجتمع الأصدقاء و ذهبو لرؤية فصلهم وجدو أسم ستيفاني فصرخ ثلاثتهم : لابد أنك تمزح بحق الجحيم.

العالم الأول - الفصل الثالث: جلسة الأصدقاء

عندما رأى الأصدقاء أسم ستيفاني أزازل دخلو في حالة صدمة لأنها أكثر فتاة مكروهة بسبب أفعالها و طبائعها الشيطانية حيث أنها حاولت التقرب من ثلاثتهم لأستغلالهم و لحسن الحظ كل منهم أنقذ الأخر حيث حاولت التقرب من كل من أدم و جيروم من أجل أستغلال المادي و بينما جوزيف لأنه فتى محب و أرادة أستغلاله ليكون لها عبدا و ليس حبيبا فقال جيروم و هو يدقق أكثر: و كأن القدر يسخر منا لما من دون جميع الناس تكون ستيفاني زميلتنا ناه سأنسحب أن لزم الأمر لا أريد أن أطرد بسبب الأعتداء الحاد على أنثى أن كانت تعتبر تلك اللعينة من الأناث أو البشر

أخذ جوزيف نفس عميق و قال محاولا لتهدئة الوضع : أسمع فلنتجاهلها نحن سندرس و مجلس مع بعضنا و أيضا يبدو أن باقي زملائنا جيدون

و أكمل أدم على جوزيف بقوله : أن أردت فلنتفادها و أن تجاوزت الحدود لديك بطاقة بيضاء و مثلما يقال

و ثلاثتهم قالو في نفس الوقت: و من جلبها لقدميه العصا إليه

ضحك ثلاثتهم معا و قال أدم و هو ينظر لساعته : ما رأيكم شباب أن تذهب الأن ؟؟؟

رد جيروم : فلنخرج أحتاج أن أنسى خيبة الأمل هذه

و عندما تجاوز أدم باب الثانوية حتى رأى عشيقته من بعيد تتحدث مع أحداهن و عادت مشاعر الحب تعبث بقلبه الذي أحب لأول مرة كان يريد أن يتحدث معها لكن لم يعرف كيف نظرا لعدم معرفته كيفية الحديث مع الفتيات و بدأ نوع من المخاوف تستولي عليه ماذا لو فشل ماذا لو لم يستطيع الفوز بقلبها مثلما هي خطفت قلبه

وجد الفتى نفسه في دوامة من الأفكار و لكن ايقظه جيروم بصفعة في مؤخرة رقبة و قال: يا فتى مابالك سارح أكثر من العادة اليوم أعترف أعترف من أين البضاعة ؟

فبادره أدم بنظرة أستغراب و رد بنوع من السخرية: من عندك أو نسيت ما مخبئ في درج سريرك

أستفز هذا نوعا ما جيروم و لكن تقبلها كمزحة و رد : أقسم أن وجدت ميليغرام واحد ناقص فسأقضي عليك ضحك الفتية و بدأو في السير معاً و في الطريق بدأ جيروم بالبحث في جيوبه و صارخ و هو يشتم : اللعنة على هذا الحظ اللعين نسيت مفاتيحي في البيت و ليس هناك أحدا في البيت

ضحك جوزيف و نقر على جبهة جيروم و قال : كالعادة المرة القادمة فلتنسى نفسك أه صحيح لقد فعلت ذلك بالفعل

نظر إليه جيروم و قال بنبرة تعبر عن عدم قبول هذه الأهانة : هذا لا يهمك و من أعطاك الحق أن تلمسني بيدك هذه

فظهرت أبتسامة على محيا جوزيف لأنه يعشق أستفزاز جيروم و أردف عليه : أنظر إلى فرق الطول مثلا أيها القزم

فحاول جيروم صفع جوزيف و قال : و ما دخل الطول و بطولي هذا أستطيع أن أجذب أي فتاة و أرتبط ليس مثل أدم الذي لم يرتبط

فصفع أدم كل من جوزيف و جيروم و رد : و أنا ما شأني بحق الجحيم أسمعا فلنفض هذه المشكلة في منزلي أشترى ألكسندر جهاز ألعاب جديد و أيضا لن يكون هنا طوال اليوم و أيضا هناك موضوع مهم يجب أن أعترف به

أنجذب أنتباه الولدين و أجاب جيروم مع تعابير سخرية : أعترف أعترف هل أصبحت شاذا

قال أدم بصوت مرتفع : لا مالذي تقوله صحيح وضعي العاطفي ميؤوس منه و لكن ليس لهذه الدرجة

-أذن ما الأمر

-أنه شيء أسوء من ذلك بكثير *غمز أدم لجيروم*

و بعد وصول الأصدقاء إلى منزل أدم علق جيروم قائلا : مازلت لا أصدق أنك تسكن هنا لطالما ظننت أنك تسكن تحت جسر ما

فتنهد أدم و رد بصوت به نوع من الأنكسار : كان من الممكن أن يكون هذا مصيري هيا فلندخل بقي الأولاد يلعبون و يصرخون بكل شتيمة أو كلمة بذيئة لبعضهم البعض و على الرغم من ذلك كانت صداقتهم قوية و حقيقة و بعد فترة جلس الشباب في غرفة الجلوس أعد أدم فناجين قهوة و بعدها كل من جوزيف و جيروم غيرا وضعية جلوسهما و وضعا ساق على ساق و في نفس الوقت تماما: الأن أعترف ما هي المصيبة التي قمت بها ؟

بدأ جيروم يترشف قهوته بينما جوزيف ينتظر بشوق و أدم يستجمع شجاعته و قال لنفسه : خوفي الأكبر من ردة فعل أمبر هي ردة فعلهما هيا يا أدم قل قل قل

أخذ أدم نفس عميق و قال : أعلن رسميا وقوعي في الحب

من هول ما سمعا بزق جيروم القهوة على وجه جوزيف و صرخ المسكين القائلا : أيها اللعين أنتبه أتريد أن تجعلني أخسر كل حقوقي الأنسانية و أنت أدم هل يمكنك أعادة ما قلت بدا لي و كأنك قلت شيء غريب

أعاد أدم كلامه و دخل كلاهما في حالة صدمة من قوتها كانت أفوههما مفتوحة لخمس دقائق و قال جيروم بعدم تصديق : دقيقة دقيقة أنت وقعت في حب فتاة ؟؟؟

رد عليه أدم : بالطبع فتاة ماذا تعتقدني مختال عقلي لأحب أشياء غريبة

وضع كل من جوزيف و جيروم يده على كتف أدم و كانت الأجواء قد أنقلبت فجأة إلى جدية و قالا : أسمع هل متأكد أنك ستذهب في هذا الطريق يجب أن تعرف أن الحب شيء عميق و لها مخاطر و خاصة أن كانت تجربتك الأولى معه و أنه مثل السيف ذو الحدين من جهة قد يحسنك و من جهة قد يتسبب في الفضاء عليك

أماء أدم برأسه بالأدراك

و أخرج جيروم سيجارة و قام بأشعالها و قال : حسنا حسنا يبدو أن الشبل قد كبر حسنا أخبرنا بالمزيد و كيف تشعر حيالها بالتحديد

فكر أدم لوهلة و قال بصراحة عندما أراها أستطيع أن أعرف بأنها فتاة لا تعاد و لا تكرر

قال جوزيف ؛ نريد تفاصيل أكثر

أظهر أدم أبتسامة و قرر أن يفرغ ما في صدره من مشاعر الحب لكي يستطيع صديقيه مساعدته و قال

عيناكِ خلف الزُّجاجِ سِراجُ

يضيءُ الدُّجى بالحروفِ الوضَاحِ

وشعركِ بُنِّيٌّ يفيضُ دِفَاءً

كظلِّ الغروبِ على المِصباحِ

إذا ما نَظَرْتُ إليكِ أراها

عيونًا تُحَدِّثُ دونَ جِراحِ

كأنَّ الزجاجَ مرايا صباحٍ

تُخَبِّئُ بَيْنَ الضِّياءِ كِفَاحِي

سقط جيروم أرضا من كمية الصدمة و صفق جوزيف و قال : الله الله صديقنا من الحب أيقظ الشاعر الغزلي بداخله من هذه سعيدة الحظ

العالم الأول - الفصل الر ابع: معركة بين الأكبروالأصغر

وقف جيروم و عاد للجلوس و هو يأخذ نفس عميق من السيجارة و قال : أخبرنا من هي سعيدة الحظ يا شاعر الأمة

رد عليه أدم: ههههه مضحك للغاية يا فيلسوف زمانك

فجاء الجواب من جوزيف بقوله: بالطبع أنت و وقعت في الحب و أصبحت تقول في الشعر

أماء أدم برأسه و أجاب : حسنا حسنا الفتاة تدعى أمبر

و بدأت أبتسامة بليدة تظهر على كل من وجه جيروم و جوزيف بينما أدم يترشف قهوته و هو يقول لنفسه: أعتقد أنها كانت فكرة سيئة أن أخبر هذين الأحمقين

وسط أجواء الضحك والحديث، دوّى صوت المفاتيح في أرجاء المكان، متبوعًا بصوت الباب يُفتح على مهل. ارتبك جيروم للحظة، محاولًا إخفاء سيجارته، لكنه سرعان ما تذكر أنه في منزل آدم، وأن ألكسندر على علمٍ بعادته هذه، فاسترخى وأعاد السيجارة إلى شفتيه.

دخل ألكسندر وهو ينزع حذاءه، ليلمح الضيوف بعينين لامعتين قبل أن يقول بنبرة ساخرة:

_ أهلًا بشباب العُلى! لا أعلم لماذا، لكنني أشعر أن كارثة وشيكة الحدوث ما دمتم مجتمعين أنتم الثلاثة!

قهقه آدم وهو ينظر إلى رفيقيه وقال:

_عندما تفكر في الأمر، ستدرك أنك محق! خاصّةً بوجود جيروم، العقل المدبر للمصائب، وجوزيف، رجل التدخل السريع!

ابتسم جوزيف بخبث وردّ سريعًا:

وأنت... الأمل الأخير!

انفجر الجميع ضاحكين، قبل أن يلتفت آدم إلى ألكسندر متذكرًا شيئًا:

_عُدتَ مبكرًا اليوم من مشاويرك ألكسندر؟

ارتبكت ملامح ألكسندر للحظة وكأنه لم يتوقع أن يعود بهذه السرعة ثم قال وهو يحاول التملص من السؤال:

_لنقل إنني وجدت فرصة... فهربت!

صفر جيروم بدهشة وأطلق نظرة مسرحية قبل أن يقول بمكر:

_يا رجل! أقسم أنك اخترقت قوانين الحياة ذاتها وهربت من المصفوفة! ما سِرُّك؟

للوهلة الأولى، لم يكن سؤال جيروم سوى مزحة عابرة، لكن دون قصد لامس شيئًا أعمق مما توقع. كأن كلمات بسيطة استطاعت أن تُفتح جرحًا لم يلتئم في أعماق

ألكسندر. صمت الأخير لحظة، ثم نظر إلى جيروم نظرة شاب حمل فوق كتفيه أكثر مما ينبغي وقال بصوت منخفض لكنه مشحون بالمعاني:

— ببساطة... العمل الانضباط التضحية. ثم التضحية ثم التضحية. ويجب أن تدرك أمرًا... حتى حياة كهذه لن تجلب لك السعادة.

ساد الصمت للحظات شعر الجميع أن ألكسندر يخفي في طيات كلماته أسرارًا لم يحن وقت كشفها بعد. لكن سرعان ما قطع التوتر بنفس عميق أخذه، قبل أن يلتفت إلى آدم قائلاً:

— اسمع... ما رأيك بمبارزة؟ الخاسر يدفع ثمن الغداء للجميع غدًا!

فكر أدم ملياً بلأمر و لكن قاطعه جيروم محتارا : مبارزة أنحن في العصور الوسطى ؟؟؟

ارتسمت ابتسامة على وجهي ألكسندر وآدم، قبل أن يشير الأول للرفاق ليتبعوه. قادهم عبر ممر سري إلى مصعد مخفي، ما إن فُتح حتى انكشف أمامهم دهليز ممتد في أعماق الأرض، تتفرع منه ممرات وغرف كثيرة، بعضها مفتوح، بينما بقيت الأخرى مغلقة بإحكام.

راح جوزيف يتأمل الأبواب المغلقة بنظرات فضولية، ثم سأل بنبرة مترددة:

— وماذا عن هذه الأبواب؟

ألقى ألكسندر عليه نظرة هادئة قبل أن يجيب بصوت خالٍ من أي تبرير:

— آسف، لكن هذه أمور خاصة.

استمروا في التقدم حتى وصلوا إلى غرفة مظلمة. مدّ ألكسندر يده وأشعل الأضواء ليظهر أمامهم مشهد مذهل—غرفة واسعة تزدحم بكل أنواع الأسلحة العتيقة: أقواس، سيوف، رماح، وخناجر بأحجام وألوان مختلفة، كأنها مستودع حرب قديم حُفظ بعناية.

تجمد جيروم في مكانه، محدقًا في المشهد بذهول، قبل أن يغمغم بدهشة:

— ما هذا بحق السماء؟! أتنوي بناء جيش واحتلال مملكة الشمال؟

غمز له ألكسندر بمكر وردّ بصوت هادئ:

— ربما... من يدري؟

اقترب جيروم من جوزيف وهمس في أذنه بقلق:

— اسمع يا رجل... علينا إبعاد آدم عن هذه الغرفة بأي ثمن! تخيل فقط لا قدّر الله أن يُكسر قلبه، قد ينحرنا جميعًا عن بكرة أبينا!

لكن فجأة، قاطع ألكسندر همسهما بصوت حاد:

— بماذا تتهامسان هناك؟

تلعثم جيروم بسرعة وأجاب بارتباك:

— لا... لا شيء!

في تلك اللحظة، كان آدم يبحث بين الأسلحة عن سيف مناسب للتدريب، لكنه لم يكن يعلم أن اليوم لن يكون كالأيام السابقة. قال له ألكسندر بحزم:

— لا، ليس اليوم. اليوم ستستخدم سيفًا حقيقيًا. أعتقد أن الوقت قد حان.

توهّجت عينا آدم بالحماس، بينما تضاعف قلق جيروم، في حين كان جوزيف يحاول كبح ضحكته. أخيرًا، اختار آدم كاتانا حديدية ذات تصميم أنيق، بينما التقط ألكسندر رمحًا طويلًا ذا شفرة مزدوجة.

وفي أثناء تجواله، لمح جيروم شيئًا غريبًا معلقًا على الجدار. اقترب بخطوات حذرة، ليكتشف أنه سيف مصنوع من الياقوت، لكن ما شدّ انتباهه أكثر كانت آثار الدماء التي لطّخت نصله. مدّ يده ليلامسه، لكنه لم يكد يفعل حتى دوّى صوت ألكسندر بغضب:

— ابتعد عنه الآن!

توقف الجميع، متفاجئين من حدّة ردة فعله. صمت ألكسندر للحظات، وكأنّه يحاول استعادة هدوئه، ثم تنهد وقال بصوت أكثر ليونة:

— آسف... لكنه ذو قيمة عاطفية كبيرة بالنسبة لي

وقف آدم وألكسندر في منتصف الغرفة، المسافة بينهما بالكاد تتجاوز بضع خطوات. أمسك آدم بكاتاناه، بينما دار ألكسندر برمحه، موازنًا إياه بيد واحدة، كأنه امتداد طبيعي لجسده.

تراجع جيروم خطوة إلى الخلف، نظر إلى جوزيف وقال بصوت ساخر:

— أتعلم؟ نحن في القرن الحادي والعشرين، لكنهما يتصرفان وكأنهما في العصور الوسطى! بالله عليك، إن انتهى أحدهما مقطعاً إلى أشلاء، فلا تلمني إن فقدت أعصابي.

ضحك جوزيف وهو يعقد ذراعيه:

— لا تقلق، فقط ركّز على عدم الإغماء من الدماء.

ابتسم ألكسندر وهو يرفع رمحه في وضعية هجومية:

— حسنًا، آدم، أرني ما لديك.

ألكسندر (في نفسه):

"لطالما كان آدم عنيدًا، لكنه لم يواجهني بسلاح حقيقي من قبل. هل سيتراجع؟ لا... ليس هو. لكنني أريد أن أرى... إلى أي مدى قد يصل؟"

تنفس آدم بعمق، ثبّت قبضته على مقبض الكاتانا، ثم اندفع!

تقابلت شفرتا السلاحين في اصطدام مدوٍّ، صدى المعدن يرن في أرجاء الغرفة. كان ألكسندر أسرع، تحرّك برشاقة، استدار حول آدم محاولًا ضربه من الخلف، لكن الأخير تفاداه بانحناءة خاطفة ووجّه ضربة سريعة باتجاه كتفه.

تفاداها ألكسندر في اللحظة الأخيرة، ثم ضرب رمحه على الأرض ليستخدمه كنقطة ارتكاز وقفز فوق آدم، محاولًا تسديد ضربة مباشرة للأسفل. بالكاد تمكن آدم من صدها، لكن قوة الهجوم أجبرته على التراجع بضع خطوات.

آدم (في نفسه):

"إنه سريع جدًا... لا يمنحني فرصة للهجوم. لا بأس، سأجعله يعتقد أنه المتحكم هنا."

راقب جيروم المشهد وهو يلوّح بذراعيه بانفعال:

— مجانين! إنهما مجانين تمامًا! لماذا لا يتقاتلان بكلمات لطيفة مثل الناس العاديين؟ "أنا غاضب منك"، "وأنا غاضب منك أيضًا"، ثم ينتهي الأمر بالعناق والسلام!

هتف جوزيف ضاحكًا:

— شكرًا لك، جيروم، كنت بحاجة إلى هذه الحكمة العميقة وسط هذا القتال الدموي!

لكن آدم لم يكن يسمع تعليقاتهما، فقد ركّز على ألكسندر، الذي كان يتحرك بانسيابية قاتلة، قبل أن يندفع نحوه بضربة خاطفة. حاول آدم تفاديها لكنه تأخر جزءًا من الثانية، ليشعر بلسعة حادة على خده، وقطرة دم ساخنة تنساب إلى ذقنه.

لم يمنحه ألكسندر وقتًا للراحة، فوجه ضربة منخفضة نحو ساقه، تمكن آدم من تفاديها جزئيًا، لكن رأس الرمح شقّ جلده، ليشعر بألم لاذع في قدمه.

ألكسندر (في نفسه):

"إنه جيد... لكنه ليس جيدًا بما فيه الكفاية. لا أريده أن يخسر بسهولة. يجب أن يرى بنفسه... القتال الحقيقي لا يتعلق بالقوة فقط، بل بالقدرة على التفكير وسط الفوضى."

نظر آدم إلى جرحه ثم زفر ببطء، قبل أن يرسم ابتسامة صغيرة.

— إذًا... تعتمد كثيرًا على رمحك، أليس كذلك؟

رفع ألكسندر حاجبه وهو يلفّ الرمح في يده:

— وماذا في ذلك؟

ابتسم آدم أكثر، ثم انحنى، التقط حفنة من الرمل الدقيق المتناثر على الأرض—على الأرجح بقايا قديمة للأسلحة التي تم صقلها هنا—ورماها مباشرة في وجه ألكسندر!

— خدعة قديمة، لكنها فعالة!

— تبا!

حاول ألكسندر حماية عينيه، لكن اللحظة التي استغرقها في مسح الرؤية كانت كل ما احتاجه آدم. تحرّك بسرعة، اندفع للأمام وانزلق تحت الرمح، ثم وجّه ضربة خفيفة لكن حاسمة على جانب ألكسندر، كافية للإشارة إلى أنه لو كان قتالًا حقيقيًا، لكان قد انتهى.

وقف الجميع في صمت، حتى ألكسندر نفسه بدت عليه الصدمة. ثم، وبشكل غير متوقع، انفجر ضاحكًا.

— لم أتوقع منك مثل هذه الخدعة القذرة، آدم.

أعاد آدم كاتاناه إلى غمده وقال مبتسمًا:

— في الحرب، كل شيء مباح.

صفر جيروم بصوت عالٍ:

— رائع! والآن، من يريد أن يشرح لي لماذا يتصرف هذان الشخصان وكأن النزيف مجرد "تفصيل صغير"؟!

جلس آدم على الأريكة بينما كان جوزيف يحاول تنظيف الجرح على خده، وألكسندر يربط ضمادة حول ساقه.

تأفف جيروم وهو يحدق فيهما:

— أنتما فعلاً لا تعطيان قيمة لأجسادكما، أليس كذلك؟ أقسم أنني لو رأيتكما تتقاتلان مرة أخرى، سأُبلغ عنكما كخطر على الصحة العامة!

ضحك آدم بينما ضغط جوزيف على الجرح، مما جعله يتأوه.

— كن رقيقًا، يا رجل!

رفع جوزيف حاجبه وقال:

— أوه، آسف، كنت أظن أنك "محارب قوي"، أليس كذلك؟

تمتم جيروم:

— "محارب قوي"، لكنه يبكي عند وضع الكحول على جرح صغير.

أما ألكسندر، فقد كان ينظر إلى آدم بصمت للحظة، ثم قال بهدوء:

— لقد فاجأتني اليوم.

نظر إليه آدم باستغراب:

— لأنني فزت؟

هز ألكسندر رأسه ببطء:

— ليس فقط لهذا السبب... بل لأنك قاتلت بذكاء. لم تحاول مجرد التغلب علي بالقوة، بل فكرت. وهذا... شيء كنت أنتظره منك منذ وقت طويل.

لم يفهم آدم تمامًا ما كان يقصده، لكن شعورًا دافئًا غير مألوف انتابه. وكأن ألكسندر لم يكن يختبره فحسب... بل كان ينتظر منه أن يُثبت شيئًا ما.

ربّت جوزيف على كتفه قائلاً:

— حسنًا، أيها البطل، استرح الآن.

لكن جيروم تدخّل بسرعة:

— استرح؟! لا، لا، لا! تذكر، أيها "الفائز"، أن عليك الآن أن تختار مكان الغداء، وأخشى أنك ستختار شيئًا سيكلف ألكسندر ثروة!

ضحك آدم بمكر، بينما ألكسندر زفر قائلاً:

— رائع... يبدو أنني سأفقد أكثر من كرامتي اليوم.

جيروم (متنهداً):

— نعم، ألكسندر... اليوم هو يوم خسارتك العظيمة!

العالم الأول - الفصل الخامس: ليلة الأفلاس والفوز

بعد انتهاء المباراة وتضميد الجراح، صعد الجميع إلى الطابق العلوي في منزل آدم. كان التعب قد بدأ يتسلل إلى أجسادهم، لكنهم ظلوا يتحادثون، يضحكون، ويستعيدون بعضًا من طاقتهم المنهكة. كانوا يتبادلون النكات، وكان الهواء في الغرفة خفيفًا كالعادة، يعكس الألفة التي تجمعهم. الوقت مر بسرعة حتى بدأ قرص الشمس يتوارى خلف الأفق، وألقى بظلاله البرتقالية على الوجوه، مسجلًا لحظات الغروب التي بدا أنها كانت غامضة لآدم. لكن عندما حان وقت الرحيل، رافق آدم وألكسندر كلًا من جوزيف وجيروم إلى باب المنزل.

قبل أن يغادروا، نظر جيروم إلى آدم وغمز له بعينٍ مليئة بالسخرية، وقال: – غدًا نضع خطة محكمة... كيف ستفوز بقلب محبوبتك، يا عنترة هذا العصر.

ارتبك آدم على الفور، وبدأ في السعال المصطنع وكأن شيئًا لم يكن، متمنيًا أن لا يسمع ألكسندر هذه اللمحات الساخرة. لكن، ومع غلق الباب، التفت ألكسندر إليه، وابتسم ابتسامة عريضة كانت خليطًا من الفضول والسخرية. قال وهو يلوح برأسه: – أعترف... أعترف، ودع الأمور تمر بسلاسة. ما القصة يا فتى؟ هل ضربك سهم كيوبيد دون أن تشعر؟

أطرق آدم رأسه بتوتر، ثم تمتم: – ليس كما تظن... هي فقط... مختلفة. وجودها يربكني.

رفع ألكسندر حاجبًا، ثم اقترب منه قائلاً بلطف: – يا صديقي، عندما تقول "مختلفة"، فاعلم أن قلبك قد سبق لسانك بخطوات.

ارتبك آدم أكثر. كان يعلم أن سرّه قد انكشف، وكان مجبرًا على الموافقة، فقرر أن يتماشى مع التيار حتى تمر الأمور بسلام. وفي صباح اليوم التالي، بدأ يجهز نفسه لجلسة عادية مع الأصدقاء، لكن قلبه كان ينبض بسرعة أكبر مما ينبغي.

اتفق الفتية – في مكالمة جماعية جرت في الليلة الماضية – على اختيار أحد أفخم المطاعم في المنطقة، والسبب المعلن كان الترفيه، أما السبب الحقيقي فهو مؤامرة صغيرة للانتقام من ألكسندر بسبب خسارته في المباراة السابقة، وتكليفه بدفع فاتورة العشاء الفاخرة، وهو ما كان قد تم الاتفاق عليه مسبقًا بين أدم وأصدقائه.

عندما انتهى آدم من ارتداء ملابسه، دخل ألكسندر إلى الغرفة، وهو يصفر بنغمة ساخرة، وعيناه تتنقلان بينه وبين ملابسه. قال مبتسمًا: – أوه لا... ما هذا التأنق يا هذا؟! تذكر، نحن ذاهبون كـ"شباب فقط"... لا فتيات، ولا معشوقات!

آدم نظر إليه وهو يعرف تمامًا أنه وقع في الفخ، فابتسم بخفة وقال مستسلماً: – ههههههه... هذا ظريف. أرجوك، أرحمني من تعليقاتك اليوم، فقط يوم واحد.

اقترب ألكسندر منه، وهو يرفع حاجبيه وكأن يتأمل قطعة فنية، ثم قال ضاحكًا: — لن أعدك بشيء... لكن إن أوقعتنا في موقف رومانسي مفاجئ، فأنا أول من سيصفق لك!

ضحك الاثنان معًا، ضحكة دافئة تملؤها المشاكسة والمغامرة. وعلى الرغم من أنه كان مشغولًا بتحضير نفسه لليلة عادية، كان قلبه مشغولًا بشيء آخر.

وصلوا إلى المطعم الفخم، وكانت الأضواء الخافتة تملأ المكان بالأجواء الهادئة والمريحة. النادل جاء وهو يقدم لهم قوائم الطعام اللامعة، بينما كانت الأطباق المتنوعة تُرتب بعناية على الطاولة. الشواء والسمك الطازج كانت الروائح العطرة تعم المكان، وتثير شهية الجميع. ومع ذلك، كان آدم مشغولًا في شيء آخر.

فجأة، دخلت أمبر إلى المطعم مع صديقاتها، وكأنها دخلت من عالم آخر. جمالها كان ساحرًا لدرجة أن الضوء حولها أصبح أضعف في المقارنة. كان فستانها ينساب برشاقة فوق جسدها، والشعر الطويل يتدفق على كتفيها كالحرير. كان وجهها مشرقًا، وعينيها تتلألأ كالأحجار الكريمة تحت الأضواء الخافتة. كان يبتسم كل من حولها في عفوية، وكأنها كانت مصدر الضوء في هذا المكان الفاخر.

عندما رآها آدم، تجمد لحظة في مكانه، وكأن الزمن قد توقف. كان كل شيء حوله ضبابيًا، عينيه عالقة فيها، في تفاصيل وجهها الذي تخلله براءة وطبيعية تجعلها أكثر

من مجرد جميلة. كانت تبتسم في هذه اللحظة، ابتسامة لا يستطيع آدم إلا أن يطيل النظر فيها.

لكن حين دخلت أمبر إليهم، توقفت عند الطاولة، ونظرت إلى آدم بعيون تتألق بابتسامة خفيفة وقالت: – هل أنت بخير؟ أراك مع الضمادة في وجهك. هل تعاني من شيء؟

آدم، الذي كان يحاول تهدئة قلبه، رد وهو يحاول الابتسام بتوتر: – لا، لا تقلقي... هي فقط ضمادة عادية. لا شيء خطير.

أمبر ابتسمت برقة، ثم أضافت: – حسناً، لا أعرف إن كانت الضمادة هي السر، ولكن مع هذه الملابس، كل شيء يبدو أكثر أناقة.

ثم تقدمت خطوة للأمام، وأعطته حسابها على الإنستجرام بكل بساطة، بينما قالت: – هذا حسابي، إذا أردت التحدث لاحقًا. سيكون من الجيد البقاء على تواصل.

أدم أخذ الهاتف، وكان لا يزال في حالة من الدهشة، وهو لا يستطيع تصديق ما حدث لتوه.

آدم الذي كان يحاول أن يبدو طبيعيًا، بدأ يشعر بارتباك في جسده. جيروم، الذي لاحظ التغيير المفاجئ في ملامح آدم، هتف ضاحكًا: – هل ترى هذا؟ الضمادة، يا آدم! هذا هو السر، الضمادة هي التي جعلتك جذابًا!

ألكسندر أيضًا كان يبتسم ساخرا، وقال: – أظن أن الضمادة تستحق جائزة أفضل أداة جذب!

ألكسندر كان يراقب المشهد وهو يبتسم باستهزاء، ثم قال مازحًا: – ربما كانت هذه الحيلة هي التي غيرت مجرى الأمور. لكن، لا مشكلة. سأدفع الفاتورة اليوم، كما تم الاتفاق.

بينما كانوا يجلسون حول الطاولة في المطعم، يتبادل الجميع النكات والضحكات، وكان جوّ من الفكاهة يعم الأجواء. فجأة، نظر جيروم إلى ألكسندر وهو يبتسم بسخرية خفيفة، وكأنه يخطط للمزاح مع الجميع.

قال جيروم، وهو ينقر على الطاولة ليجذب انتباه الجميع:

"ألكسندر، هلّا أخبرتنا كيف التقيت بآدم؟ بديت تلميحات عن هذا الموضوع من قبل، لكنني متأكد أن هناك قصة مذهلة وراء هذا اللقاء! هل حقًا أنقذته من الموت عندما كان حديث الولادة في صندوق؟"

لمح ألكسندر إلى جيروم بعينيه اللامعتين، وعاد بابتسامة مليئة بالسخرية، متظاهرًا بأنه يفكر في الإجابة:

"آه، نعم... كنت في ذلك الوقت في الثانوية، وجاءني صديق لي ليقول لي أنه رأى شيئًا غريبًا في أحد الأزقة المهجورة. عندها قررت أن أذهب مع أصدقائي للاستكشاف. وعندما وصلنا، كان هناك صندوق قديم جدًا ملقى على الأرض. وفجأة، عند فتحه، اكتشفنا أنه كان يحمل آدم، رضيعًا حديث الولادة، ملفوفًا في بطانية مهلهلة."

رفع ألكسندر حاجبيه قليلاً، بينما يتذكر الحادثة، ثم تابع:

"كان يصرخ، يبكي، وكان ضعيفًا جدًا... تخيلوا، كان يكاد لا يتنفس. لحسن الحظ، كان أمامي خياران: إما أن أتركه في ذلك الوضع وأمضي في طريقي، أو أن أتحمل المسؤولية. بالطبع، اخترت الخيار الثاني، وأخذته على الفور إلى أقرب مركز طبي."

ابتسم ألكسندر بسخرية وهو يحدق في الجميع، بينما بدا على وجهه علامات الفخر والتهكم. لكن فجأة، انقطعت ضحكات الجميع عندما قال جوزيف بتعليق غير متوقع:

"يبدو أنكما فعلاً كالأخوة، هذا مشهد يشبه الأفلام... أخبرني ألكسندر، هل كان هناك بالفعل نوع من العلاقة الأسرية بينكما منذ البداية؟"

فجأة، تجمد ألكسندر للحظة. كان الارتباك واضحًا على وجهه، وكأن السؤال قد مسّ شيئًا عميقًا بداخله. عينيه بدأتا تتنقلان بين الوجوه حول الطاولة، وكأن كل شيء قد توقف للحظة

ثم استعاد ألكسندر توازنه بسرعة، وضحك بخفة، وقال:

"أخوة؟ لا، لا... نحن فقط كنا في المكان الصحيح في الوقت الصحيح. ربما لو كنت أخذته إلى أبعد من ذلك في تلك اللحظة، لكان لدينا قصة مثيرة أخرى، لكن الآن، نحن مجرد أصدقاء، أليس كذلك؟"

أضاف وهو يتنهد:

"على أي حال، كما ترون، نحن هنا اليوم، أصدقاء، ومنافسين أيضًا. ولكن لا أعتقد أنني كنت سأحظى به في حياتي و لم سأصل إلى ما أن إليه من ثراء أو شهرة لو لم أقرر مساعدته في تلك اللحظة."

ضحك الجميع، بينما عاد ألكسندر إلى عادته في إلقاء النكات على حساب آدم. لكن الجميع لاحظ كيف أن تعليق جوزيف قد جعل ألكسندر يشعر بشيء مختلف، كما لو أن هناك شيء غير معلن بينه وبين آدم. ومع ذلك، حاول ألكسندر أن يبدو طبيعيًا كما هو، وأن يواصل حديثه كأن شيئًا لم يكن.

ثم وصلت لحظة الفاتورة، وجاء النادل وهو يحمل الفاتورة الكبيرة على طبق معدني أنيق. جيروم، الذي لم يكن يستطيع أن يفوت هذه اللحظة، نظر إلى ألكسندر وقال بنبرة مازحة: – والآن، البطل الذي خسر الرهان عليه هو من سيدفع، صحيح؟

ألكسندر رد بتهكم: – لولا الحيلة القذرة في المباراة لكانت النتيجة مختلفة! لكنني سأدفع، لأن هذا جزء من التحدي.

ألكسندر، الذي حاول ألا يظهر توتره، أخرج بطاقته الائتمانية وقال: "لا مشكلة، سأغطي هذا. لكنكم لم تتوقعوا أن يكون الثمن غاليًا إلى هذا الحد، أليس كذلك؟"

بينما كان الجميع يضحك، شعر آدم بشيء غير معتاد في قلبه. كان يشعر أنه دخل مرحلة جديدة من حياته، مرحلة مليئة بالمفاجآت التي قد تكون أكثر إثارة مما يتخيل.

بعد أن انتهوا من تناول العشاء في المطعم الفخم، نزل الجميع من الطاولة وقد خيّم شعور بالراحة الخفيفة على الأجواء. كانت الوجوه مشبعة بالمزاح والضحكات، ولكن على وجه آدم كانت هناك سحابة من التوتر تُخفي مشاعره الحقيقية. كان ذهنه مشغولًا بمختلف التفاصيل التي مرّ بها، وخاصة تلك اللحظة التي التقى فيها بأمبر.

خرجوا جميعًا من المطعم إلى السيارة، وكان ألكسندر يقود، فيما كان جيروم وجوزيف يتمازحان خارجها. في تلك اللحظة، كان آدم يشعر بمزيج من الفخر والارتباك. كان فخورًا بأنه استطاع التغلب على ألكسندر في المواجهة الرياضية، لكنه كان أيضًا متوترًا بشأن نظرات أمبر التي لا تفارق ذهنه، وكيف تركت انطباعًا عميقًا في قلبه.

بينما كانوا يستعدون للانطلاق، نزل جيروم وجوزيف من السيارة ليمشيان قليلًا حول الحي. فورًا، أدار آدم رأسه إلى ألكسندر وجلس بجانبه في المقعد الأمامي.

قال ألكسندر بنبرة هادئة وهو ينظر إلى الطريق، مُختارًا أن يفتح الحديث بطريقة غير مباشرة:

"حسنًا، أعتقد أنني كنت على وشك إعلان إفلاسي التام هناك، لو لم يكن هناك بعض الحيل."

أجاب آدم بابتسامة خفيفة وهو ينظر إلى ألكسندر، وهو يعلم أن الأخير لا يصدق ما جرى:

"أوه، لا، لا. مجرد حيلة بسيطة. هل تتخيل لو كانت الفاتورة أكبر من ذلك؟ ربما كنت الآن تشتري المطعم كله."

ضحك ألكسندر بصوت منخفض، وعيناه تتراقصان من السخرية:

"أنت لم تترك لي أي مجال... ولكن بما أنك نجحت في إفقادي، فإنني سأكون أنا المدين اليوم. كنت على وشك الفوز... لولا الحيلة القذرة."

آدم شعر بمزيج من السعادة والراحة وهو يتحدث مع ألكسندر بهذه الطريقة، وكأن كل شيء أصبح أفضل بعد تلك السهرة. رغم أن ألكسندر كان لا يزال يتعامل مع الفاتورة الثقيلة، إلا أن المزاح بينهما أزال أي توتر قد يشعر به آدم.

سكت لحظة، ثم قال آدم وهو ينظر إلى السماء الهادئة:

"أعتقد أنني أخيرًا أفهم سر النصر في هذه اللعبة... وأنت بالطبع، أخي الأكبر في هذه الأمور."

ألكسندر ابتسم بابتسامة عريضة، ثم أضاف:

"إذا كنت تعتبرني أخًا، فأنا سعيد. لكن، دعنا لا ننسى، أنت فقط نجحت في أن تأخذ مني أموالي... ولا تنسَ أنه على الرغم من هذه 'النجاحات' الصغيرة، عليك أن تكون مستعدًا لدفع الفاتورة في المرة القادمة."

ضحك آدم وهو يشعر بالارتياح أكثر، بينما كانت أضواء المدينة تتلألأ من النوافذ، وكأن كل شيء عاد إلى مجراه الطبيعي بعد تلك الأمسية المليئة بالضحك والمشاكل.

العالم الأول - الفصل السادس: البداية ؟؟

حين وصل آدم وألكسندر إلى المنزل بعد السهرة، كان الليل قد لفّ المدينة بردائه الهادئ، والمصابيح تسطع في الشارع كأنها نجوم سقطت ولم تجد طريق العودة. دخل كلاهما وهما يجرّان خطواتهما بتعبٍ ممتزج بآثار الضحك الطويل، بينما لا يزال ألكسندر يتذمّر من «المجزرة المالية» التي تعرض لها في المطعم.

– خمس مقبلات؟ من طلب خمس مقبلات؟! – قال ألكسندر وهو يخلع سترته ويرميها على أقرب كرسي – ثم تلك الحلوى... ألم تكن تكفيهم حياة كاملة من السكر؟

ضحك آدم من قلبه وهو يفتح حذاءه: – لا تبالغ، كانت لذيذة. ثم لا تنسَ... الاتفاق اتفاق. أنت من خسر التحدي.

– بخدعة! بخدعة خسيسة! – قال ألكسندر بنبرة تمثيلية وهو يشير بأصبعه – لولا تلك الحيلة المفاجئة، لكنت أنا الآن من يجلس ويضحك على إفلاسك.

خلع آدم قميصه برمية متعبة على ظهر الأريكة، واتجه مباشرة إلى الحمّام، حيث راح بخار الماء يغلف جسده المُرهق، وكأن الدقائق تحت الدُشّ كانت محاولة للغفران لما فعله اليوم من تأنّق ومراهقة وقليل من الغباء اللذيذ.

خرج لاحقًا إلى المطبخ، شعره ما يزال مبعثرًا وقطرات الماء تلتصق برقبته، ففتح الثلاجة وأخرج علبة زبادي بنكهة الفراولة – الشيء الوحيد الذي لا يحتاج إلى تفكير أو تسخين.

كان ألكسندر قد استلقى على الأريكة، بثياب المنزل الفضفاضة، يقلب جهاز التحكم بتكاسل قبل أن ينظر نحو آدم قائلاً:

– بالمناسبة... العودة المدرسية بعد يومين، صحيح؟

رفع آدم رأسه وهو يلعق غطاء الزبادي: – للأسف... كأن العطلة كانت مزحة قصيرة من الزمن.

– هل بدأت تراجع شيئًا؟ أو حتى فتحت كتابًا واحدًا؟

– بالطبع... غلافه على الأقل.

قهقه ألكسندر بصوت عالٍ: – ممتاز! الطالب المثالي في أفضل حالاته. دعني أخمن، ستبدأ المراجعة ليلة الامتحان، مع قهوة باردة وقلب مضطرب؟

– لا لا... – قال آدم وهو يجلس على الكرسي – هذه المرة سأبدأ قبل يومين.

– واو، أي تطوّر! فخر التربية الحديثة.

ضحك آدم، ثم استند إلى الطاولة بصمت لحظة، كأن شيئًا من الهمّ مرّ ببالِه.

– بصراحة... أشعر أني تائه هذا العام، لا أعرف ما الذي أريده بعد التخرج. أشعر أنني أعيش أيامًا مكرّرة.

ألكسندر أدار رأسه نحوه ببطء، ثم قال بنبرة أكثر هدوءًا: – طبيعي يا آدم... عمرك سبعة عشر عامًا، لا أحد يعرف ما يريد حقًا في هذا السن. أنا في الثلاثين وما زلت أغير خططي كل أسبوعين.

– لكنك تبدو دائمًا واثقًا... حازمًا.

– أنا؟! – ضحك ألكسندر – الثقة جزء من المسرحية التي أقدّمها يوميًا. خلف الكواليس، أنا أبكي عندما أرى أسعار البنزين.

انفجر آدم ضاحكًا: – طمأنتني... كنت أظنك روبوتًا مبرمجًا على النجاح والهدوء.

– روبوت؟! مستحيل، أنا إنسان حقيقي جدًا... خاصة عندما أفتح حسابي البنكي بعد عزومة مثل اليوم.

هزّ آدم رأسه مبتسمًا، شعر بنوعٍ من الدفء الغريب... كأن هذا الحوار العابر كان أكثر صدقًا من عشرات النصائح المعلّبة التي سمعها من معلميه. ربما كان ألكسندر فوضويًا أحيانًا، وساخرًا أغلب الوقت، لكنه كان رفيقًا حقيقيًا... وربما، دون أن يعترف، قدوة بطريقة ما.

– حسنًا، سأصعد. أريد... أن أراجع قليلاً. – قال آدم وهو يلمّح بوضوح أنه يقصد شيئًا آخر غير الدراسة.

رمقه ألكسندر بنظرة متفحصة، ثم قال: – أرسل تحياتي إلى أمبر.

– ليست مكالمة! فقط... صور.

– نعم، نعم... صور ثم إعجاب، ثم رسالة، ثم انهيار نفسي.

ضحك آدم بصوت خافت، ثم صعد إلى غرفته، حاملاً علبة الزبادي التي لم يكملها.

كانت غرفته كما تركها: فوضى كُتُب، ووسادة معوجة، وستائر نصف مغلقة. جلس على سريره، وأخرج هاتفه. فتح حساب أمبر.

كانت هناك، تبتسم في صورة جديدة، شعرها منسدل بلون القمح المشمس، وعيناها العسليتان تلمعان كأنهما تخفيان سراً صغيراً.

"يا الله..." قال آدم في نفسه، "لو كانت الجمال جريمة، لكانت أمبر أخطر مجرمة في البلاد."

فتح صورة، ثم أخرى... قلبه يدق برتابة غريبة، مزيج من ارتباك وحماس ودهشة. أراد أن يكتب شيئًا... لكنه اكتفى بعبارة في ملاحظاته:

"سأحاول أن أدرس... لكن وجهها في مخيلتي ينسف كل القواعد

في الجانب الآخر من المنزل، في غرفةٍ تغمرها العتمة والسكون، لم يكن في المكان سوى صوت عقارب الساعة وهمسات الريح من النافذة نصف المفتوحة. جلس ألكسندر على طرف السرير، ظهره محني قليلاً، كأن ثقل الأيام كلها يتكئ على كتفيه.

رنّ هاتفه المحمول بنغمة خافتة، نغمة مختلفة، لا تشبه بقية الاتصالات... كأنها تعويذة توقظه من سباته. لم يظهر اسم، فقط رمز واحد على الشاشة: "S".

أجاب دون تردد، لكن بصوت منخفض، أشبه بتهدئة لبركان داخلي: – لم أتوقع أن تتصلي الليلة.

جاء صوتها، دافئًا في البداية، ثم سريعًا ما غمره قلقٌ متوتر: – وجودك هناك... خطأ.

تجمدت ملامحه، كأن الكلمات صفعته، ثم ضغط على الهاتف بقوة وأجاب: – لقد ناقشنا هذا.

قاطعت حديثه: – ألكسندر... ليس من أجلك فقط. إنه خطر... عليك، وعليه أيضًا. لا يجب أن تكون قريبًا منه. هذا... يخلّ بالتوازن.

ارتفع حاجباه قليلاً، ثم قال بنبرة مزيج بين السخرية والحزن: – أتحدثين عن "التوازن" وكأنني مجرد حجر في لعبة شطرنج؟

– لا تمزح. تعرف جيدًا ما أعنيه. إن بقيت، الأمور لن تسير كما خُطط لها. بدأت العلامات تظهر.

رفع عينيه نحو الخزانة المفتوحة قليلاً، حيث ذلك الوميض الأزرق يتلألأ بخفوت مريب، يختبئ كما لو كان ينتظر لحظة فرار. ثم عاد إلى الهاتف، عينيه تتقدان بصلابة:

– لا شيء سيحدث له. لن يمسّه سوء... لن يخوض طريقًا لم يُكتب له... لن يخطو خطوة واحدة في ذلك المصير...

ثم أكمل بصوت أجشّ، كأنه يقسم قسمًا أزليًا: – ...إلا على جثتي.

ساد صمت مفاجئ في الطرف الآخر... كأنها لم تتوقع هذا الجواب.

ثم همست أخيرًا: – لا تنسَ... الماضي لا يرحم من يتجاهله.

وأغلقت الخط.

حدّق في الهاتف لثوانٍ، قبل أن يضعه جانبًا. نهض من السرير ببطء وتقدّم نحو الخزانة المفتوحة. من بين الظلال ظهر الغرض الذي يشع بلون أزرق بارد، كأنه جمرة ميتة من زمن قديم.

اقترب أكثر حتى رأى صورته المنعكسة في المعدن، لكنها لم تكن صورته المعتادة.

عينا ألكسندر... تلك التي يعرفها كل من حوله، كانت بنية دافئة. لكن في الانعكاس، كانت خضراء فاقعة، مشعّة، تُحيط بها ندوب ضبابية، تشقّ وجهه كخريطة ألم، كأنما تاريخه قرر أن يُطلّ برأسه.

وعند الزاوية، على الرفّ العلوي، برز إطار خشبي مائل. نصف الصورة مخفيّ، لكن ما يظهر منها كافٍ ليؤلم القلب.

رجل شاب يحمل رضيعًا ملفوفًا ببطانية بيضاء، يقفان تحت المطر، وعلى وجهيهما تعابير لا توصف... شيء بين الخوف، والدهشة، والحب الذي لم يُولد بعد.

حدّق ألكسندر فيها طويلًا، ثم همس: – عائلة... حتى وإن لم يسمح لنا الزمن بذلك.

ابتلع ريقه، ثم أدار ظهره وأغلق الخزانة بصمت، تاركًا الوميض الأزرق خلف الباب، كما لو أنه حبس سرًا لا يجب أن يُروى.

أطفأ النور، وعاد إلى سريره، لكن النوم كان بعيدًا... كالماضي.

أغمض آدم عينيه ببطء، وكان النوم قد اقترب منه، لكن تلك الغمامة التي عادت دائمًا، تلك التي تحتوي على أسئلة غير مُجاب عنها، بدأت تلقي بظلالها على ذهنه. في لحظة غريبة، انتقل به الحلم إلى عالم آخر، عالم لا يشبه أي شيء اعتاد عليه.

وجد نفسه في مكان غريب، كان الهواء ثقيلًا والمكان مظلمًا، لكنه استطاع أن يُميز شيئًا ما. المكان كان شبيهًا بصحوة قديمة، مع جدران عالية وأسقف مزخرفة بألوان باهتة، أشبه بكهف مهجور منذ قرون. في الزوايا كان هنالك ضوء خافت، يشع من مكانٍ لا يُعرف.

من بعيد، سمع صوت امرأة، ناعمة في نبرتها لكنها تحمل شيئًا من الغموض، تنادي على الجميع: – ابتعدوا من هنا... هذه مكان الطقوس.

وفي الزمان الذي بدا وكأنه لا يتبع قواعد الأرض، ظهرت امرأة ذات ملامح صارمة لكنها جميلة، تحمل في عينيها قصة قديمة من الحزن والقدرة. كانت ترتدي ثوبًا مميزًا، أزرق اللون وفضفاض، وأكمامها كانت مطرزة بنقوش غريبة. إلى جانبها كان يقف رجل، يبدو من هيئته أنه ملك. وجهه كان ملامح ضبابية، لا يمكن تمييزها تمامًا، ولكن عينيه كانت تلمع كالجواهر القديمة، وكأنهما تعرفان التاريخ بأسره.

في زاوية الغرفة، كان هنالك طفلان رضيعان، ملتفين في بطانيات بيضاء، ناعسان، هادئان، وكأن الوقت لا يعنى لهم.

لكن هناك شيء آخر في الغرفة. شيء لم يكن على ما يرام. كان هنالك طفل آخر خارج الغرفة، جالسًا على الأرض، يراقب الجميع بقلق واضح في عينيه، لكنه لم يتحرك. بدا كأنه يشعر بعبء ثقيل في قلبه، شيء غير مرئي كان يضغط عليه.

أراد آدم أن يتقدم نحو هذا الطفل ليفهم ما يحدث، ولكن فجأة شعر بشيء غريب. كلما اقترب، أصبح كل شيء غير واضح. تلاشى الضوء وتحولت الغرفة إلى الظلام. ثم في لمحة، كان الطفل أمامه، ولكن كما لو أن شيء غير بشري كان يسيطر عليه. عيون حمراء مشتعلة، تلمع في الظلام كما لو أن الدم كان يتدفق فيها.

وأغمضت الأجواء حوله فجأة. وجدت النيران السوداء تلتهم كل شيء. كانت تلتف حول جسده، تتسلل إلى روحه، وفي تلك اللحظة كان يشعر بشيء غريب يدخل في

جسده. كانت النار تُلهب عقله، تتسلل عبر الأجزاء المظلمة في ذهنه، تتجمع في كل زاوية.

ثم، انفجرت الكلمات في الظلام، صوت صرخ عميق ومخيف، يكاد يسحب الروح من جسده. كان الصوت يخترق في أذنه قائلاً، بصوتٍ مرعب: – "أنتَ أقرب مما تعتقد... وقريب جدًا."

شعر آدم بشيء ثقيل في صدره، وكأن هذا الصوت يضغط عليه، يرهقه. كانت النيران السوداء تطوقه، والعيون الحمراء تلاحقه في الظلام.

ثم في لحظة، استفاق من نومه. قفز بسرعة من على سريره، يشعر بارتجاف في جسده، وكأن البرودة قد تسللت إلى كل خلية في جسده. كان التنفس سريعًا، متسارعًا، بينما عيناه لا تزالان تلاحقان تلك الصورة التي خرجت من الكابوس.

لكن ما شعر به الآن لم يكن مجرد خوف. كان هناك شيء آخر. شيء غريب في جسده، كما لو أن ما حلم به قد ترك له أثرًا في عالمه الواقعي. وكأن تلك النار السوداء قد تسللت إلى روحه بطريقة أو بأخرى، تاركة وراءها شعورًا من القلق العميق والمقلق.

نظر إلى يديه، ولم يستطع أن يحدد إن كان ذلك الشعور مجرد هلوسة أو شيء حقيقي. لكن، في قلبه، كان يعلم أن هذا الحلم كان مجرد بداية، وأنه سيرتبط بشيء أكبر مما يظن.

كان يفكر، حتى في وسط الخوف الذي يعتصره، بأن هذا الحلم لم يكن مجرد تهيؤ، بل رسالة. رسالة لم يكن يستطيع تفسيرها بعد.

لكن مهما كانت تلك الرسالة، فكان يعلم أن الأيام القادمة ستكشف الكثير.

العالم الأول - الفصل السابع: اليوم الأول

استفاق آدم على صوت خافت للمروحة الكهربائية تدور فوق رأسه، تُحدِث طنينًا رتيبًا يشبه نبضًا لا ينتمي لجسده. عينيه نصف مفتوحتين، يحدّق في سقف الغرفة كأنّه يحاول تذكّر وجه حلمٍ تبخّر قبل أن يمسك بتفاصيله. كان قلبه ينبض بخفوتٍ غير معتاد، وكأنّه انتهى للتو من سباقٍ لا يذكر أنّه شارك فيه.

جلس على السرير ببطء، وراح يمرّر يده في شعره المبعثر، تنفّس بعمق، ثم زفر وكأنّه يطرد شيئًا غريبًا من صدره. لم يكن مرتاحًا تمامًا، لكن لم يكن مضطربًا تمامًا أيضًا... شعور رمادي يتوسّط الطمأنينة والقلق، كأنّ شيئًا ما قد انكسر داخله دون صوت.

تمتم بصوت خافت: – ما كان ذاك الحلم اللعين...؟

نهض من سريره وتوجّه إلى الحمام. الماء البارد لم يُنعشه كالمعتاد، بل زاده وعيًا بذلك الشعور الغريب الذي يُخفيه جسده كسرّ صغير لا يريد أن يبوح به. بعد دقائق، خرج وهو يمسح وجهه بمنشفة قطنية، وارتدى ملابس خفيفة استعدادًا ليومٍ دراسي آخر.

في المطبخ، كان ألكسندر قد سبقه كعادته، يرتدي قميصًا رماديًا مفتوح الأزرار عند العنق، ويشرب قهوته السوداء بصمت وهو يحدّق في شاشة هاتفه.

رفع عينيه فور دخول آدم، وألقى نظرة سريعة عليه، ثم قال بلهجة خفيفة، لكن فيها نبرة ملاحظة دقيقة: – تبدو وكأنك هُزمت في معركة ضد وسادة. وجهك أشبه بحائط تعرّض لحرب نفسية.

ابتسم آدم بخفة، وجلس على الكرسي المقابل، قائلاً بصوت شبه ناعس: – مجرد كابوس... لا شيء.

ألكسندر لم يعلّق فورًا، بل أخذ رشفة أخرى من قهوته، ثم نظر إليه ثانيةً، بعينين تفهمان أكثر مما تظهران: – كوابيسك ليست "مجرد" أبدًا.

آدم أدار وجهه نحو النافذة، يراقب قطرات الندى على الزجاج، ثم قال محاولًا تغيير الموضوع: – عندنا رياضيات أول حصة... هل هذا لا يُعد كابوسًا أيضًا؟

ضحك ألكسندر بخفة، وهزّ رأسه: – النقطة لك.

نهض آدم متثاقلاً، حمل حقيبته، وقبل أن يغادر المطبخ، التفت إليه وقال: – لا تقلق، أنا بخير... على الأرجح.

راقبه ألكسندر وهو يخرج، ابتسامة خفيفة على وجهه، لكن عينيه بقيتا معلقتين بظهر آدم... وكأنّه يعلم أن شيئًا ما يتحرّك في الأفق.

حين بلغ آدم زقاق جوزيف، كان ضوء الشمس قد بدأ يتسلل بخجل بين الأبنية، يغمر الأرصفة بدفء ناعم، ويبعثر الضوء فوق أوراق الأشجار المتراقصة بكسل في نسمات الصباح الأولى. كانت خطواته أخفّ من المعتاد، كأن في قلبه نغمة لا يُحسن عزفها، لكنها تدفعه للمضيّ بثقة هادئة.

وقف أمام باب المنزل العتيق، بواجهته الصفراء التي نال منها الزمن، ونباتاته المتدلّية من الشرفة كعناقيد خضراء تنشد الخلاص. رفع يده ليطرق، لكنه لم يُمنح الفرصة. إذ انفتح الباب فجأة، وخرج منه جوزيف، مرتديًا الزيّ المدرسي ذاته: قميص أبيض مكويّ بدقة، وسروال داكن يُضفي وقارًا زائفًا على روحٍ لا تعترف بالهدوء.

كان يحمل حقيبته على كتف واحدة، كعادته، وشعره مصفف بعشوائية مدروسة، أما ملامحه فقد كانت تجمع بين النعاس واللامبالاة.

ابتسم آدم ابتسامة خفيفة وقال، وهو يشير إلى الزي: – لا أدري، هل نبدو كطالبين متفوقين... أم كعنصرين في طابور التعذيب الصباحي؟

قهقه جوزيف وردّ ساخرًا: – بل كأننا خرجنا من مصنع تعبئة الطلاب الموحد... ينقصنا فقط رقم تسلسلي على الجبين.

أجابه آدم بابتسامة مرهقة: – على الأقل لم أرتدِ ربطة العنق، لا أريد أن أشنق نفسي بنفسي في اليوم الأول.

في تلك اللحظة، ظهرت والدة جوزيف في مدخل البيت، تمسح يديها في منشفة قطنية، ووجهها يفيض حنانًا، وعيناها تلمعان بتلك النظرة التي تمزج بين الحب والقلق الأبدي.

قالت وهي ترفع حاجبيها بدهشة مصطنعة: – يا إلهي! من هذا الشاب الوسيم؟ أهذا آدم الصغير الذي كان يسرق من طبق الكعك قبل أن يبرد؟

انحنى آدم قليلًا وقال ممازحًا: – لم أتغيّر كثيرًا، لا زلت أسرق... لكن صرت أكثر احترافًا.

ضحكت الأم وربتت على كتفه برفق: – لو كنتِ فتاةً، لخطبتك لابني فورًا... لكن قدركما أن تكونا رفيقي شغب، لا عريسي زفاف.

غمز جوزيف لأمه وقال: – أرجوكِ، لا تعطيه ثقةً زائدة، رأسه بالكاد يدخل من الباب الآن!

ناولتهما الأم علبة صغيرة قائلة: – خذوا هذه، للقوت إن جاع الجسد قبل العقل.

ردّ جوزيف وهو يلتقطها: – وهل يوجد ما يُشبع العقل في أول يوم دراسي؟ سنحتاج معجزة، لا بسكويت.

ضحك آدم، وتابع السير برفقة صديقه، وقلبه يخفق على إيقاع خاص... كأن في الأفق شيئًا لا يُقال، يُنتظر فقط.

خرج الصديقان إلى الشارع في أول صباح من السنة الدراسية الجديدة، وكأنهما يطآن أرضًا لم تطأها أقدامهما من قبل، بزيٍّ موحّدٍ يجعل كل واحد منهما يشبه الآخر كمرآةٍ ساخرة. القمصان البيضاء مكوية بعناية لا تليق بطباعهما الفوضوية، والسراويل الرمادية تنكمش بتوتر على سيقان لم تعتد الالتزام.

المدينة ما تزال تستفيق ببطء، والضوء الذهبي ينثر خيوطه على الأرصفة المبللة بندى الصباح، فيما الهواء يحمل رائحة الخبز الطازج، ممزوجًا بأصوات بعيدة لعربات تجرها الدروس المنتظرة.

قال جوزيف وهو يرمق شاربه الصغير في زجاج نافذة عابرة: – أتعلم، أشعر كأنني بطل فيلم ممل... لا أملك بطولةً فيه سوى قصة شعر سيئة وقميص نظيف.

ضحك آدم وهو يربت على كتفه: – لا تبالغ... فحتى الكومبارس يحصل على وجبة مجانية أحيانًا.

ردّ جوزيف مبتسمًا: – بشرط ألّا يكون الطبق الرئيسي هو الإحراج الجماعي في طابور الصباح.

خطواتهما تتناغم مع ضحكاتهما، وكل منهما يدفع الآخر بنظرات متمردة على رتابة الحياة. وبينما هما ينعطفان عند زاوية الحي، جاءهما الصوت المعروف، بنبرته التي تجمع بين السخرية والنُعاس: – ها أنتما تعودان إلى الساحة... هل ما زلتما تأملان في النجاة من الأساتذة والواجبات؟

كان جيروم يتقدّم نحوهما بكوب قهوة يحمل آثار معركة خاسرة مع الوقت، شعره منكوش كأنّه خرج لتوّه من شجار مع الوسادة، وحقيبته تميل خلفه وكأنها تترجّاه أن يعود للنوم.

قال جيروم وهو يتفحّصهما بتهكّم: – حسنًا، لا أستطيع التمييز بينكما الآن... أنتما كنسختين رديئتين من كتيب تعليمات.

رفع جوزيف حاجبيه وقال بجدية مفتعلة: – لا تخف، ستتعوّد على جمالنا... هو صدمة أولية فقط.

رد آدم ضاحكًا: – خاصةً بعد أن ترى وجوهنا في حصة الرياضيات... سنبدو كلوحات فنية غير مفهومة.

تابعوا السير، يتنقلون من حديث إلى آخر بخفة ظريفة. تكلموا عن النوم القصير، عن الفطور السريع، عن الزيّ المدرسي الذي يبدو كعقوبة جماعية. وتارةً، كان جيروم يصف أحلامه الغريبة في العطلة، بينما كان جوزيف يخطط جديًا لمكان اختبائه عند نداء الأسماء في الطابور.

اقتربت المدرسة، واجتمعت في وجوههم تلك النظرة التي تجمع بين الحنين والتوجّس. قال آدم وهو ينظر إلى البوابة: – أول يوم... بداية جديدة.

رد جيروم، وهو يتأمل الوجوه المتزاحمة: – بداية جديدة... ونهايات كثيرة.

ضحك الثلاثة، بينما كانت الشمس تصعد شيئًا فشيئًا في سماءٍ مشوبة برهبة البدايات.

ما إن تخطّت أقدامهم عتبة المدرسة، حتى بدأت الجلبة المعتادة تتعالى من الساحة. وجوه مألوفة وأخرى نفضت عن نفسها غبار العطلة، تلتقي من جديد بنظراتٍ تنوس بين الفضول والضجر.

لكنّ آدم، الذي كان يمرّر يده في شعره بلا وعي، توقّف فجأة عن الحركة، كأن الهواء نفسه علق في صدره.

هناك، على بُعد خطواتٍ منهم، كانت تقف فتاة تشبه الشتاء حين يطلّ خجولًا على مدينة أنهكها الحرّ. شعرها البنيّ الطويل ينسدل بنعومةٍ على كتفيها، خيوطه تتراقص مع النسيم، كأنها ستنقلب إلى نوتة موسيقية في أية لحظة. عيناها خلف نظّارتين أنيقتين بدا زجاجهما وكأنّه حارسٌ لأفكارٍ أكثر عمقًا مما يُحتمل، فيما وقفت بابتسامة جانبية، نصفها تهكّم ونصفها الآخر يشبه الارتباك المدروس.

أمبر.

اختلط على آدم الشعور بالزمن، وكأن روحه تعثّرت به فجأة، وصدره انقبض في حركة لا إرادية، وشعر بحرارة تصعد من عنقه حتى أذنيه، بينما أصابعه قبضت على حزام حقيبته بقوة كأنها مرساة.

اقتربت منه أمبر بخطواتٍ خفيفة وقالت، وهي تميل برأسها قليلًا: – آدم... قرأت رسالتك. واو... لم أتوقع أن يكون لديك حس فكاهي فعلًا.

– هذا من تأثير الحمى، على الأرجح،

أجابها بتلعثم، كأن الكلمات ذاتها تشعر بالإحراج لمغادرة فمه.

ضحكت أمبر، تلك الضحكة التي بدت وكأنها طوق نجاة من غرقٍ عاطفي مفاجئ، ثم قالت: – حسنًا، لا تنسَ... الردّ برسالة واحدة فقط لا يُحسب تفاعلًا، هناك قواعد، يا حضرة المصاب دراميًّا.

ثم غمزت له وابتعدت، تاركة وراءها آدم معلقًا في مكانه، قلبه يقرع صدره كما يقرع طالبٌ متأخر باب الصف.

– واااااو،

قالها جيروم ممددًا الكلمة،

– هل رأيتم؟ الفتى الذي اعتاد التلعثم عند طلب "بيتزا" يتحدث الآن مع النساء... بل ويُغازَل!

– نعم... نعم،

أضاف جوزيف وهو يحدّق في نظاراته القديمة وكأنها بوصلته في الحياة،

– هذه الظاهرة تستحق التوثيق... آدم... الاجتماعي.

ردّ آدم وهو يسير إلى جانبهما محاولًا لملمة ما تبقّى من كرامته: – على الأقل، نظارتي لا تبدو كمصيدة فئران مربوطة بخيط مطبخي!

قهقه الثلاثة معًا، وجوّ المزاح اللطيف يلفّهم كغطاءٍ ناعمٍ في صباحٍ بارد. وبين خفقات قلب آدم، ونظراته التي كانت تسرق الالتفات نحو أمبر كل بضع خطوات، بدأ أول يوم دراسي يبدو أقلّ رتابة... وأكثر امتلاءً بوعدٍ غامضٍ بشيءٍ مختلف.

العالم الأول - الفصل الثامن: ظهور شيطانة الفصل

كانت الشمس تُطلّ بخجل من خلف ستارٍ رماديّ من السحب المتناثرة، وشارع المدرسة يضجّ بأقدام تلاميذ يتدافعون كأنهم يركضون نحو مصيرٍ ما، بينما في الداخل، كان الصفّ ينتظر أن يُكتب على سبورته أول سطر في حكاية طويلة.

دخل آدم، يتقدّمه جوزيف وجيروم، وجوههم مزيج من الحماس والتردد، خطواتهم تتردد في الفراغ المملوء برائحة الطباشير القديمة والذكريات الطازجة.

في المقاعد الأمامية، جلس فتى قصير، بشعرٍ أشقر تتخلله ومضاتٌ بنية كأن الشمس لعبت به قليلًا قبل أن ترسله إلى المدرسة. عيونه اللامعة ومظهره الطفولي جعلاه يبدو كأنّه ضلّ طريقه من أحد أفلام الرسوم المتحركة.

همس جيروم، يحدّق فيه:

– ما هذا؟ مخلوق كرتوني؟ أم أننا دخلنا مدرسة ابتدائية بالخطأ؟

ضحك جوزيف وأضاف:

– يبدو كمن ينام في بيتٍ من الحلوى ويكتب مذكراته على غيوم وردية.

لوّح الفتى بيده بسعادة قائلاً بصوتٍ حيويّ:

– مرحبًا! أنا ستيف... هل تعرفون متى يبدأ وقت الوجبة؟ جلبت معي ملعقتي الخاصة!

أطلق الثلاثة ضحكة قصيرة متقطعة، قبل أن يتبادلوا النظرات ويُكملوا جولتهم البصرية في الصف.

قرب النافذة، جلس شاب بشعرٍ داكنٍ فاحم، يغطي جبينه ويتدلى على عينيه قليلاً، ملامحه حادة وجذابة بطريقة طبيعية، قميصه الأبيض مشدود على جسده الرياضي، وفوقه سترة رياضية مرقوشة بشعار النادي الملكي الذي لطالما افتتن به.

همس آدم وهو يشير إليه:

– ومن هذا البطل الخارق؟

– كريس، – قال جوزيف – عاشق مدريد الأبدي... لو خُيّر بين فريقه وأمه، سيطلب تأجيل السؤال لأنه يحتاج إلى وقت للتفكير.

علق جيروم بخبث:

– ستجده يومًا يقترح أن تُدرّس مباريات الريال بدل الرياضيات.

كريس، دون أن يلتفت، قال بصوتٍ هادئ فيه نبرة فخر:

– كرة القدم أكثر من مجرد رياضة... هي ولاء، هوية... وإرث لن يُمحى.

أما بجوار الباب، فجلس فتى آخر يرتدي قميصًا عصريًا، يضع سمّاعة واحدة في أذنه، تتسرب منها موسيقى "الرّاي" التي تبدو غريبة تمامًا في هذا السياق. شعره مسرّح بجلٍّ لامع، وعيناه نصف مغمضتين، كأنه يعيش في حفلة خاصة لا تخصّ أحدًا سواه.

أشار جوزيف إليه وقال هامسًا:

– ستيفن... قصة شعره تقول "مغنٍ على وشك أن يوقّع عقدًا"، وموسيقاه تقول "هارب من الشرطة".

قهقه جيروم قائلاً:

– نكتفي بأن نراقبه، من يعلم؟ ربما غدًا نراه في نشرة الأخبار... لاعب "رّاي" محترف ارتكب جريمة سرقة قلوب.

ستيفن أدار رأسه إليهم وقال بابتسامة واثقة:

– لا تخافوا، سأؤلف أغنية عنكم... اسمها: "ثلاثي الهستيريا".

ضحك الجميع، وأحس آدم، وسط هذا الضجيج المرح، بشيء يشبه الطمأنينة. لقد بدأت ملامح عامه الدراسي تتشكل، لا كخطٍ مستقيم ممل، بل كمغامرة مرقّطة بالألوان والحماقات والاحتمالات.

همس لجوزيف وهو يجلس:

– أتساءل... ما الذي ينتظرنا؟

ردّ جوزيف:

– نحن من ننتظر العالم... فقط دعنا نبدأ.

وما إن مضت دقائق من تبادل النكات والملاحظات الساخرة، حتى بدأت المقاعد تمتلئ شيئاً فشيئاً. ضجيج الأقدام، ضحكات مكتومة، وأصوات دفاتر تُفتح وكراسات تُقلَّب، كأن الفصل يستعدّ لمشهد الافتتاح الكبير لمسرحية من نوعٍ خاص.

وفجأة، ومع انفتاح الباب بخفة، دخلت هي.

أنجي...

كأن اسمها سبقها بخطوة، أو كأن الهواء انحنى قليلاً ليُفسح لها الطريق. فتاة بشعرٍ أسود حالك، ينسدل بانسيابية كستارة ليلية تغطي كتفيها بنعومة، وعينين لوزيتين فيهما بريقٌ لا يُفسَّر، يوحي بأنها تعرف أكثر مما تقول. ملامح وجهها ناعمة لكن واثقة، وجسدها ممشوق يتحرّك برشاقة راقصة خبيرة، تُشيح النظر ولا تفقد السيطرة.

كانت ترتدي الزي المدرسي ذاته، لكنه بدا عليها وكأنه مصمَّم خصيصاً لها، ينساب على تفاصيلها بنعومة لافتة، دون ابتذال، بل بأناقة هادئة.

صاحت ما إن رأت آدم يجلس في منتصف الصف:

– آدم! يا ابن الكسل... ما زلت تجلس بنفس الوضعية منذ الابتدائية؟

التفت آدم، ثم وقف وقد علت وجهه ابتسامة حقيقية:

– أنجي! لم أركِ منذ... منذ آخر مرة أكلنا فيها مثلجات وانقلبتِ على الدراجة؟

– كانت تلك مؤامرة منك! – قالت وهي تضحك – لقد تركتني أسقط ثم ركضت لتأكل نصيبي.

تقدّمت بخطوات واثقة وجلست قربه دون أن تنتظر إذناً. نظر إليها جوزيف وجيروم بدهشة.

قال جوزيف بخفّة:

– مَن هذه النسخة الأنثوية المتطورة من آدم؟

ردّت أنجي بسرعة:

– صديقته القديمة... والوحيدة التي تحملت نكاته السخيفة منذ الحضانة.

ضحك جيروم وقال:

– إذن يجب أن نرفع لكِ القبعة... وربما نبني لكِ تمثالاً في الساحة.

ابتسم آدم بخجل خفيف وغمز لها:

– لا تصدقيهم... إنهم يغارون فقط.

– بل نخاف، – أضاف ستيف من الخلف – إن كانت تعرف كل أسرارك، فربما علينا أن نعيد تقييم صداقتنا بك.

أنجي ردّت بسخرية مرحة:

– أسراره؟ هو بالكاد يعرف كيف يُسرّح شعره صباحاً، فما بالك بالأسرار؟

ضحك الجميع، وغاص آدم في لحظة صمت قصيرة. شيء ما في حضور أنجي هدّأ شيئاً في داخله، كأنّ قطعةً مفقودة من ماضيه عادت لتأخذ مكانها، لتقول له: "أنا هنا، لا تقلق."

وفيما الجلبة لا تزال تملأ الصف، بدا المشهد وكأنه لوحة بدأت تتلوّن، شخصيات تُرسم، وحكايات على وشك أن تُكتب

ما إن استقرت الفوضى في الفصل قليلًا، حتى دخلت أمبر.

وكأن الصمت اختارها ليجثو أمامها.

بخطوات رشيقة، وظهر مستقيم يشعّ ثقة، تقدّمت وسط الممر، والضوء القادم من النوافذ انعكس على شعرها البني الطويل الذي بدا وكأنه شلال من العسل الداكن ينسدل على كتفيها بكسل ناعم. كانت ترتدي النظارات المعتادة، تلك التي تزيد عينيها عمقًا وغموضًا، وتحول ملامحها من جميلة إلى فاتنة.

كان فيها شيء... لا يُمكن تسميته، لا يُمكن فهمه. كأنها تحمل سرًا لم تُفصح عنه بعد.

آدم، الذي كان يضحك مع جيروم، صمت فجأة.

شعر كأن شيئًا في صدره يتقلّص، كأن الهواء صار أثقل.

بؤبؤاه اتسعا، ثم تراجع قليلاً في مقعده، يراقبها بصمت.

"هل يمكن أن يُصبح الضوء ملموسًا؟"

كان يتساءل داخله، وهو يراها تمر بقربه، ويشتم عبير عطرها الخفيف... مزيج من الفانيليا والدفء.

جوزيف، بطريقته المعتادة، همس في أذنه:

– انغمس في عطرها أكثر، وقد لا تخرج أبدًا.

فأجابه آدم بصوت مبحوح:

– إن كان الجحيم برائحتها، فأهلاً بالجحيم.

ضحك الثلاثي، غير مدركين أن اللحظة الآتية ستغيّر دفق الفصل بالكامل.

لم يكن في الفصل ما يوحي بأن شيئًا غير مألوف سيحدث. كان الضحك لا يزال يتردّد بين الصفوف، وحفيف الكراسي المتحركة وصوت الطباشير على السبورة يُنسج كخلفية يوم دراسي عادي.

حتى فُتح الباب.

دخلت ستيفاني.

فتاة بشعر أسود قصير يلتفّ حول وجهها كبخار مظلم. عيناها تحدّقان في الفراغ بثقة مصطنعة، وعلى شفتيها تلك الابتسامة الجوفاء التي لا تُضحك أحدًا سوى ذاتها.

زيّها المدرسي بدا وكأنه مُتَمرِّد عليه: قميص مفتوح عند العنق بطريقة مستفزة، وربطة العنق تتدلّى باستهتار، وكأنها تُعلن بصمت أنها فوق الجميع، وخارج نطاق القوانين.

همس جوزيف، وكأنه ينقل تقريرًا عاجلًا من ساحة معركة:

– دخلت الآفة.

أجابه جيروم:

– إنها كالكحة، كلما تجاهلتها، عادت أقوى.

آدم لم يتكلّم... فقط عضّ على قلمه بعصبية وهمس لنفسه:

– ما الذي يجعل الناس يعجبون بهذه الشخصية المصطنعة؟ مجرد تمثيل فجّ... وكأنها خرجت من فيديو سيء الإنتاج على الإنترنت.

كانت تُمشي جسدها في الممر بثقة، كأنها تعلم أن العيون تراقبها، لكنها لم تنتبه لنظرة واحدة كانت مختلفة... نظرة أنجي.

وهنا تغيّر كل شيء.

أنجي، تلك الفتاة ذات الشعر الأسود الطويل، والبشرة النقية، التي كانت تجلس بهدوء بجانب آدم، تبتسم ببراءة وتلوّح بأناملها كلما مرّت نسمة... تحوّلت.

ببطء... كأن شيئًا ما انكسر داخلها.

الابتسامة اختفت.

جفونها انسدلت قليلاً، وتشنّجت عضلات فكّها، وعينيها... عينيها لم تعودا أنجيتين.

كان فيهما سواد عميق، صلب، أشبه ببئرٍ لا قرار له.

نظرتها لم تكن تنم عن استياء... بل عن تهديد. عن شيء متربّص. شيء ظلّ نائمًا طيلة هذه السنوات... واستيقظ الآن.

آدم التفت نحوها بقلق.

– أنجي؟

لم تُجبه في البداية... فقط واصلت التحديق في ستيفاني، كأنها تراها لأول مرة، لا كزميلة دراسة، بل كعدوٍّ يجب سحقه.

ثم التفتت إليه فجأة.

الابتسامة عادت إلى وجهها... لكنها لم تكن نفس الابتسامة.

كانت تلك الابتسامة الباردة، التي يعرف المرء في أعماقه أنها مزيّفة، لكنها مُتقنة.

– لا تقلق، آدم. إنها فقط... كائن مزعج.

صوته ارتبك وهو يقول:

– هل كل شيء بخير؟

– طبعًا. فقط... تذكّرت شيئًا.

ضحكت بهدوء، ثم أضافت:

– هل قلت لك من قبل إنني أكره العلكة؟ خصوصًا عندما تمضغها شخصيات لا تعرف أين تضع ألسنتها.

ضحك جوزيف وجيروم بخفوت، لكن آدم لم يضحك.

لأول مرة منذ أن عرف أنجي، شعر بأنها شخص آخر... لا يشبه الطفلة التي عرفها ولا المراهقة التي شاركته الأحاديث.

بل شيء أعمق... وأخطر.

وكأن هنالك أبوابًا كثيرة في داخل أنجي... وآدم كان يملك المفتاح الأول فقط.

العالم الأول - الفصل التاسع: ملاك الرعب

ساد في الفصل هدوء نسبي، كأن الجميع قد قرر تقاسم هدنة هشّة، سرعان ما تبخّرت مع أول تعليق ألقته ستيفاني بصوتٍ لم تجهد نفسها في خفضه:

- يبدو أن آدم يخطط لحجز مقعده في "أكاديمية العشاق البائسين"، هذا التحديق المفرط في أمبر سيجعله أضحوكة الفصل في وقتٍ قياسي.

تخشب وجه آدم في مكانه، التفت ببطء، ناظرًا إليها بنظرة تجمع بين الصدمة والاحتقار، كمن يرى حشرة غريبة تتحدث لغة بشرية.

لكن قبل أن يتكلم، سبقه جيروم ضاحكًا:

- ههههه، لا ألومه! لو كانت أمبر في فصلي، لكنت وقعت في الحب ثلاث مرّات قبل الاستراحة.

ثم أضاف وهو يتصنّع الجدية، موجّهًا حديثه لستيفاني:

- وبيني وبينك، على الأقل هو ينظر إلى شيء جميل، مش زي بعض الناس اللي صوتهم يجيب الصداع ويقرف الزجاج!

ضحك الطلاب من حولهم، وبعضهم اختنق بكتم الضحك، بينما رفعت ستيفاني حاجبها الأيسر، في محاولة للتماسك:

- واو، كأنني سمعت كلبًا ينبح. آه، لا... إنه جيروم! دائمًا في الوقت المناسب ليصنع من نفسه مهرج الصف.

ردّ جيروم فورًا وهو يضع يده على صدره وكأنه جُرح عاطفيًا:

- أنا لا أُهان، بل أُقدّر... كل مهرّج يحتاج إلى جمهور، وأنتِ، ستيفاني، جمهوري المفضل: دائمًا منزعجة، دائمًا تصرخين... حب من أول عراك.

همس جوزيف في أذن آدم وهو يتنهّد:

- هذه تتحرش لفظيًا بجيروم، ولسنا مستعدين لجريمة عاطفية أول الأسبوع.

أما آدم، فكان يحاول تجاهل العراك، إلا أن ستيفاني، كأنها تسعى بوعي لجرّه إلى ساحة المعركة، التفتت نحوه مجددًا:

- آدم، لا تكن خجولًا. أعترف! أنت لا تدرس هنا، بل جئت تلاحق أمبر. فقط لا تكن مبتذلًا بضمادتك البائسة، ليست "ستايل"، بل تبدو كمجروح في معركة مع وسادة!

وقف آدم ببطء، وسحب كرسيه بعنف، صريره ارتطم بالهدوء كصفعة.

وجهه تلوّن، مزيج من الغضب والحرج، وكأن شيئًا فيه انكسر... أو استيقظ.

- أتعرفين يا ستيفاني؟

أحيانًا... أتمنى لو كنت غبيًا بما يكفي لأصدق أن رأيك مهم.

لكن مع الأسف، حتى الغباء له حدود.

- وااااو، أطلق الوحش! - صاح جيروم وهو يصفق بهمس - وأخيرًا خرج آدم من قوقعته!

تحرّك آدم نحو ستيفاني، جسده متشنج، يداه مشدودتان، وكل من يعرفه شعر أن لحظة الانفجار قريبة.

جوزيف تدخل بسرعة، وضع يده على ذراع آدم:

- لا تجعل من نفسك أضحوكة. تجاهلها، أرجوك.

لكن آدم لم يستجب، عينيه مركّزتين على ستيفاني، التي وقفت أيضًا متحدية، كما لو أنها تستلذ بإشعال النار.

وفجأة...

- آدم.

صوت ناعم، هادئ، لكن قوّته كانت كافية لتوقيف إعصار.

كانت أمبر، تقف خلفه، ووجهها مزيج من الرجاء والعتاب.

جمد آدم في مكانه، أنفاسه محمومة، ثم رفع يديه إلى الأعلى كمن يستسلم، وأخذ نفسًا عميقًا، طويلًا... وأدار ظهره دون كلمة.

ابتسمت ستيفاني ابتسامة خفيفة، كأنها انتصرت، ثم همست بصوت خافت وهي تنظر لأمبر:

- حبيب القلب المُخلّص.

لكن في الزاوية، كانت هناك عاصفة صامتة.

أنجي.

أنجي التي كانت دائمًا كزهرة صغيرة في حقل الذكريات، وجهها لطيف كأغنية طفولة، الآن... تبدّل كل شيء.

ملامحها كانت جامدة.

عينها اليسرى ترتجف قليلاً، أنفاسها قصيرة، سريعة... كأنما تكبح شبحًا من الخروج.

كان شعرها الأسود الطويل يتدلّى كستارة مظلمة تخفي خلفها صمتًا مرعبًا، ووجهها بدا وكأنه تحوّل إلى قناع من الرخام، بلا حياة، بلا ملامح.

لكن عينيها...

عينيها حملتا شيئًا آخر.

شيئًا لا يشبه الغضب... بل الحقد.

الغضب الصامت. الغليان الداخلي.

حركت أصابعها ببطء على الطاولة، تخطُّ دوائر غير مكتملة، وكأنها تراقب لاشتعال شيء ما في داخلها.

كان آدم، في كل مرة يلتفت إليها، يراها كطفلته الصغيرة، صديقة الطفولة... لكن الآن، لم يكن في وجهها شيء مما عرف.

كانت... أنجي جديدة.

بجانبها قلم نصف مكسور.

وأمامها، ستيفاني... التي لم تشعر بالخطر الحقيقي بعد.:

هدأ آدم نسبيًا، لكن الجو لم يهدأ.

ستيفاني، كأنها وجدت لذّتها في الفوضى، رفعت حاجبها بخفة وتسلّحت بابتسامة ساخرة، لتهمس وهي تمر قرب طاولة آدم، بصوت مسموع بما يكفي:

- حسناً... يبدو أن الأمير الحساس فقد أعصابه، هل هذه دموع أم عرق على جبينك، آدم؟

ضحكة صغيرة خرجت من أحد الزملاء، حاول كتمها، لكن الصوت انفجر مثل عود ثقاب في برميل بارود.

آدم لم يتحرك، أمبر نظرت بقلق، جوزيف شبك أصابعه بإحباط، وجيروم... جيروم همس بابتسامة خبيثة:

- أوه، أراهن أن الجولة الثانية ستكون دموية.

اقتربت ستيفاني أكثر، لكن فجأة...

توقّف كل شيء.

شيء غير مرئي خنق الجو.

نظرة... واحدة.

نظرة انطلقت من الزاوية الخلفية للفصل، شُعرت بها قبل أن تُرى.

نظارات أنجي، العدسات العاكسة قليلاً للضوء، عكست وهجًا غريبًا للحظة خاطفة، ولكنها كانت كافية.

ستيفاني التفتت غريزيًا باتجاهها، كأن شيئًا انتزع وجهها عنوة.

وما إن التقت أعينهما... حتى تجمّدت.

أنجي لم تقل كلمة.

لكن تعابيرها لم تكن بشرية تمامًا.

ملامحها، الجامدة في البداية، أخذت تتلوّى تحت قناع الهدوء، كأن شيئًا في أعماقها تمزّق للتو.

عيناها اتسعتا بشكل غير طبيعي، والجفنان لم يرمشا...

نظرة شديدة، ثابتة، باردة، لكن خلفها... شيء مفترس.

ستيفاني، في تلك اللحظة، شعرت بشيء غير مألوف.

كان الأمر كأن عظامها صارت خفيفة فجأة، معدتها تنكمش، يدها ترتعش خفيفًا من دون أن تدري، وعيناها تتفادى النظر مرّة أخرى، لكن عقلها رفض الانصراف.

كأنها تمشي في ممر ضيّق وهناك ذئب خلف الزاوية، يراها، ولا يهاجم... بعد.

لم تكن أنجي تصرخ، ولا حتى تتكلم.

لكنها تنظر فقط.

بعمق.

بغضب صامت، يغلي، يحترق، يتلوى تحت سطح السكون المصطنع.

وتلك النظارات... لم تكن مجرد عدسات، بل نوافذ لكائن آخر، شيء لا يعرفه آدم، ولا أحد في الفصل.

مجرد لحظة.

لحظة واحدة فقط... كانت كافية.

ستيفاني تراجعت خطوتين دون وعي، يدها مسحت خصلة من شعرها بعصبية، ثم جلست في مقعدها ببطء، محاوِلة الابتسام، لكن شفتاها لم تطاوعا.

صمت.

كأن أحدهم ضغط على زر التجميد.

حتى جيروم همس:

- ما الذي حدث لتوّه؟ هل... خُيّل لي أنها رأت الموت؟

آدم، وهو يلتفت لأنجي، لاحظ ارتجاف إصبعها على الطاولة، والدوائر التي ترسمها أصبحت أكثر عمقًا، أقرب إلى حفر.

همس جوزيف:

- أنجي... مختلفة اليوم.

آدم لم يرد، لكنه شعر بقشعريرة خفيفة تسري من أسفل ظهره حتى عنقه.

ذلك الوجه الهادئ... كان يخفي إعصارًا.

وكانت تلك النظرة... بداية العاصفة.

الهواء كان مشبعًا بضجيج الأحاديث المتقاطعة، ورائحة الحلوى الرخيصة، وصفارات الضحك القادمة من مختلف الزوايا. الساحة كانت مكتظة، كما لو أن المدرسة قد تقيأت كل ما في بطنها دفعة واحدة.

جلس آدم وجوزيف وجيروم تحت ظل شجرة عتيقة، يتبادلون أطراف الحديث، في حين كانت نظرات آدم تحاول عبثًا أن تتجاهل أمبر التي كانت تضحك بعيدًا مع زميلاتها.

لكن شيئًا آخر لفت انتباههم...

ثلاث فتيات يقترين من بعيد.

جاسمين، بخطواتها الواثقة، كانت ترتدي زيًّا عصريًا يشبه أنه قد خرج للتو من مجلة موضة أوروبية. شعرها البني المتموّج ينساب كخيوط الشوكولاتة، وعيناها الواسعتان تلتقطان كل التفاصيل بنباهة، حتى وهي تبتسم.

ميرا، تسير بجانبها، كتاب في يدها اليمنى، وعلكة في اليسرى. شعرها الأحمر الداكن مربوط بفوضوية مقصودة، وجفناها مغطّيان بلون داكن يوحي بأن النوم ليس من أولوياتها. كانت تُقرأ وتعلّق في نفس الوقت، عقلها في فصل الفيزياء، ولسانها في مشاكسة الدنيا.

أما لونا... فقد كانت تسير خلفهما بهدوء، عيناها الزرقاوان كالسماء في يوم ربيعي صافٍ، ووجهها المضيء ببراءة تكاد تُنبت زهورًا حيثما نظرت. شعرها الأشقر ينسدل على كتفيها برقة، وخجلها اللطيف يُشبه تغريدة عصفور في الصباح الباكر.

اقترن من الطاولة، جاسمين قالت بلطف:

- صباح الخير، أنتم الثلاثي الشهير الذين صاروا حديث الأقسام؟

رد جيروم فورًا بابتسامة:

- طبيعي جدًا، نحن النكهة الوحيدة القابلة للهضم في هذا المكان.

ضحكت جاسمين بخفة، بينما رمقت أمبر من بعيد وقالت بصوت خافت:

- وأعتقد أن هناك نكهة حلوة أخرى قد خطفت قلب أحدهم.

آدم سعل وهميًا، بينما ضحك جوزيف، وابتسم جيروم بحركة شبه مرحة.

ستيفاني همست لنفسها، فمها يتحرك بخوف غير مرئي:

- إنها تراقبني... ماذا تريد مني؟ لماذا لا تزيح عينيها عني؟ كأنها تنتظر اللحظة المناسبة لـ...

توقفت، فجأة، لأن أنجي مرت بجانبها بهدوء، دون أن تلتفت إليها. ومع ذلك، كانت عينا أنجي خلف نظاراتها تلمس وجه ستيفاني في لحظة صامتة، كفيلة بأن تجعل قلبها يهبط إلى ركبتيها.

لا أحد حولها كان يلاحظ الارتباك الذي يعتصر صدرها، ولا نظرات أنجي التي كانت تحمل شيئًا غير مرئي بالنسبة للجميع.

كان هناك شيء غريب، شيء ثقيل يثقله قلب ستيفاني كلما اقتربت أنجي منها، لكنها لم تستطع تفسيره.

نظرات أنجي، تلك التي لم تكن تظهر منها سوى البرودة، كانت تقطع أي محاولة لفهم ما يجري. هل كانت تلك نظرات تلاعب؟ أم كانت شيء آخر؟ لم تكن ستيفاني تعرف.

لكنها، في أعماقها، كانت تشعر بشيء ينمو بداخلها، شيء يضغط عليها ويجعلها تتساءل: هل هي فقط أوهام، أم أن أنجي حقًا ترى ما لا يمكن لأحد آخر رؤيته؟

في تلك اللحظة، تحركت يد ميرا باتجاه آدم، فمد يده مصافحًا إياها. لكن بمجرد أن تلامست يداهم، حدث ما لم يتوقعه أحد.

وميضٌ أسود، كأنه شعاع غامض اندلع فجأة بين راحتيهما.

كلاهما ارتجف.

آدم سحب يده بسرعة، ينظر إلى ميرا بعينين متسعتين.

ميرا تراجعت خطوة، تمسح يدها بسروالها وتقول بصوت غير مستقر:

- ما هذا...؟ صعقة؟! هل أنت كهربائي أم شبح؟

قال آدم وهو يتنفس ببطء:

- أنا... لا أدري... شعرت وكأن شيئًا مرّ من خلالي.

تبادلا نظرات طويلة. كانت نظرة غريبة، ليس فيها انجذاب، ولا عداء، بل... شيء أعمق. كأنهما يعرفان بعضهما، من قبل كل شيء.

لونا، التي كانت تراقب بهدوء، همست:

- الغريب... أني شعرت ببرودة مفاجئة عندما حدث هذا.

ثم التفتت بقلق نحو الطاولة البعيدة، حيث تجلس ستيفاني.

كانت هذه الأخيرة تبدو مثل ورقة يابسة تحت ريح الشتاء. نظراتها لا تبرح أنجي، يداها لا تكفّ عن الارتجاف، وكل بادرة ضحك أو نظرة من أنجي، تُترجم في جسد ستيفاني كصفعة غير مرئية.

همست ستيفاني لنفسها، فمها يردد الكلمات بخوف مكبوت:

- هل هي تعرف شيئًا؟ هل هي تراقبني بعيونها التي لا ترحم؟ ماذا تريد مني؟ لماذا لا أستطيع الهروب من نظراتها؟

لكن، رغم كل شيء، لم يلاحظ أحد. لم يشعر أحد بما كانت تشعر به. كانت أنجي قد أصبحت أكثر قدرة على إخفاء مشاعرها، تلك المشاعر التي قد تكون قاتلة لو تم كشفها.

العالم الأول - الفصل العاشر: صمت الحقيقة ووعود الظلال

كان الغروب قد بدأ يرسم ظلاله الطويلة على الطريق المبلّط، والأفق يكتسي بحمرة خفيفة كأن السماء قد احمرّت خجلًا من وداع يوم آخر. كانت الشمس تنسحب ببطء، وكأنها تمشي على أطراف أصابعها، بينما نسائم لطيفة تداعب وجوه التلاميذ العائدين من أول يوم دراسي، وقد تفرّقت ضحكاتهم بين صمت الشوارع وأغصان الأشجار المتمايلة بخفة.

كان آدم يسير في مقدمة المجموعة، يديه في جيبيه، وابتسامة هادئة على وجهه. رغم تعبه، شعر براحة غريبة تعتري صدره، كأن شيئًا بداخله بدأ يهدأ، حتى وإن لم يعرف له اسمًا. إلى جواره، كان جوزيف وجيروم يتبادلان النكات كعادتهما، يحاولان تقليد أحد الأساتذة، بصوتٍ مشوّه ونظارات مرفوعة فوق الأنف، وسط ضحك مكتوم من لونا وجاسمين.

أما أنجي، فكانت تسير بخطى هادئة، يدها في جيب سترتها، ووجهها هادئ كالمعتاد، لكن عيناها، لمن يعرف كيف يقرأ الصمت، تخفيان شيئًا آخر. شيئًا عميقًا لا يمكن الاقتراب منه بسهولة. حتى ستيفاني، التي كانت تمشي على مسافة صغيرة خلفهم، لم تجرؤ على الاقتراب منها، تشيح ببصرها كلما التقت نظرتها بنظرات أنجي التي تبدو الآن أكثر سكونًا... وأشدّ رعبًا.

ميرا، تلك الفتاة ذات الروح المزدوجة بين الجدّ واللعب، كانت تلتفت أحيانًا نحو آدم وكأنها مترددة في قول شيء. وأخيرًا، جمعت شجاعتها وسارت إلى جانبه.

قالت وهي تنظر إلى الغروب:

"آدم... هل قلت لي في الحصة أنك تهتم بالكتابة؟"

التفت إليها، نظراته قد خفّت فيها حدة السخرية المعتادة، وأجاب:

"أجل، أكتب أحيانًا... خاصة عندما لا أجد من أتحدث إليه."

ابتسمت بلطف وقالت:

"أنا... أعمل على رواية، لكنها ما تزال فوضى. لا أعرف إن كنت أملك موهبة حقيقية أو فقط أوهام مراهقة."

ضحك آدم بخفة وقال:

"من دون أوهام مراهقة، لن تُكتب أية رواية عظيمة. هل تريدين مساعدتي؟ أعرف من يستطيع توجيهك أفضل مني."

رفعت حاجبيها باهتمام:

"من؟"

"ألكسندر."

توقفت عن المشي للحظة، ناظرة إليه بذهول:

"ألكسندر... الكاتب؟ لا تخبرني أنك تعرفه؟"

هز كتفيه كمن يقول الحقيقة دون غرور:

"أعرفه جيدًا... أنا أعيش معه."

أطلقت ميرا شهقة خفيفة، ثم قالت:

"مستحيل! ألكسندر هو بمثابة أسطورة بالنسبة لي! لا أصدق..."

هنا، اقتربت أمبر التي كانت تستمع بصمت، وقد علت وجهها ابتسامة مندهشة:

"لم أكن أعلم أنك ابن ألكسندر بالتبني، هذا... هذا يفسّر بعض الأمور."

أجابها آدم بتواضع مصطنع:

"كأنك تقولين إن جنوني له جذور أدبية."

ضحكت أمبر، ثم التفتت إلى ميرا قائلة:

"صدقيني، ستكونين محظوظة إن قرأ ألكسندر صفحتين فقط مما كتبته. هو ناقد شرس، لكن صادق."

أطرقت ميرا رأسها قليلًا وقالت:

"شكرًا... لم أتوقع أن أسمع شيئًا كهذا اليوم."

في الخلف، كانت جاسمين تغني مقطعًا ساخرًا من أغنية قديمة، بينما لونا تضحك وهي تحاول إقناعها بأنها إن لم تتوقف، ستدعو عليها بأن ينفجر هاتفها في وجهها.

وفي تلك اللحظة العابرة، بينما كانت الشمس تغوص ببطء، والرفاق يسيرون جنبًا إلى جنب وسط حيّ هادئ، شعر آدم بأن كل شيء على وشك أن يتغيّر... لكنه لا يعرف بعد، إلى أين.

كانوا قد بلغوا الحديقة الصغيرة القابعة عند طرف الحي، تلك التي تتزين بأرجوحة صدئة لا تزال تصدر صريرًا خافتًا حين تمر الريح بها، وشجرة كبيرة تتدلى منها خيوط ضوء الشمس الأخيرة كأنها ستائر ذهبية أعدتها السماء لمشهد وداعٍ صامت.

جلس الجميع أو في شكل نصف دائرة، وقد بدا على الوجوه أثر تعبٍ جميل... تعب لا يضيق به القلب، بل يتوسّده بطمأنينة. الهواء صار أكثر برودة، يحمل رائحة الغبار الرطب والزهور الذابلة. صوت طائرٍ وحيد كان يغرد فوق غصنٍ عالٍ، وبدت لحظتهم تلك كأنها انسلّت من رواية لا تعرف الزمان ولا المكان.

انحنى جيروم إلى الأمام، رافعًا حاجبيه بمكر:

"تتذكرون كيف جوزيف تعثر و وقع فوق الكلب؟"

قهقه جوزيف وهو يرمي عليه نظرة ساخطة:

"على الأقل أنا لم أصرخ كفتاة! لا تنس، أنت من اختبأ خلف لونا."

ضحكت لونا بلطف، تمسّد خصلات شعرها الذهبية المصفوفة بعناية. قالت:

"كفاكما... أدم، ماذا عنك؟ أول يوم من الثانوية، هل نال رضاك؟"

آدم، الذي كان يراقب الغروب باسترخاء، عينيه معلقتان بالضوء البرتقالي المتسلل بين أغصان الشجرة، أجاب بصوت ناعم:

"كان أغرب مما توقعت... وكأن العالم قرر أن يتنفس ببطء اليوم."

أنجي، التي جلست على الحافة، ساقاها تتأرجحان بصمت، قالت دون أن تنظر لأحد:

"الغروب يشبه النهاية، لكنه يهمس بأن الغد آتٍ... إنصتوا جيدًا، أحيانًا تكون أصوات الغروب أصدق من كلام البشر."

ساد صمت لحظي، كأن كلماتها انسكبت في أرواحهم لا في آذانهم. ميرا كانت تحدق في يديها، ربما تتذكر تلك اللمعة السوداء التي ربطت بينها وبين آدم، بينما كانت جاسمين ترسم شيئًا على التراب بعصا صغيرة، لا أحد يعرف ماذا... ربما حلمًا، أو ذكرى.

ثم، كمن يكره الوداع، نهضت لونا أولًا، وقالت وهي تنفض تنورتها:

"يبدو أنني سأصبح فطيرة إن بقيت في الهواء البارد... أراكم غدًا."

جاءت بعدها جاسمين، تمايلت كعادتها بخفة وهي تودعهم بحركة يد:

"ابقوا أحياء، أيها الأدباء والمجانين."

ميرا حملت حقيبتها بصمت، همست لآدم قبل أن ترحل:

"شكرًا مجددًا... لست أدري إن كنت أصدق أن الحياة قررت أن تعطيني فرصة."

أما أنجي، فقد نظرت طويلًا إلى آخر خيوط الشمس، ثم غمزت لأدم بلا سبب، وغادرت بلا وداع، تاركة خلفها أثرًا غريبًا في الهواء، كرائحة غابة بعد المطر.

جيروم وجوزيف تبادلا نظرة طويلة مع آدم، وكأن بين الأصدقاء لغة لا تحتاج إلى شرح، ثم تفرّقا في اتجاهين مختلفين، يغني جيروم أغنية لا تُفهم كلماتها، بينما يواصل جوزيف الركل بحذائه لحصى الشارع.

بقي آدم للحظة أخيرة وحده، يقف أمام الغروب، يشعر كأن كل ما مرّ به اليوم لم يكن سوى بداية لشيء أكبر... أكبر من مجرد مدرسة، أو مشادة كلامية، أو حتى حب خجول. هناك شيء يقترب، وهو لا يعرف إن كان عليه أن يخشاه... أو ينتظره.

أدار ظهره للشمس، وسار بهدوء نحو بيته، بينما كانت السماء تبتلع الضوء الأخير، كأنها تنثره في مكان آخر من العالم، ليبدأ يوم جديد... لشخص آخر.

فتح آدم الباب بهدوء، ودخل منزله وهو يسحب خطواته كمن يعود من معركة عاطفية غير معلنة. خيوط الغروب التي تلاشت في الخارج تركت وراءها مسحة من الحنين على الجدران، والهدوء الذي خيم على المكان كان غريبًا... مريبًا بعض الشيء.

ألقى بحقيبته بجانب الأريكة بعشوائية وهو يردد لنفسه:

"يوم واحد فقط... يوم واحد، وكأنني عبرت ثلاث فصول دراسية."

لكن قبل أن يتمكن من التمدد على الكنبة، سمع ضحكة ناعمة قادمة من غرفة الجلوس، ضحكة لم تكن تشبه ضحكات المسلسلات ولا مكالمات التسوق... كانت ضحكة امرأة.

تجمد في مكانه، رفع حاجبيه وهو يهمس:

"يا ساتر... ألكسندر أخيرًا قرر أن يتفاعل مع البشرية؟"

اقترب بخطوات حذرة، كأن المشهد أمامه سينقله إلى عالم موازٍ. وعندما ظهر عند مدخل الغرفة، وجد ألكسندر جالسًا بأناقة على المقعد الجلدي المعتاد، يتحدث مع سيدة... لا، ليست سيدة، بل لوحة من لوحات عصر النهضة نزلت من إطارها وقررت التنزه في عالمه البسيط.

كانت تجلس بثقة، ترتدي فستانًا داكن الزرقة يلتف حول جسدها كما تلتف المياه حول حجر كريم. شعرها الكستنائي الطويل انسدل على كتفيها بنعومة تشبه خيوط الحرير، وعيناها، بلون العسل المعتم، كان فيهما دفء لا يهدأ... وسرّ لا يُكشف.

رفع آدم حاجبًا، متصنعًا الجدية وقال:

"مرحبًا، هل أنا في البيت الصحيح؟ أم أنني دخلت متحفًا بطريق الخطأ؟"

ضحك ألكسندر بخفة وقال:

"توقف عن التمثيل، هذه السيدة الجميلة هي ضيفتي، وأنت تأخرت عن التحية."

رفعت المرأة بصرها إليه، وابتسمت ابتسامة فيها مزيج من الدفء والذكاء وقالت:

"لا داعي للمجاملات، لكنني أقدر ذوقك... لا بد أنك آدم، أليس كذلك؟"

تقدم بخطوة وأجاب بمكر:

"نعم، للأسف ما زلت أنا. توقعت أن أجد ألكسندر يشاهد أفلام الرعب ويأكل الفشار، لا يستقبل ملكات."

قهقهت المرأة وقالت بنبرة مرحة:

"ذكي اللسان... يشبهك قليلًا، ألكسندر."

رد ألكسندر وهو يرفع كوب القهوة إلى شفتيه:

"بل هو أسوأ... يخلط بين الوقاحة والسحر، ولا يعرف متى يتوقف."

جلس آدم بتأنٍ على حافة الكرسي وقال وهو يحدق في السيدة:

"أنا آسف، لم أسمع اسمك بعد... أو كنت مشغولًا بإعطاء عيني فرصة استيعاب ما تراه."

أجابت بابتسامة واثقة:

"اسمي كلارا، صديقة قديمة لألكسندر... وصارمة في كشف المجاملات."

ابتسم آدم، شعر بشيء غير مألوف في وجودها. شيء بين الجاذبية والرهبة... لا يعرف إن كانت امرأة عابرة أم فصلًا جديدًا على وشك أن يُكتب.

ألقى ألكسندر نظرة تحذيرية على آدم وقال:

"لا تبدأ، يا عبقري، فكلارا لديها قدرة على قراءة العقول."

ضحك آدم وقال:

"رائع... إذا بدأت تتحدثين معي بلغة أحلامي، سأهرب من النافذة."

ابتسمت كلارا، نظرت إليه مطولًا ثم قالت بنعومة:

"أنت أكثر مما تبدو عليه، آدم... أتمنى ألا تكتشف ذلك متأخرًا."

ساد صمت خفيف، لكنه لم يكن محرجًا. كان أشبه بلحظة عبور طيف بين ثلاثة أشخاص لم يخططوا لهذا اللقاء، لكنهم يدركون في أعماقهم... أن شيئًا قد بدأ يتغير.

تبدّلت ملامح ألكسندر في اللحظة التي نطقت فيها كلارا كلماتها الأخيرة. ذاك التوتر الخفيف في زاوية عينيه، تلك الرجفة الطفيفة في أصابعه وهو يضع كوب القهوة على الطاولة، لم تكن لتخفى عن عين خبيرة مثلها.

أما آدم، فقد وقف متثاقلاً، وتثاءب بتصنّع كأنه يريد أن يتفادى أي نقاش مفاجئ، وقال بنبرة شبه مرحة:

"سأذهب لأستريح قليلاً... لا أعرف لمَ أشعر بأن رأسي أثقل من حقيبة تلميذ أدبي في أول يوم دراسي."

لوّح بيده وغاب داخل ممر المنزل، يجهل أن خلف تلك الجدران تُدار معركة صامتة، أخطر من أي صراع شهده من قبل.

ظلّ الصمت مشتعلاً بين كلارا وألكسندر للحظة، قبل أن تكسره هي بنبرة ناعمة ولكن مشبعة بالسكون القاتل:

"هل أخبرته، ألكسندر؟"

لم يرد في البداية. اكتفى بالنظر نحو الباب الذي اختفى خلفه آدم، ثم تنهد بصوت خافت، يشبه تنهيدة رجل اختار أن يحمل الجبل بدل أن يسقطه على من يحب. قال أخيراً:

"لا... ولن أفعل."

رمشت كلارا ببطء، نظرتها لم تتغير، فقط أصبحت أكثر حدة، كأنها تقرأ ندماً يتشكل خلف كلماته، وقالت:

"الوقت يقترب... وهو يشعر بذلك، حتى لو لم يفهم. الأحلام، النظرات، الصُدف... كلها تنبئ بأن شيئًا يستيقظ، وأنت تعلم أن لا شيء سيبقى نائمًا إلى الأبد."

ضرب ألكسندر بأطراف أصابعه على الطاولة، كأن الإيقاع يخفف من وقع كلماتها، ثم أجاب بهدوء ظاهر يخفي خلفه قلقًا مضنيًا:

"كل ما يعرفه الآن... هو أنه مراهق بدأ دراسته، يكتب الروايات، يقع في الحب، يضحك مع أصدقائه. وسأفعل المستحيل لأبقيه هكذا."

أخفض صوته قليلًا، وعيناه تلمعان بذلك الحزن النادر في الرجال الذين رأوا ما لا يُحتمل:

"لن أمرّر عليه نفس الكابوس الذي مررتُ به. لن أسمح أن يكون هو... الشيء الذي يخشونه."

حدّقت كلارا فيه طويلاً، كأنها تحاول الوصول إلى شق صغير في جدار عناده، ثم قالت بنبرة فيها عتاب قديم:

"إخفاء الحقيقة لا يغيّرها، ألكسندر. بل يجعلها تنفجر بقسوة أكبر حين تظهر..."

نهض من مكانه، عبَر الغرفة بخطوات بطيئة، ثم استدار نحوها وهو يرفع يده قليلاً، كمن يرسم حدًا وهميًا لا يجب تجاوزه:

"إذا اقتربتِ منه، كلارا... إذا حاولتِ أن تزرعي في قلبه الشك، أو تخبريه بما لا يجب... فحينها فقط، سأكون خصمك."

تأملت ملامحه للحظة، ثم نهضت بدورها، لملمت وشاحها الحريري على كتفيها وقالت بهدوء:

"لا أحتاج أن أقترب... الحقيقة تقترب وحدها، ألكسندر."

ثم مشت نحو الباب، تاركة خلفها هواءً خفيفًا مشبعًا بعطر غريب... كأن الزمن نفسه كان يعبر معها.

وأما في الطابق العلوي، كان آدم قد استلقى على سريره، يحدق في السقف بعينين نصف مغلقتين، وهو يهمس:

"تلك المرأة... هل قالت شيئًا؟"

لكنه لم يُكمل التفكير، إذ غلبه النعاس، ليبدأ فصلًا آخر... من حلمٍ جديد.

العالم الأول - الفصل الحادي عشر: بداية ذكريات الصف

انزلاقاً صامتاً في هوة بلا قرار... كأن شيئاً ما في باطنه قرّر أن يفتح باباً آخر نحو المجهول.

وجد نفسه واقفاً هذه المرة عند باب ضخم منقوش بنقوش ذهبية تنبض بنورٍ خافت، تتسلّل من تحته أصداء أصواتٍ لا تشبه ما سمعه من قبل. دفع الباب ببطء، ففتح نفسه له كما لو كان ينتظره. ودون أن يشعر، كان قد دخل جناحًا فخمًا داخل قصر مهيب، جدرانه مغطاة بسجاد حريري، وأعمدته البيضاء تتلألأ بانعكاسات ضوء قمرٍ لا يُرى.

في منتصف القاعة، كان يقف رجل وامرأة، الملك والملكة بلا شك، بثياب ملكية لا تثير الفخر بقدر ما توحي بالحزن والرهبة. ملامحهما شاحبة، عيونهما زجاجية يغمرها قلق لا يمكن إخفاؤه، ورائحة الورد الذابل تعبق في المكان.

قال الملك، وصوته خافت كأنّه يحمل ثقل قرون:

."لا خيار أمامنا... إنّها الطريقة الوحيدة لإنقاذه..."

أجابته الملكة، وعيناها دامعتان:

- "ولكنها ليست إنسانية... إنه ابننا، لحمنا ودمنا... كيف نفعل هذا به؟"

اقتربت من مهد صغير في الزاوية، حيث يرقد طفل رضيع ينام بهدوء لا يليق بالألم الذي يُهيأ له. لم يكن الطفل يتحرّك، فقط تنفّسٌ ناعمٌ كأنّه يقاوم ثِقَل قَدَرٍ كُتب قبل أن يولد.

تابعت الملكة، تهمس بالكاد:

- "لو عاد الخطر... إن لم نفعل هذا الآن، سنخسره للأبد."

وقبل أن يردّ الملك، دوّى في الأرجاء صوت غريب، لا يشبه صوت إنسان، ولا حتى وحش. كان عميقًا، مُشوّهًا، كأنّه آتٍ من باطن الأرض:

- "الوقت... يمر..."

اهتزت الجدران، وخفّت الأضواء، وبدأت الظلال تتمدد كالضباب. تجمّد الزمن في عين آدم، الذي كان يشاهد المشهد من بعيد، عاجزًا عن الحركة، عاجزًا حتى عن التنفّس. تسارع نبضه، وارتعد قلبه كما لو كان يشاركه ذلك المصير دون أن يدري.

ثم، فجأة، كل شيء اختفى. الظلال ابتلعته، الضوء تلاشى، الصوت تلاشى... ولم يبقَ سوى فراغ وصمت ونبضٌ واحدٌ خافت: نبضه.

فتح عينيه وهو يلهث، وقطرات العرق تغمر جبينه. كان في سريره، في غرفته، ولكن جسده لم يكن كما تركه. شعر بثقلٍ غريب في أطرافه، ودوارٍ يشبه الدوار بعد غوصٍ طويل في بحرٍ لا قاع له.

جلس على سريره، وضع كفّيه على وجهه، ثم تمعّن في الغرفة من حوله. كل شيء عادي... لكن داخله؟ داخله كان كأنّه لا يزال هناك. كأنّ جسده عاد من الحلم، ولكن روحه لم تلحق به بعد.

همس لنفسه:

- "ما هذا بحق الجحيم...؟ لماذا أشعر كأنّي... خسرت شيئًا وأنا نائم؟"

نظر من النافذة، الغيوم الرمادية تسير ببطء فوق المدينة. رغم أنه كان الفجر، إلا أن الشمس بدت كأنها تتردّد في الصعود، وكأنها بدورها لا تريد أن تضيء الحقيقة.

كان الصباح قد استوى على عتبة المنزل، تندفع أشعته الذهبية عبر زجاج النوافذ، فتغمر المطبخ بنور ناعم يُشبه لمسة يدٍ دافئة على كتفٍ بارد. رائحة القهوة القوية

تملأ الجو، تمتزج برائحة الزبدة المذابة على التوست المحمّص، وكأن العالم قرر، لوهلة، أن يمنح ساكنيه لحظة سلام.

جلس ألكسندر إلى الطاولة، يقرأ صحيفة ورقية قديمة الطراز، يقلب صفحاتها ببطء وكأنه يبحث عن شيء لن يجده. أمامه فنجان قهوته الداكنة، طبق من البيض المخفوق والجبن، وكل شيء مرتب بدقة تُشبه شخصية ألكسندر ذاته.

دخل آدم إلى المطبخ بهدوء، وجهه لا يزال يحمل آثار النوم المضطرب، وعيناه نصف مفتوحتين كأنهما تتفاوضان على الاستيقاظ الكامل. كان شعره في حالة من الفوضى الخلاقة، وقميصه الرياضي يتدلّى بتكاسل على كتفيه.

نظر إليه ألكسندر من فوق الصحيفة، وقال بنبرة جافة:

- "تبدو وكأنك عبرت كابوسًا راكضًا، حافي القدمين."

تمطّى آدم ثم جلس، يلتقط كوب العصير وهو يهمهم:

- "ربما... لا أذكر التفاصيل، لكن الاستيقاظ لم يكن مريحًا."

رد ألكسندر دون أن يرفع نظره:

- "يُقال إن الكوابيس تُخبرنا بما لا يجرؤ الواقع على قوله."

- "وهل تقول لي إذًا أنني جبان حتى في أحلامي؟"

ابتسم ألكسندر دون تعليق، بينما بدأ آدم يتناول فطوره بشراهة معتدلة.

لبثا في صمت لدقائق، قبل أن يرفع آدم عينيه فجأة، بنظرة تحمل مزيجًا من المكر والبراءة، وقال:

- "بالمناسبة، كنت أفكر... هل تحب أن أُخبر معلمتي الجديدة أنك رجل طيّب، يحب الفلسفة، ويصنع بيضًا لا يُقاوم؟"

رفع ألكسندر حاجبًا:

- "ما الذي تخطط له؟"

- "لا شيء. فقط رأيت أنها قد تكون مناسبة لك أكثر من وحدتك المزمنة."

- "آدم... إن لم تصمت، سأُخضعك لدورة في التاريخ السياسي للأمبراطورية البيزنطية. خمس ساعات."

ضحك آدم وهو يقضم قطعة خبز مغموسة بالعسل:

- "تبدو مستعدًا أكثر من اللازم لهذا التهديد."

ابتسم ألكسندر ابتسامة جانبية، لكنه لم يُخفِ ارتياحه لتلك اللحظة العائلية، التي، وإن شابها طابع من المزاح والشدّ، حملت في جوفها شيئًا يشبه الطمأنينة.

ومع انتهاء الفطور، نهض آدم وهو يقول:

- "يومٌ طويل ينتظرني... أتمنى ألا أُحطم قلبي أو حنجرتي."

- "ولا أن تتورط في شجار أدبي مع فتاة أخرى."

- "لا تقلق. اليوم سأكون شاعرًا لا محاربًا."

ابتعد آدم بخطاه الواثقة نحو الباب، تاركًا خلفه طنين القهوة، وصفحات الجرائد، ورجلاً يتأمّل صبيًّا يحاول أن يركّب نفسه قطعةً قطعة

غادر آدم المنزل بخطى هادئة، لا إلى بطء المتكاسل، بل إلى ثقل الأفكار العالقة في صدره. كان الهواء في الخارج مُحمّلاً برائحة خفيفة من التراب المُبلل رغم غياب المطر، وكأن الأرض نفسها قد تنهدت ليلًا وتنفست وجعها في نسيم الصباح.

كانت الشمس تتسلل بين أسطح المنازل، ترسم خطوطًا ذهبية مائلة على الأرصفة، وتبعثر نورها على زجاج النوافذ كأنها تحاول إيقاظ المدينة بلطف. ضوء خافت يلامس وجهه، فتُضيء عينيه الغارقتين في الشرود، وتكشف عن تعب خفي لم يمحُه النوم، وكأن شيئًا ما — من حلم أو ذكرى — لازال عالقًا في أطراف روحه، لا يفصح عن نفسه ولا يرحل.

مرّ أمام الحيّ القديم، حيث الأشجار المتفرقة تلوّح بأغصانها للريح العابرة، وأصوات الأقدام تختلط بأصوات الدراجات المتعجلة، ومواء قطة عابرة يُكمل سمفونية المدينة التي تصحو على استحياء. كانت الحياة تمضي، لكنها بدت له — في هذا الصباح تحديدًا — وكأنها تمشي على رؤوس أصابعها.

في طريقه، لمح طفلاً يركض خلف حقيبته التي أطاح بها الهواء، وعجوزًا تسقي نبتة وحيدة أمام شرفة منزلها. ابتسم آدم لنفسه ابتسامة باهتة، لم تكن فرحًا، بل نوعًا من التصالح مع غرابة العالم.

كل شيء كان عاديًا، إلا شعوره. في داخله، هناك ارتجاف خفيّ، كأن قلبه يتحسس اقتراب شيء لا يُفهم، ولا يُسمّى. إنه نوع من التوتر لا يملك له سببًا، لكنه يعرفه جيدًا ذلك الشعور الذي يتلو الأحلام الغامضة، حين يظل الجسد في يقظة متوجسة، والعقل يرفض أن ينسى.

وصل إلى بوابة المدرسة، تلك البناية ذات الجدران الرمادية والبوابة الحديدية التي لطالما بدت له كفم مفتوح يبتلع الأحلام الصغيرة. دخل بخطى أبطأ، عيناه تتفحصان الزوايا، وكأن شيئًا ما ناقص. لا ضحكة جوزيف الصاخبة، ولا تعليقات جيروم اللاذعة.

توقف لحظة عند الساحة، ألقى نظرة على الوجوه المتناثرة، زملاء يركضون، آخرون يتبادلون القصص والملل، لكنه شعر بشيء من الوحدة، وكأن صدى خطواته هو الشيء الوحيد الذي يرافقه.

صعد الدرجات المؤدية إلى الفصل، وهو يتمتم بسؤالٍ داخلي:

- "أين أنتما؟"

لكن عقله كان يعرف مهما حاول الإنكار أن غيابهم في هذا الصباح بالذات لا يُطمئنه.

فتح باب الفصل بهدوء، دخل كمن يدخل إلى مسرح دون جمهور. لا جوزيف، لا جيروم. فقط عدد من الزملاء، متوزعين في أماكنهم، أصوات خافتة تهمس، ضحكات مكتومة، وشيء من السكون الغريب يُخيّم على المكان.

جلس في مقعده، أسند ذراعيه على الطاولة، ورفع عينيه إلى النافذة. الشمس بدأت تشتدّ، لكنه لم يشعر بحرارتها. في صدره، كان هناك فراغ صغير، بارد، ينتظر أن يُملأ.

ولم يكن يعلم... أن هذا اليوم لن يكون كسائر الأيام.

ساد الفصل جوّ ثقيل، كأنما الزمن قرّر أن يتوقف احترامًا لحصة الأستاذ حكيم— رجل خمسيني، نحيل، بنظراته من يظنّ نفسه فيلسوفًا يونانيًا منفيًا إلى مؤسسة تربوية. صوته رتيب، يجرّ الكلمات كمن يحرّك عربة صدئة، وشرحه المتمدد في أرجاء السبورة لم يكن له نهاية واضحة، كأنه خطبة ضائعة في كهف الزمن.

كان الهواء خانقًا، والهدوء ثقيلًا إلا من صوت الطباشير يصارع الصمود على سطح السبورة. أمبر كانت تجلس قرب النافذة، تراقب السماء الملبدة بشغف خافت، تهمس لصديقتها بجملة بين حين وآخر، فترتسم على شفتيها ابتسامة ناعمة، كأنها وردة تتفتّح بهدوء في خضم رتابة الصباح.

أما آدم، فكان يجلس إلى جانب جوزيف، رأسه مائل قليلًا، ينظر للأمام كمن يصغي، لكن في داخله كانت مئات المعارك تدور. حاول التركيز، لكنه وجد نفسه يرسم أحرف اسم أمبر على دفتره بحروف مبالغ في تزيينها. بجواره، كان جوزيف يتبادل مع ستيف نظرات ملؤها الصبر، فيما ستيفن يدندن أغنية راي خفيفة تحت أنفاسه، يكتمها بطرف سترته كي لا يُفتضح أمره.

كريس، الجالس خلفهم، كان يبدو وكأنما يقاوم النوم في معركة غير متكافئة. يسند رأسه على يده، وعيناه نصف مغمضتين، لا تفتحهما إلا لمتابعة نتائج فريقه المفضل في خياله.

وفجأة... انفتح الباب.

دخل جيروم، متأخرًا بنصف ساعة كاملة، مرتديًا نظاراته الشمسية في الداخل، وكأن الفصل حلبة عرض أزياء. وقف في الباب، رفع يده كمن يُحيّي جمهورًا وهميًا، وقال بصوت عالٍ:

."صباح الفوضى، أصدقائي!"

توقّف الأستاذ عن الكتابة، التفت ببطء كمن لا يصدّق ما يسمع، بينما ساد الفصل صمتٌ مدهوش للحظة... قبل أن ينفجر الجميع ضحكًا.

آدم صفق يديه بتهكم:

."وأخيرًا وصل ضيف الشرف! ما رأيك أن نبدأ الحصة من جديد؟"

جوزيف، وهو يربّت على كتف جيروم بعد أن جلس:

."أخبرني، هل كان الطريق مزروعًا بالألغام أم أن نومك كان أعمق من الحصة نفسها؟"

جيروم، وهو يخلع نظاراته ببطء:

."أنا فقط أبحث عن الإلهام، واللحاف هو معلمي."

ضحكت أمبر، حتى الأستاذ ابتسم رغمًا عنه، ثم قال بصوت متعب:

."بما أنك وصلت أخيرًا، يمكنك تلخيص ما شرحته للزملاء."

ردّ جيروم وهو يستقيم في جلسته بجدية مصطنعة:

."بكل سرور... الدرس كان عن الحياة، والحياة مملة."

انفجر ستيفن ضاحكًا، وكاد أن يسقط من كرسيه، بينما ستيف قال وهو يصفق:

."هذا أسلوبي المفضل في التعليم، مختصر ومفيد!"

ضحك الجميع، إلا الأستاذ الذي رفع دفتر الملاحظات، وقال بصرامة لطيفة:

."سأجعلكم تكتبون مئة سطر عن احترام الوقت."

علق كريس ساخرًا:

."مئة سطر؟ هذه أطول من عمر المباراة النهائية!"

ضحك آخر خافت خرج من أنجي، التي كانت تراقب كل شيء بصمت، لكنها كتمت ابتسامتها بين صفحات دفترها، وكأنها تكتب مسرحية سرية لأبطالها الواقعيين.

وفي قلب هذا الجو، بدأ اليوم المدرسي يتلوّن بالحياة، رغم كل الرتابة، رغم صوت الطباشير، ورغم تأخر جيروم المزمن... كانت الحياة تدبّ في هذه الزاوية الصغيرة من العالم.

انطلقت صفّارة الاستراحة كتحريرٍ مشتهى من سجن الوقت. هرع الطلاب خارج الفصل كأسراب طيورٍ أُطلق سراحها من أقفاص صمتها. ضجّت الأروقة بأصوات الخطى، والضحكات، وصرير الأبواب، وكأن المدرسة قد تنفست الحياة فجأة.

خرج آدم من الفصل وهو يتمطى بكسل المنتصر، يربّت على معدته قائلاً:

-"أقسم أن هذه الحصة كانت اختبارًا للصبر الروحي..."

جوزيف يسير بجانبه، يرد وهو يتفقد هاتفه:

-"أنا أظن أني فقدت قدرتي على الإحساس بالزمن... هل مضى قرن ونحن هناك؟"

أمام باحة المدرسة، بدت الشمس تميل بلطف نحو كبد السماء، والنسيم يرقص بين الأشجار، يحمل معه عبق الخريف الأول. وعلى أحد المقاعد، جلست جاسمين، ترتب خصلات شعرها المصبوغة بلون نحاسي برّاق، عاكسةً نمطها العصري المرح، تتحدث مع لونا، تلك الفتاة الهادئة ذات العيون الواسعة كسماءٍ صافية، التي تبتسم لكلّ شيء، كأن العالم لم يعرف يومًا وجهًا آخر غير الطيبة.

وفي الجهة الأخرى، كانت ميرا تقلب صفحات دفتر ملاحظاتها بخفة، تصطنع التركيز رغم وضوح شرودها، كمن يخوض حوارًا داخليًا لا يُسمع.

في حين كان ستيف يقفز من مكان إلى آخر، يتحدث عن مغامراته الوهمية، يصف قتالًا بينه وبين دب قطبيّ في سويسرا، فيرد عليه كريس بابتسامة ساخرة:

-"عظيم... متى تنوي تصوير الفيلم؟"

أما ستيفن فقد كان مشغولًا بضبط سماعاته، يهمهم بأغنية راي، يهز رأسه مع الإيقاع. ضحك جوزيف وقال:

- "ستيفن، أرجوك، لا ترقص... نحن نحبّك ونخاف عليك."

صوت مألوف اخترق الأجواء فجأة... جيروم، قادم من بعيد، بحقيبته المتدلّية على كتفه وكيس رقائق في يده، وكأنه لم يتأخر نصف ساعة.

- "صباح الاستراحة، يا من لا يملكون ذوقًا في اختيار مقاعد الصف!"

نظر إليه الجميع بدهشة، فصرخ آدم:

- "كيف تجرؤ على الدخول كأن شيئًا لم يكن؟!"

رد جيروم بلا مبالاة:

- "ببساطة... لأنني نجم. والنجوم لا تُقيد بالمواعيد."

ضحك الجميع، بينما أطلق جوزيف تنهيدة متصنعة:

- "آه، إنه اللامنطق ذاته... تجسّد على هيئة بشر."

لكن في الركن القصي، كانت ستيفاني تجلس بلا حراك، تتظاهر بالانشغال بهاتفها، وكل ذرة في جسدها توحي بعكس ذلك. التوتر يسري في أطرافها، والعرق يتسلل من جبينها، عيناها تتجنبان النظر قُدمًا، فقط لأن أنجي هناك... تقف، تتحدث بهدوء مع

لونا وجاسمين، ابتسامة صغيرة على شفتيها، هدوء لا يُفهم... إلا من رآه من قبل، على وجه قاتل يعرف كيف يُخفي نواياه خلف ستار من النعومة.

نظرة واحدة فقط... خاطفة، من أنجي نحوها، كافية لجعل ستيفاني ترتجف.

لم تكن تلك النظرة عادية. كانت كأن سكينًا من الجليد مرّت على عنقها، باردة، دقيقة، محسوبة.

أمسكت ستيفاني صدرها، تخال نبضها يتسارع، فكّها يرتجف خلسة، وأفكارها تهرب في كل اتجاه:

.(ماذا تريد مني؟ هل عرفت؟ هل تخطط لشيء؟ لمَ لا ينظر أحد؟ لمَ لا يشعرون بشيء؟)

لكن الحقيقة كانت أن لا أحد يلحظ شيئًا. أنجي... تُتقن التمثيل. تُتقن الكتمان. وتُتقن القتل بصمت، دون أن تمس أحدًا.

بين الضحك والهمس والمزاح، كانت الحرب النفسية تمضي في الخفاء، في صمتٍ لا يسمعه أحد... سوى من علق فيه.

كانت أشعة الغروب تلامس المباني بهدوء، تلون الحواف بلونٍ برتقالي يميل إلى الذهب، بينما انعكست خطوط الظل على الأرصفة وكأنها رسومات منسية على

صفحة مدينةٍ حزينة. نسائم عليلة تسللت بين الأشجار، تعبث بأطراف شعر أنجي الطويل المتماوج، وبخصلات لونا الناعمة التي بدت كأنها تهمس للحياة.

أما آدم فكان يسير في المنتصف، يرمق الغيم المتناثر كأنّه يبحث عن شيء ما فوق تلك الطبقات السماوية.

تجمّع الأصدقاء ببطءٍ، وكأنهم عناصر لوحة تكتمل كلما اقترب أحدهم. جيروم كان يسير بمرح، يروي موقفًا مضحكًا عن معلم الرياضيات، بينما كان جوزيف يهز رأسه، نصف ضاحك، نصف مستاء، يكرر:

- "أقسم أنني لن آتي غدًا إن أعاد تلك التمارين!"

جاسمين، بذوقها العصري، كانت تتحدث بحماسٍ عن فكرة مشروعها، وميرا تمشي بخطى واثقة، وعينيها في سكون خجول. أما لونا، فقد كانت تستمع بصمت، وتبتسم كلما انفجرت ضحكة في الجو.

حين انخفضت خطوات ميرا بجانب آدم، مدت إليه دفترًا صغيرًا بحذر، وكأنها تسلّمه قطعة من روحها.

- "هذا ما كتبتُه إلى الآن..." قالت بهمس.

توقف آدم للحظة، أخذ الدفتر بين يديه بلطف، ونظر إليها نظرة امتنان حقيقي.

- "شكرًا يا ميرا... على ثقتك."

اكتفت بابتسامة صغيرة، ثم أسرعت الخطى قليلاً، وكأنها تهرب من خجلها.

أمبر التي كانت خلفهما ببضع خطوات، رمقته بنظرة لطيفة دون أن تنبس بكلمة، ويكاد أن يُقسم أنه لمح امتنانًا دافئًا في عينيها، لم يقل شيئًا، فقط ابتسم في صمت.

جيروم، الذي لم يكن قادرًا على الصمت طويلًا، صرخ مازحًا:

."إلى متى هذا الجو العاطفي؟ أقسم أنني بدأت أبحث عن منديل!"

ضحك الجميع، حتى أنجي التي كانت تراقب بصمت، سمحت لابتسامة خفيفة أن تتسلل إلى وجهها، لكن نظراتها بقيت متيقظة، كأنها تزن كل حركة بعينيها الباردتين.

كان الغروب يوشك أن يغرق تحت الأفق حين تفرّق الأصدقاء بهدوء، كلٌ إلى دربه، على وعد أن يلتقوا غدًا. أما آدم، فقد بقي واقفًا لحظةً أطول، يراقب السماء، والدَفتر لا يزال في يده، يشعر وكأنه يحمل شيئًا أثمن من الكلمات... يحمل سِرًا جديدًا.

العالم الأول - الفصل الثاني عشر: بين وهج الحلم ووجع الحقيقة

كانت خطوات آدم تتردد ببطء على الرصيف، يركل بين الحين والآخر حجارة صغيرة تتدحرج أمامه، كأنها تسابقه نحو المجهول.

السماء بدأت تفقد لونها تدريجيًا، تميل من البرتقالي المحمر إلى الزرقة الغامقة، تتخللها سحب رقيقة كأنها بقايا حلم لم يكتمل. النسيم صار أكثر برودة، يحمل عبق الشجيرات الرطبة وصوت العصافير الخافت وهي تتهيأ لمبيتٍ هادئ.

كان الشارع المؤدي إلى منزله خاليًا من الضوضاء، إلا من خشخشة أوراق تتطاير من أشجار الحي، وكأنها ترقص لأجل مغيب آخر لا يعلم أحد إن كان سيتكرر بذات الجمال.

شعر آدم بالسكينة تخالطها لمسة من اللاواقعية... اليوم كان طويلًا، ممتلئًا بالضحك والغرابة، لكنه لم يُنسِه ما رآه في الحلم الأخير. ظل وجه الملك وقلق الملكة يطفوان أمامه... وصوت ذلك الكائن الرهيب، ينخر في عقله كدبيب نمل خفي.

حين وصل إلى باب المنزل، رفع رأسه ببطء، تنفس بعمق، وكأنه يتهيأ لعبور حاجز بين عالمين.

دفع الباب بهدوء، دخله دون ضجيج. لم يكن هناك سوى صوت خافت ينبعث من جهاز التلفاز في غرفة الجلوس.

ما إن أطلّ برأسه حتى رأى ألكسندر جالسًا هناك، على الأريكة الجلدية، يداه متشابكتان فوق ركبتيه، ووجهه متجه نحو الشاشة لكنه لم يكن يراها.

عينا الرجل بدتا زجاجيتين، شاردتين في شيء بعيد، وكأن الزمن توقف داخله. جبينه مقطّب قليلاً، وكأنه يُجري حوارًا داخليًا عاصفًا.

لكن ما إن شعر بوجود آدم، حتى تغير كل شيء.

ارتسمت ابتسامة سريعة على وجهه، نفض توتره بسرعة محترف، وقال بنبرة دافئة:

- "ها قد عاد المغوار من ساحة المعركة! كيف كان يومك أيها الطالب المثالي؟ هل أنقذتِ المدرسة من غزو فضائي أم اكتفيت بإنقاذ زميلك من عقوبة الطرد؟"

ضحك آدم وهو يخلع حذاءه:

- "بل أنقذت نفسي من دروس الرياضيات الطويلة... وأظن أن جيروم ما زال نائمًا في الصف حتى هذه اللحظة."

اقترب وجلس على طرف الأريكة، نظر إلى ألكسندر مليًا، ثم رفع حاجبه:

- "أنت... تبدو متوترًا. هل كنت تشاهد فيلم رعب أم تخطط لانقلاب عالمي؟"

ضحك ألكسندر بصوت خافت، ثم تمطى قليلًا:

- "كنت فقط أفكر... في أشياء قديمة. ذكريات متعبة لا تأتي إلا مع الغروب."

ثم غير الموضوع بخفة، قائلاً:

- "وماذا عنك؟ أي أحلام غريبة زارتك هذا الصباح؟ لا تقل لي أن السناجب بدأت تتكلم."

رمش آدم مرتين، وقد شعر بوخزة في صدره، لكن قرر ألا يتكلم عن الحلم.

اكتفى بهزّ كتفيه:

- "مجرد حلم... لا يستحق الذكر."

صمت خفيف خيّم بينهما، قبل أن ينهض ألكسندر متجهًا نحو المطبخ، ينادي بصوت مازح:

- "سأعد شيئًا ساخنًا... أنت تحتاجه، وأنا كذلك."

آدم بقي جالسًا، نظر نحو الباب ثم نحو نافذة الغرفة. السماء صارت بنفسجية، نجمة صغيرة بدأت بالظهور، يتبعها ضوء خافت خجول...

ومع ذلك، لم يستطع أن يمنع شعورًا غريبًا بالتوجس. كأنّ السماء نفسها تخبّئ له سطرًا لم يُكتب بعد.

كانت رائحة العشاء تتسلل من المطبخ إلى بقية أرجاء المنزل، كأنها رسل سلام تبشّر بمصالحة يوم طويل مع الجوع. جلس آدم إلى الطاولة الخشبية المستطيلة، يراقب

ألكسندر وهو يضع الأطباق أمامه: معكرونة بالكريمة والدجاج، وبعض الخبز المحمّص، وسلطة خضراء رتّبت بعناية تليق بطاهٍ محترف لا يعترف بالفوضى.

قال آدم وهو يضع منديلًا في حجره بنبرة تمزج بين الاحترام والسخرية:

."حقًا يا ألكسندر، لست أدري لماذا لا تفتتح مطعمًا... أظنك ستكسب أكثر مما تفعل من جلوسك أمام أوراقك العتيقة."

رفع ألكسندر حاجبه، ثم جلس قبالته، وأجاب بثقة مصطنعة:

."لأني في الحقيقة رجل خطير، لا يمكن ربطه بشيء ثابت... وحتى الطبخ، لا أفعله إلا إن كان ضيفي يستحق."

ثم أضاف وهو يشير إليه بالشوكة:

."اليوم فقط كنت تستحق."

ابتسم آدم بخبث وهو يأخذ قضمة، ثم قال متصنعًا البراءة:

."أوه، ربما السبب أن سيدة ما كانت هنا صباحًا؟ أعني... كلارا؟ يبدو أنك كنت في قمة الإلهام!"

كاد ألكسندر أن يختنق من الضحكة التي حاول كتمها، ثم ردّ وهو يشير إليه بالمغرفة كأنها سلاح:

- "تحذير: أي مزيد من الوقاحة وستغسل الصحون لأسبوع كامل."

قهقه آدم بصوت عالٍ، ثم تابع متهكمًا:

- "هل عليّ أن أبدأ بمناداته: العم ألكسندر؟ أم ننتظر إعلان الخطوبة؟"

لم يكن ألكسندر من النوع الذي يُهزم بسهولة، فردّ بمكر:

- "أوه، لا تقلق... لن أنتقم الآن... سأنتقم لاحقًا، حين تكون أمبر هنا."

توقف آدم فجأة، غصّ ببعض الطعام، وارتسم على وجهه تعبير مزيج من الصدمة والتلعثم:

- "هاه؟! ما... ما دخل أمبر في الموضوع؟"

انحنى ألكسندر إلى الخلف، متقاطع الذراعين، منتصرًا:

- "كلانا لديه نقاط ضعف، يا ولدي العزيز... تذكر ذلك."

ظل آدم يرمقه بحنق مضحك، ثم انتبه فجأة وكأنه تذكّر شيئًا مهمًا. نهض من مكانه، واتجه إلى حقيبته الملقاة على الأريكة، أخرج منها دفتراً متوسط الحجم، مغلفًا بجلد أسود بسيط، ثم عاد ليضعه أمام ألكسندر على الطاولة.

قال بهدوء وهو يعود إلى مقعده:

- "هذه أعطتني إياها ميرا، مذكّراتها في الرواية التي تكتبها... طلبت مني أن أُطلعك عليها، لعلّك تساعدها."

رفع ألكسندر الدفتر، قلّبه بين يديه بنظرة مهتمّة، ثم همهم وهو يقرأ بعض الأسطر الأولى بصوت منخفض:

- "همم... فتاة تكتب؟ يبدو أننا أمام مشروع كاتبة واعدة."

ثم نظر إلى آدم وسأله بنبرة مشاكسة:

- "وهل هذه المساعدة مجرّد طلب عابر؟ أم أن قلبك بدأ يشتّت اهتمامه؟"

ضرب آدم جبينه بكفه:

- "يا إلهي... لمَ كل من حولي مولع بالدراما؟! ميرا صديقة، فقط... هل هذا كثير؟!"

ضحك ألكسندر وهو ينهض لجلب الماء، ثم قال:

- "فقط؟ دعنا نرَ ما تقوله الأيام... أنت لم ترَ شيئًا بعد."

ابتسم آدم بخفة، ثم نظر إلى المذكرة الموضوعة أمام ألكسندر. لم يكن يعرف تمامًا لِمَ حملها بنفسه إلى هنا، لكن شيء في قلبه أخبره أن تلك الورقات تخفي أكثر من مجرد قصة... وربما، أكثر مما يدرك أيٌّ منهما الآن

حلّ المساء، وسكون الليل بدأ ينسج خيوطه على جدران المدينة. كانت الغرفة نصف مضاءة بنور المصباح الخافت قرب السرير، بينما جلس آدم متكئًا على الوسادة، هاتفه بين يديه، يحدّق في المحادثات القديمة، كمن ينقب عن آثار قلبه وسط النصوص.

[محادثة خاصة - آدم و أمبر]

آدم:

هل وصلتِ إلى المنزل بسلام؟

مرّت دقيقة أو اثنتان قبل أن يأتي الرد.

أمبر:

نعم، وشكرًا لسؤالك... الجو كان لطيفًا جدًا هذا المساء.

آدم:

لطيف؟! كنتِ محاطة بجيروم نصف الطريق... هذا وحده كفيل بأن يفسد حتى شروق الشمس.

أمبر:

أعترف أن تعليقاته الغريبة كانت تجربة فريدة... لكن لا تقلق، كنت أستمتع بالاستماع لك وأنت تصحّح له كل شيء.

آدم:

إنه عبء أحمله منذ سنوات... ربما أنال وسامًا ذات يوم.

أمبر:

يبدو أنني بدأت أعتاد على عبثكم، لكنك... مختلف، في طريقتك بالحديث، بنظراتك...

توقف آدم قليلًا، قلبه يرفرف دون استئذان، ثم كتب:

آدم:

أحيانًا، أظن أن وجودك جعل كل الأشياء تدور بإيقاع أجمل، حتى الفوضى.

لم تأتِ إجابة على الفور، بل ظهرت ثلاث نقاط متذبذبة ثم اختفت... ثم عادت... ثم لا شيء.

ابتسم آدم بخفة، كأن الصمت ذاته كان كافيًا.

بعد أن أغلق المحادثة، فتح مجموعة المحادثة المعتادة، حيث جوزيف وجيروم لا ينامان أبدًا دون زرع بعض الفوضى:

[مجموعة المحادثة: "فرقة المشاغبين الثلاثية"]

آدم:

هل مات أحدكما فجأة أم أنكما نضجتما وذهبتم للنوم مبكرًا؟

جوزيف:

كنت أراجع دروسي، كن محترمًا.

جيروم:

وأنا كنت أراجع شكل الوسادة بنشاط مكثّف.

آدم:

آه، ها قد انقلبت الموازين... جوزيف يدرس، وجيروم ينام مبكرًا، وأنا أكتب الشعر لأشباح الليل.

جوزيف:

هل كتبت شيئًا جديدًا؟

آدم:

نعم، عنوانه: "كيف تدّعي أنك تملك أختًا، بينما نحن نعلم أنك وُلدت وحيدًا كالنقطة في آخر السطر."

جيروم:

أقسم أن هذا أفضل شيء كتبته في حياتك.

جوزيف:

سأنتقم، فقط انتظروا... سأنشئ أختًا إن لزم الأمر.

آدم:

رجاءً لا تجعلها خيالية أيضًا... تعبت أعصابي من المسرحيات التي تؤلفها.

جيروم:

دعوه يا آدم، ربما هو بطل رواية درامية ولم نكتشف بعد.

آدم:

لو كان بطل رواية، لكان النوع الذي تُغلق الكتاب بعد أول فصل منه.

جوزيف:

ضحكتم كثيرًا؟ حسنًا، سأكتم أنفاسي حتى تعتذروا.

جيروم:

تنفّس يا صديقي، لست مؤهلًا للاستشهاد.

في آخر الرسائل، كتب آدم:

آدم:

تصبحون على شيء يشبهنا... فوضوي، مزعج، لكن لا يُستبدل.

أغلق الهاتف، والابتسامة لا تزال على وجهه، ممدّدًا جسده على السرير، وأفكاره تتسرب كالماء بين أصابعه

هبط ألكسندر عبر السلالم الخشبية المتهالكة المؤدية إلى القبو السري، خطواته بطيئة، لكنها ثابتة، كمن يعرف أن كل درجة تقرّبه من عبء لا يُحتمَل، لا مفر منه.

وما إن دلف إلى الداخل، حتى انكشف المكان المظلم على ضوء مصباحٍ صغير معلق في السقف، يتأرجح كما تتأرجح الأفكار في صدره. جدران عارية، صمت كثيف، وسكون يخترقه صوت أنفاسه المتسارعة.

في منتصف الغرفة، وقف رمح طويل، معدني الرأس، ثابت في منصة من حجر رمادي، يلمع كأنه احتفظ بدم قديم عليه.

اقترب ألكسندر، يمد يده نحوه، وكأنه يمدها نحو قدر لم يختره قط.

كان طويل القامة، ذا كتفين عريضين وعضلات مشدودة كما لو أنها نُحتت على عجل من صخر لا يعرف الرحمة.

شعره أسود كثيف، تتخلله بعض الخصل المتمردة على جانبيه، ويبدو كمن خرج من صفحات رواية رومنسية لا ينقصه فيها شيء سوى السلاسل والندوب الخفية.

عيناه بنيتان، ليستا فقط عميقتين، بل كأنهما مرآتان لغابة اشتعلت بنار خامدة لا تُرى... لا يبتسم كثيرًا، لكن ملامحه تملك نوعًا من الجاذبية التي تأسرك دون أن تشرح لك لماذا.

تأمل الرمح قليلًا، ثم قبض عليه بقوة، وبدأ يتمرن بحركات رشيقة ودقيقة.

كان جسده يتحرك برشاقة مفاجئة لمن يحمل هذا الثقل في كتفيه، كل ضربة من الرمح تحمل معنى، كل دوران يصرخ بفكرة، كل انحناءة تقول شيئًا لم يُقال.

لكن خلف تلك الرشاقة، كان رأسه يغلي.

ماذا لو عرف آدم؟

هل كنتُ على صواب حين خبأت عنه كل شيء؟

هل يمكنني حمايته... من نفسه؟ من الحقيقة؟

كان الضيق يتراكم في صدره، كما يتراكم الدخان في غرفة لا نوافذ لها.

كلارا كانت على حق، كما العادة، لكن ألكسندر لم يكن رجل قرارات سهلة.

هو يعرف أن في داخل آدم شيئًا أكبر مما يحتمل قلب فتى...

لكنه أيضًا يعرف أن الكشف مبكرًا، سيقتل شيئًا فيه، لا يمكن استعادته أبدًا.

استدار فجأة، وغرز الرمح في الأرض بقوة حتى ارتجّت الجدران.

ثم جلس على حجر جانبي، يمسح عرقه، وعيناه تحدّقان في الرمح كأنه خائنٌ لا يمكن الوثوق به، تمامًا كما يشعر تجاه ماضيه.

لو كان لي أن أختار، لما تركت العالم يمسّه...

العالم الأول - الفصل الثالث عشر: ابتسامة تخفي نصلًا

كان صباحًا عاديًا، أو هكذا بدا للوهلة الأولى.

الشمس تسللت بكسل عبر زجاج النافذة، تنثر خيوطها الذهبية على أرضية الغرفة الخشبية، حيث استلقى آدم في فراشه يتأمل السقف. الهواء بدا معتدلًا، يحمل نسمة خفيفة عبر الستائر الموشحة بلون كريمي باهت. صخب المدينة لم يكن حاضرًا بعد، فقط زقزقة عصافير متأخرة وصوت خطوات متناثرة في الأسفل.

لقد مضت أسابيع منذ بداية العام الدراسي، والأسابيع بدت كأنها دهور، محمّلة بتغيرات صغيرة تراكمت ببطء، تسللت خفية إلى تفاصيل الحياة اليومية.

جلس آدم على حافة السرير، يمدد ذراعيه بتثاقل ويطلق تنهيدة طويلة، وكأنها تحمل ما علق بروحه من أحلام غير مفهومة وتعب لم يعرف له سببًا.

دخل ضوء النهار غرفة الشاب ذي الشعر أسود الداكن، الذي بدا أكثر نضجًا عن السابق، كأنّ شيئًا ما داخله تغيّر، دون أن يدركه بوضوح. مرر يده في شعره بنعاس، ثم نزل إلى الأسفل، حيث رائحة القهوة تعبق في المكان.

في المطبخ، جلس ألكسندر يقرأ الجريدة، عابس الملامح على غير عادته، شعره الأسود المرتب كأنّه خرج لتوّه من رواية تاريخية، وعيناه البنيّتان تحملان شيئًا من الشرود.

آدم: "صباح الخير يا وصيّ أسراري وكاتم أنفاسي."

ألكسندر (يرفع حاجبه دون أن ينظر إليه): "هل نسيت أني أستحق بعض الاحترام؟ على الأقل صباح الخير دون تهكّم؟"

آدم (يبتسم وهو يصب لنفسه كوبًا من القهوة): "أنا أظهر لك الحبّ بطريقتي الخاصة."

ألكسندر (بتنهيدة ساخرة): "حبك كفيل بإيصالي للجنون قبل سن التقاعد."

جلس آدم إلى الطاولة، يراقب ألكسندر بطرف عينه، يلاحظ الهالات الخفيفة أسفل عينيه، وتجاعيد القلق التي تسللت إلى وجهه خلال الأسابيع الماضية.

آدم (بلهجة أخف): "هل كل شيء بخير؟ تبدو... مُجهدًا؟"

ألكسندر (بعد لحظة صمت قصيرة): "فقط الكثير من العمل. وأفكار لا تطاق."

تبادلا الصمت لثوانٍ، فقط صوت ارتشاف القهوة وورق الجريدة الذي يُقلب.

آدم (وهو ينظر من النافذة): "اليوم يبدو هادئًا... أكثر من اللازم."

ألكسندر (دون أن يرفع نظره): "احذر الهدوء، فهو أكثر ما يسبق الفوضى."

ابتسم آدم، لكن شيئًا ما في قلبه ارتجف... كما لو أنّ كلماته كانت نبوءة لا مزاحًا.

خرج آدم من المنزل بخطى متوازنة، يده في جيب سترته الخفيفة، وحقيبة الظهر تتأرجح بثقلها على كتفه. كانت السماء ملبّدة ببقايا الغيوم الرمادية، تنحسر ببطء أمام خيوط شمس خجولة تشقّ طريقها من بين الشقوق. الهواء نديّ، يحمل رائحة الإسفلت المبتل وشيئًا من عبق الأشجار الرطبة التي تصطفّ على جانب الطريق.

الشارع بدا مألوفًا، لكن في قلب آدم، كان هناك شيء ما قد تغيّر... ربما هو الإحساس الغامض الذي لم يفارقه منذ أسابيع، أو تلك الأحلام التي تتكرر وتتركه في دوامة من الحيرة عند كل فجر.

كان شارعه هادئًا، لا يخلو من حركة المارّة وبائعي الخبز المتجولين، والمنازل التي تفتح نوافذها للحياة. وبينما كان يسير، يراقب العصافير تتقافز بين الأسلاك، سمع خطوات خفيفة تقترب من الخلف، تلاها صوت مألوف:

أنجي: "صباح الخير، يا رجل الصمت والتنهيدات الطويلة."

استدار آدم بسرعة، وابتسم تلقائيًا.

كانت أنجي تسير بخفة إلى جانبه، شعرها الأسود الطويل يتماوج مع نسيم الصباح، ووجهها الوضيء يحمل تلك اللمعة الساحرة بين دفء الابتسامة وبراءة الطفولة. كانت ترتدي معطفًا رماديًا خفيفًا، ووشاحًا أزرق يحيط بعنقها، يبرز لون عينيها الغامق.

آدم (مازحًا): "أنا لا أتنهد كثيرًا... فقط أمارس التأمل الصامت في عبث الحياة."

أنجي (تضحك بخفة): "عبث الحياة؟ هل تحولت لفيلسوف الآن؟ يبدو أنني فوتُ تطوّرك الفكري بعد تلك الأسابيع."

آدم (يمشي بجانبها): "لم أتحول إلى شيء... ربما فقط أراقب كل شيء من بعيد. ومن يدري، ربما سأعتزل في كهف وأكتب مذكّراتي."

أنجي (بابتسامة عميقة): "لن تصمد يومين دون إنترنت وكافيين."

ضحك آدم، وكانت ضحكته حقيقية هذه المرة، تخرج من عمق خفيف لم يزره منذ مدة. مشى بجانبها، ملاحظًا كيف تلامس خصلات شعرها وجنتيها كلما مرت نسمة، وكيف تبدو هادئة ظاهريًا، رغم تلك النظرة العميقة التي لم يكن يعرف كيف يفسّرها أبدًا.

آدم (ينظر إليها بطرف عينه): "هل تغيّر شيء؟ لا أدري... لكنك مختلفة قليلاً."

أنجي (نظرت أمامها، بنبرة شبه غامضة): "نحن جميعًا نتغيّر، آدم. أحيانًا دون أن ننتبه."

ساد بينهما صمت قصير، صمت لم يكن ثقيلًا، بل كأنه مساحة راحة... كأن الهواء ذاته كان يستمع.

ثم قال آدم، بلهجة أخف:

"على الأقل لم تتغير عادتك في مفاجأتي كل صباح، وكأنك تعرفين أين سأكون بالضبط."

أنجي (ابتسمت دون أن تلتفت): "ربما أنا ساحرة... أو فقط أعرفك أكثر مما تعتقد."

حين اقترب آدم وأنجي من بوابة المدرسة، انفتحت أمامهما الصورة المألوفة للمبنى العتيق، جدرانه تحمل آثار السنوات، وساحته تعجّ بأصوات الطلبة وضحكاتهم المندفعة مع تيار الصباح. كان الهواء قد بدأ يزداد دفئًا، لكن نسمات خفيفة ما زالت تعبق برائحة الطباشير والكتب القديمة.

أنجي (وهي تنظر إلى الساعة): "ما زال لدينا وقت قبل أن يبدأ الجنون."

آدم (نصف يبتسم): "الجنون بدأ من اللحظة التي خرجتِ فيها من البيت."

سارا بخطى هادئة نحو الفصل، متجاهلين الجلبة حولهم، حتى وصلا إلى الممر الذي يؤدي إلى القاعة. هناك، وعلى الجانب الأيسر، انفتح الباب الخشبي ببساطة عادية... لكن ما إن وطأت قدما آدم عتبة الفصل، حتى تجمّد للحظة، وكأن الزمن علق بين نبضتين.

كانت أمبر جالسة في مقعدها قرب النافذة، الضوء يتسلل على خديها بخجل، يمر عبر خصلات شعرها الأشقر الكستنائي كأنها مرآة من حرير مضاء. كانت تكتب شيئًا في دفترها، رأسها مائل قليلاً، وملامحها تنضح بهدوء شاعري. لم تكن تنظر إليه... لكنها كانت هناك. وكان وجودها وحده كافيًا لزرع اضطراب خفي في صدر آدم.

آدم (في داخله):

لماذا يبدو كل شيء ساكنًا عندما أراها؟ كأنّ العالم كله ينتظر كلمة منها ليتحرّك.

ووسط هذه السكينة العابرة، كانت هناك حركة أخرى، أكثر خفوتًا... لكنها مشحونة.

أنجي، التي كانت إلى جواره، لم تكن تنظر إلى أمبر. بل كانت عيناها، كظلال رمادية عميقة، موجهة بثبات نحو الجهة المقابلة من الفصل... حيث جلست ستيفاني.

كان جسد أنجي في وضع طبيعي، حقيبتها ما تزال على كتفها، لكن نظرتها... كانت جامدة، حادة، أشبه بشفرة لامعة تحت ضوء باهت. شيء ما في تلك النظرة جعل الهواء بينهما وكأنه تغيّر فجأة.

ستيفاني، التي كانت تضحك مع فتاتين بجانبها، توقفت للحظة، وكأنها أحسّت بثقل يهبط على كتفها دون سبب. رفعت رأسها دون وعي، لتلتقي بعيني أنجي، وفجأة، تغير كل شيء في ملامحها.

تسارعت أنفاسها لثانية، ثم أطرقت بعينيها، وحاولت أن تتابع حديثها مع زميلتها، لكن الارتباك بدا واضحًا في صوتها، في طريقة تحريكها ليدها، في النظرة التي تشرد فيها قليلاً نحو الباب... وكأنّها قد رأت شبحًا يعرفها أكثر مما ينبغي.

أما أنجي، فقد أزاحت عينيها ببطء، وكأنها تقول في صمت:

"أنا أراك... ولن أنسى."

ثم تقدمت بهدوء نحو مقعدها، وجلست، دون كلمة.

في الزاوية الخلفية من الفصل، كان جيروم يجلس إلى جانب آدم، يتأمل جدول الحصص كأنما ينظر إلى حكم بالإعدام.

جيروم (وهو يتنهد بعمق):

"رياضيات... ما هذا العقاب السماوي؟ أشعر أن خلايا مخي بدأت تودّع بعضها."

آدم (بسخرية مرهقة):

"هكذا تبدأ النهايات يا جيروم، بجملة 'افتحوا كتبكم على الصفحة 132'."

جيروم:

"أقسم لك، لو استطعتُ، لهربتُ الآن. فورًا."

كانت أنجي تجلس بالقرب منهما، تستمع بصمت، قبل أن تقول فجأة، بنبرة هادئة لكن حاسمة:

أنجي:

"إذا كنتم تفكرون في الهروب... النافذة خيار جيد."

آدم (بدهشة):

"النافذة؟"

أنجي (وهي تنهض وتتجه نحو الزاوية الخلفية):

"الأستاذ قادم. سمعت خطواته. أمامنا أقل من دقيقة."

جيروم (وهو يقفز من مكانه بحماس):

"هكذا أحبك، أنجي! عقل مدبّر!"

آدم (ضاحكًا):

"هل أصبحنا في فيلم هروب الآن؟ حسناً، فلنُلق نظرة."

أنجي فتحت النافذة بخفة، الهواء البارد صباحًا لامس وجوههم، بينما الممر الخارجي بدا خاليًا كأنه ينتظرهم.

أنجي (ببساطة):

"القفزة قصيرة، الأرض ناعمة، الباب الخلفي للمدرسة مغلق الآن... فليس أمامنا سوى التواري عن الأنظار لبعض الوقت."

جيروم (وهو يتسلق):

"سيدة استراتيجية! أول الهاربين!"

آدم (وهو ينظر إلى الباب بخوف مصطنع):

"سنُسجَن مدى الحياة، وستُكتب مذكراتنا تحت عنوان: آخر من قفزوا من الفصل."

أنجي (وهي تقفز بخفة):

"لكننا سنموت أحراراً، بلا رياضيات."

آدم (ينظر لميرا التي تراقبهم بتسلية):

"إن سأل أحد عنا، قولي إننا ذهبنا نبحث عن معنى الحياة في الهواء الطلق."

ميرا (بضحكة خفيفة):

"سأقول إنكم حمقى... لكن حمقى بشجاعة."

قفز آدم، وانغلق الشباك خلفهم بهدوء.

وفي اللحظة ذاتها، دلف الأستاذ توماس إلى الفصل، يحمل كومة من الأوراق ووجهًا يعلن الحداد على طلابه.

خرج الثلاثي من حرم المدرسة كأنهم أفلتوا من قيدٍ غير مرئي. عبروا الزقاق الجانبي المكسوّ بأشعة شمس خفيفة، متسلّلة من بين الغيوم، حتى بلغوا شارعًا فرعيًا تناثر فيه بعض المارة ومقاهٍ صغيرة بعيدة عن صخب المدينة.

كان المقهى المختلط صغيرًا، بألوان دافئة ونوافذ كبيرة تعكس ضوء الشمس على الأرضية الخشبية. جلسوا في الزاوية، قرب الزجاج، حيث تطل الطاولة على شارع هادئ تتمايل فيه الأشجار بفعل النسيم.

جيروم طلب مشروبًا غازيًا مثل عادته، آدم اكتفى بقهوة سوداء رغم أن المرارة ليست حليفته، وأنجي طلبت شايًا أخضر، كما لو كانت تطلب السكينة في فنجان.

تبادلوا بعض الكلمات العابرة في البداية، أحاديث قصيرة أشبه بأصوات تنذر بصمتٍ أطول.

آدم كان أول من كسر الجمود بصوت خافت، وهو يقلب الملعقة بين أصابعه:

"سمعت أن هناك تحقيقًا جديدًا... حول اختفاء عائلتك."

لم ترفع أنجي نظرها فورًا، بل أخذت رشفة من كوبها، عيناها مثبتتان على مكان بعيد خارج النافذة. كأنما تبحث عن كلماتها بين ضوء الشمس وظلال المارة.

أنجي (بنبرة ثابتة، تكاد تخلو من الحياة):

"لن يجدوا شيئًا. ولن ينبغي لهم أن يفعلوا."

جيروم (بتردد، وقد انطفأت ابتسامته المعتادة):

"لكنك لا تعرفين... ربما هناك أمل."

أنجي (تضع الكوب بهدوء على الطاولة):

"الأمل؟ الأمل هو ما جعلني أستفيق كل يوم على كوابيس، وأنتظر أخبارًا لا تأتي. الآن... عدم وجود أجوبة أفضل من أجوبة مريعة."

آدم (يحاول انتقاء كلماته):

"لكن ألا ترغبين بمعرفة الحقيقة؟ حتى لو كانت مؤلمة؟"

نظرت إليه أنجي للمرة الأولى، نظرة ثابتة، عميقة، لا تحمل الغضب بل شيئًا أبرد من الغضب... قناعة.

أنجي:

"الحقيقة قد لا تحررنا كما نعتقد. أحيانًا، الجهل نعمة... على الأقل، لا يجرّك معه إلى القاع."

ساد الصمت، كأن المدينة نفسها توقفت عن التنفس. لم يكن في نبرة أنجي تكلّف ولا دراما، بل شيء أقرب إلى الفراغ، ذلك النوع من البرود الذي لا يتعلمه الإنسان بل يُصهر فيه.

جيروم (بصوت منخفض، بعد لحظة):

"أنتِ قوية."

أنجي (بنبرة أقرب للهمس):

"أنا فقط ما تبقّى."

تحركت ملعقة آدم في فنجانه ببطء، صوتها كان أشبه بإبرة دقيقة تخدش الجدار الصامت بين القلوب.

لم يُضف أحد شيئًا بعدها. لا لأنهم لم يريدوا، بل لأنهم شعروا أن أي كلمة ستبدو تافهة بجوار ثقل ما تحمله أنجي في قلبها.

بعد لحظاتٍ من الصمت المشوب بالتفكير، دفعت أنجي كرسيها إلى الوراء بلطف، ونهضت ببطء وهي تلتقط حقيبتها. نظرت إليهما بنظرة حيادية، كأنها لا تزال عالقة في تلك النقطة البعيدة داخل نفسها.

أنجي (بهدوء):

"سأذهب إلى الحمام... لحظة فقط."

هزّ آدم رأسه موافقًا، وراقب خطواتها وهي تمضي وسط الضوء المائل المتسلّل من النوافذ، خطوات واثقة كما لو كانت تعرف بالضبط أين تضع قدميها حتى في دروب لا ترى.

بمجرد أن اختفت، اقترب جيروم من آدم قليلًا، وأسند ذراعه إلى الطاولة ثم مالت شفتاه بابتسامة صغيرة، لكنها لم تكن ماكرة هذه المرة، بل محمّلة بشيء من الجديّة المموّهة بالسخرية.

جيروم (بصوت منخفض):

"أتعلم، كنت أفكر... أنت تختار دائمًا الأمور الأعقد، آدم. مثلًا، أمبر؟ لا أقول إنها سيئة، لكن..."

رفع حاجبه وأشار بإصبعه نحو الباب الذي خرجت منه أنجي.

**"أنجي أمامك... جسم؟ مثالي. وجه؟ كأنه نُحت. شخصية؟ تجمع بين الهدوء والجنون. وقبل كل شيء... ملاكك الحارس."

آدم (يتنهد وهو يحك رأسه):

"ما دخل هذا الآن؟ أنجي صديقة طفولتي، هذا كل شيء. وأنا... ."

جيروم:

"لكنّك لا تنكر أنك لا تحب أنجي أيضًا. على الأقل ليس... بهذا الشكل. ومع ذلك، لا أحد يلاحقك بسكاكين من أحلامك سواها، أليس كذلك؟"

ضحك بخفة، قبل أن يخرج هاتفه ويمدّه نحو آدم.

جيروم:

"ومع ذلك، أنظر هذه... محادثتي مع أمبر. أنظر كيف تغازلني... ."

حدّق آدم في الشاشة بذهول، كانت الرسائل واضحة، مرحة، محمّلة بغمزات غير بريئة وتلميحات تتجاوز نطاق الصداقة. عبس وجهه قليلًا، قبل أن يدفع الهاتف بلطف.

آدم (ببرود):

"ربما هي فقط... تبحث عن انتباه. أو تحاول فهم نفسها. أو... لا أعلم، لا يهمني."

في تلك اللحظة، كانت أنجي تقف في الحمام أمام المرآة. يدها تلمس خصلة من شعرها الداكن، تعبث بها كأنها تتأكد من تموّجها الدقيق. عيناها كانتا ساكنتين، لكن خلف ذلك السكون، بحر غامض، عاصف، مريب.

أخرجت من حقيبتها مرآة صغيرة، وضعت لمسة من الحمرة، خفيفة، بالكاد تُرى، لكنها كافية لتجعل شفتيها تتحدثان بلغتهما الخاصة. وعندما همّت بإعادة المرآة إلى حقيبتها، تحرّكت تنورتها القصيرة قليلًا... وحدث ما لم تتوقّعه.

سقط سكين صغير، لامع، من الحزام الجلدي المخفيّ عند خصرها.

لحظة صامتة ثقيلة. نظرت إليه بسرعة، تلتقطه بخفة باردة وتعيده إلى الحقيبة دون أي انفعال في وجهها.

وضعت حقيبتها على كتفها، وألقت نظرة أخيرة على انعكاسها في المرآة. في تلك النظرة لم تكن أنجي مجرد فتاة جميلة تهتم بمظهرها... بل شيء آخر. أشبه بملاك... يحمل نصلًا خلف ظهره.

بعد أن أنهى آدم حواره الطويل مع جيروم، الذي ما زال يردد المديح المبطّن لأنجي على طريقته الساخرة، عادت الأخيرة إلى الطاولة وهي تبتسم بسعادة غريبة، وكأن شيئًا لطيفًا حدث في الحمام. كانت خطواتها هادئة، وثقتها تسير أمامها.

أنجي (بمرح):

"لم أضيعكما، أليس كذلك؟"

جيروم (بابتسامة مشاكسة):

"في الواقع كنا نتحدث عنك. لا تقلقي، كلها أشياء لطيفة... نوعًا ما."

رفعت أنجي حاجبًا بخفة، بينما ضحك آدم وهو ينهض من مقعده.

آدم:

"كفاك يا جيروم. هيا بنا نتمشى قليلاً، الجو جميل بالخارج."

خرج الثلاثة من المقهى وساروا وسط شوارع المدينة. الشمس تميل إلى الانحدار، والأضواء الذهبية تمتزج بالظلال في زوايا الأرصفة. صوت الحياة من حولهم، ضحكات المارة، بائع متجول يعزف على آلة وترية، ورائحة خبز ساخن تنبعث من مخبز قريب.

أنجي كانت تمشي بينهما، شعرها يتطاير مع نسيم المساء، وعيناها تلمعان بشيء من السلام الذي نادرًا ما يراها أحد فيه.

لكن اللحظة لم تدم طويلاً.

من زقاق جانبي، خرج شاب ضخم، عريض المنكبين، بملامح غليظة ووشم بارز على عنقه. اقترب منهم بخطى واثقة وبعينين تقدحان شرًّا.

الغريب (بصوت خشن):

"هيا، سلّموا ما لديكم. المال، الهواتف... كل شيء."

وقف الثلاثة في صدمة. جيروم، الذي غالبًا ما يكون أول المتهكمين، لم ينطق، بل تراجع خطوة صغيرة.

جيروم (بهمس لآدم):

"يبدو أنه أكل نمرًا على الفطور... لا أعلم كيف ستتعامل مع هذا، لكنني أراهن أنك ستنجو. أو لا."

آدم (وهو يتقدم):

"اسمع، لا داعي للعنف. خذ ما تريد ودعنا نمضي."

لكن الشاب لم يكن يبحث عن المال فقط، بل عن إثبات رجولته على حساب غيره.

دون سابق إنذار، وجّه لكمة مباشرة إلى آدم، لكن الأخير انحرف بسرعة، تفادى الضربة، وردّ بلكمة في معدته. الشاب ترنّح، ثم هدر كالثور وانقض عليه مجددًا.

جيروم (من بعيد وهو يشجع):

"هيا آدم! فكّر كأنك في لعبة فيديو! اضغط مربع، مربع، مثلث!"

بدأ القتال يشتعل، تبادل فيه آدم واللص اللكمات، ضربة على الكتف، صفعة على الفك، وتفادي سريع بلعبة أقدام ماهرة. كان آدم يبذل كل طاقته، لكن خصمه كان أثقل، أقوى، وأكثر وحشية.

ثم جاءت الضربة... غفل آدم لجزء من الثانية، فكانت لكمة قوية في أنفه جعلته يتراجع وهو يمسك وجهه بأنين خافت.

جيروم (بقلق):

"آدم! لا تكن بطلاً أكثر من اللازم!"

حينها، تقدمت أنجي خطوة، وجهها تجمّد، عينها اشتعلتا بنارٍ لا تُرى عادة إلا في لحظات نادرة. وعندما حاولت التدخل، صرخ الشاب بغلظة:

"أنتِ! لا تتدخلي... سأُكمل مع حبيبك ثم أعود إليك!"

لكن ما حدث لم يكن في حسبانه.

في غمضة عين، هاجمته أنجي. لم تكن تلك الفتاة الناعمة التي يعرفونها، بل إعصارًا غاضبًا. وجهت له ركلة خاطفة في ساقه أسقطته أرضًا، ثم انهالت عليه باللكمات. قبضتها الصغيرة لم تكن ضعيفة، كانت مثل المطرقة. وجهه، بطنه، كتفه، حتى صدره تلقى ضربة ركبة مؤلمة.

جيروم (بذهول وهمس لآدم):

"ألم أقل لك؟ إنها ملاك حارس... من الجحيم."

ظلّت أنجي تضرب، واللص يئن ويتلوّى تحتها، حتى بدا أن الأرض نفسها تتوسل لها أن تتوقف.

ثم... توقفت. شهقت شهقة خفيفة كأنها استفيقت من حلم. نهضت بسرعة، تنفّست بعمق، وعيناها متسعتان بشعورٍ بالذنب.

أنجي (بصوت منخفض):

"آسفة... لقد... انجرفت قليلاً."

آدم (وهو يمسح أنفه):

"قليلاً؟ كنتِ على وشك أن تتركيه يطلب موعدًا مع خالقته!"

جيروم (ضاحكًا):

"كان يجب أن تُوقعيه على وثيقة تأمين قبل أن تلمسيه، أنجي."

رمقتهم أنجي بنظرة حذرة ثم ضحكت بهدوء، وارتدت حقيبتها.

أما اللص، فقد بقي يتلوّى على الأرض، وبين أنينه وتمتماته، كان من الواضح أنه لن يكرر غباءه مرة أخرى.

خرج الثلاثة من الزقاق بعد أن ضمنوا أن اللص لن يلاحقهم – أو أي أحد آخر – في القريب العاجل. كان آدم يضغط منديلاً ورقيًا على أنفه الذي بدأ يهدأ نزيفه، بينما نظرات الإعجاب والدهشة لا تزال تلوح في عينيه وهو يختلس النظر إلى أنجي بين الفينة والأخرى.

جيروم (بمزاح وهو ينظر إلى آدم):

"من الجيد أن وجهك نجا. لا أحد يحب البطل بأنف أعوج."

آدم (بغمغمة):

"على الأقل أنفي أفضل من كبريائه الذي طُحن قبل قليل على يد فتاة."

ضحكت أنجي بخفة، ثم أشارت إلى صيدلية قريبة:

أنجي:

"تعال، دعنا نداويك قبل أن تنزف حتى تتعلم درسك."

وقف آدم وأنجي خارج الصيدلية، بجانب شجرة صغيرة تتراقص أوراقها مع نسمات العصر الخفيفة. الشمس بدت مائلة نحو المغيب، وصوت السيارات في الخلفية كأنّه موسيقى تصويرية خافتة ليوم طويل.

داخل الصيدلية، كانت الإضاءة ناعمة، والجو هادئ، ورفوف الأدوية مصطفة كما لو كانت جنودًا في عرض شرفي

عند الطابور، كان جيروم يقف في الصف يحمل علبة بخاخ إسعافي... لكن كان هناك رجل أصلع، بوجه مشدود، يحدّق به وكأنه يحاول قراءة أفكاره.

الرجل (بحدة):

"ألا تعرف أن هناك ترتيبًا في الصف؟"

جيروم (برفع حاجب):

"ألا تعرف أنني هنا قبلك؟ أم أنك قفزت من الصفحة الخطأ في كتاب الواقع؟"

الرجل (بتوتر وهو يظهر بطاقة):

"أنا المدير المعهد الذي تدرسه به أليس من المفترض أن تكون في فصلك!"

لحظة صمت... ثقل الجو فجأة.

جيروم (بهمس يشبه الانفجار):

"... أحا."

وفي لحظة تشبه مشهدًا من أنمي، استدار جيروم وهرب من الصيدلية بسرعة تكاد تخرق قوانين الفيزياء، ورفعت الرياح وراءه كيسًا بلاستيكيًا، انقلب أحد رفوف المجلات، وظهرت عاصفة رملية مجازية من لا مكان وكأن إعصارًا صغيرًا اخترق المكان.

آدم (وهو يراقب الباب الزجاجي):

"غريب... جيروم يتأخر. كل ما عليه هو إحضار ضماد وعطر منعش."

أنجي (تبتسم بهدوء):

"ربما ضاع في قسم الشامبوهات، أنت تعرف، قد يكون هذا من أعظم مآزق الحياة."

آدم (ضاحكًا):

"تخيّلي أنه يخرج حاملًا معجون أسنان بنكهة الكاري. سأقوم بلكمه حتى ولو كنت مصابًا."

لكن فجأة، انفتح باب الصيدلية بعنف، وخرج جيروم بسرعة جعلت الرياح تتلاعب بمعطفه وكأن مشهدًا من فيلم أكشن انطلق وسط يوم عادي. لم يكن يركض، بل كان يفرّ... بكل ما أوتي من عزيمة وغريزة نجاة.

أنجي (باندهاش):

"ما الذي...؟"

آدم (منكمشًا ضاحكًا):

"أقسم أنها كانت أسرع لحظة في حياتي... هل رأيتِ ما رأيت؟"

جيروم وقف بينهم، يلهث وكأنّه قطع ماراثونًا لتوّه.

آدم (ساخرًا):

"ما الأمر؟ هل انفجرت الصيدلية؟ أم أنك أخطأت بين دواء الصداع وسم الجرذان؟"

جيروم (بصوت مرتجف):

"المدير... مدير المعهد! هو نفسه! كان خلفي في الصف!... و... وصرخت عليه."

أنجي (متفاجئة):

"ماذا قلت له؟"

جيروم (يتنفس بسرعة):

"قلت له إنه خرج من الصفحة الخطأ في كتاب الواقع!"

عمّ الصمت لثوانٍ... قبل أن ينفجر آدم ضاحكًا، ووضعت أنجي يدها على فمها وهي تحاول كتم الضحك بلا جدوى.

آدم (يصفق على ساقه):

"أقسم أنني رأيت إعصارًا رمليًا وهميًا خلفك... لو كنت أملك كاميرا، لكنت حصلت على مليون مشاهدة في ساعة."

جيروم (وهو يحاول التماسك):

"أنا ميت... ميت رسميًا. احفروا لي قبرًا خلف مقصف المدرسة."

وصل الثلاثي إلى بوابة المدرسة، يلهثون من شدة الركض، ووجوههم متعرقة من التعب والقلق. الأمل يشتعل في أعينهم، حتى توقّفوا فجأة... الباب مغلق.

آدم (ينظر للباب الموصَد):

"لا... لا لا لا! مش ممكن..."

جيروم (يركض يائسًا نحو الباب ويدفعه):

"يا ربّ... حتى الباب الجانبي مسكّر؟!"

أنجي (تتفقد السور):

"لا يوجد أي ممر خلفي... لقد أغلقوا كل شيء!"

آدم (يلتقط هاتفه بسرعة):

"لازم نبلغ جوزيف... هو الوحيد اللي يقدر يغطينا."

أرسل آدم رسالة نصية:

> "كارثة. الباب الرئيسي مغلق، ما نقدر ندخل. المدير قد يسبقنا. استعد للأسوأ."

مرّت لحظات... حتى ظهرت إشعارات سريعة ورد جوزيف:

> جوزيف:

"هههههههههههههههههههههههههههههههههههه

GG

أنتم السابقون، ونحن اللاحقون...

إلى اللقاء يا أبطال."

آدم (وهو يبتسم):

"أقسم أنني أسمعه يضحك في الرسالة!"

جيروم (ضاحكًا ويمثل مشهد درامي):

"قل لي يا آدم... هل تركنا إرثًا؟"

أنجي (بهدوء وهي تمسك شعرها المبعثر):

"أعتقد أن هذا ما يسمّى... نهاية اللعبة."

وبينما الثلاثي في خضمّ الإحباط واليأس، سمعوا صوتًا مألوفًا يناديهم من وراء الباب الحديدي الكبير:

كريس (بهمس وهو يطل برأسه من الباب الذي فتحه بخفة):

"هيي، ادخلوا بسرعة قبل ما يلاحظ أحد!"

آدم (مندهشًا):

"كريس؟ كيف...؟"

كريس (وهو يشير لهم بالتقدّم):

"الأستاذ توتو نسي يدوّن الحضور اليوم، تخيّلوا! ولا واحد منكم انكتب غايب. ادخلوا، بس بهدوء."

جيروم (وهو يعبر الباب وهو يرفع يده للسماء):

"يا الله... أيًّا تكن العادة أو الصدمة أو نوع المربّى اللي خلاه ينسى، أنا شاكر لك يا أستاذ توتو... من أعماق قلبي."

دخل الثلاثي بخفة وحذر، قلوبهم تخفق بسرعة، كأنهم عبروا من مهمة مستحيلة. قرّروا الجلوس في ساحة الرياضة الخلفية، بعيدًا عن الأنظار، حتى تنتهي الحصة الملعونة.

أنجي (وهي تجلس على العشب وتعدل ربطة شعرها):

"أشعر وكأننا في فيلم تجسس."

آدم (وهو يتكئ على حقيبته):

"بل أشبه بعملية إنقاذ، لكن من الرياضيات."

جيروم (بفخر):

"وأنا كنت القائد الميداني!"

رنّ الجرس أخيرًا، ودخل الثلاثي إلى الفصل بكل هدوء، لا تعابير، لا توتر... جلسوا في مقاعدهم كما لو لم يختفوا لساعة كاملة.

الأستاذ في الداخل كان منشغلًا في كتابة معادلة طويلة على السبورة، دون أن يلتفت أو يشعر بشيء.

آدم (يهمس لأنجي):

"أقسم أن هذه من المعجزات الصغيرة."

جيروم (يغمز لهما):

"آه... وهذه ليست إلّا البداية."

العالم الأول - الفصل الر ابع عشر: القلادة

رنّ الجرس بصوتٍ معدنيّ متقطّع، كأنّه يعلن الإفراج من سجنٍ مؤقتٍ لا يُعاقب فيه سوى بالصمت والتركيز القسري. تدافع الطلّاب إلى الخارج، يحملون دفاترهم بيد، وتنهّداتهم باليد الأخرى.

خرج آدم أولًا، يمدّد ذراعيه في الهواء وكأنه يحرّر جسده من سلاسل مقعد الدراسة. تبعه جيروم بخطوات واسعة وابتسامة مشاكسة كعادته، بينما كان جوزيف يتفقد هاتفه بحثًا عن أي فرصة للسخرية من شخصٍ ما.

أمبر كانت تسير بهدوء إلى جانب لونا، تتحادثان بابتسامة خفيفة، ولونا تمسك حقيبتها برقة كما لو كانت تحمل زهرة. أما ميرا، فقد لحقت بهم بخطى مترددة، تحدّق في الأرض، ثم في وجوههم، وكأنها تحاول الإمساك بخيطٍ للانخراط دون ضجيج.

"أقسم إنني نسيت اسم الأستاذ خلال الحصة، من فرط الملل"، قال جيروم وهو يتأفف، "كل مرة يدخل كأنّه برنامج توعوي ضد السعادة."

ضحك آدم وأضاف: "أنا فقط سعيد أننا لم نُطرد من المدرسة بعد تلك القفزة الملحمية."

جوزيف تدخل وهو يلوّح بيده: "بل لأن الأستاذ توتو نسي سجل الغياب، وهذه معجزة تربوية تستحق الاحتفال."

أجابته أمبر وهي ترفع حاجبًا بخفة: "لا تحتفل كثيرًا، قد يتذكّرك في الحصة القادمة ويسألك عن درس اليوم."

"أنا عندي سياسة: من لا يتذكرني، لا أذكره!" قالها جيروم وهو يضع يديه في جيبه ويميل للخلف بمبالغة.

ميرا قطعت السخرية وهمّت بالسؤال بخجل: "إلى أين نذهب الآن؟"

"إلى أي مكان فيه شمس وهواء... وحياة!" أجاب آدم مبتسمًا وهو ينظر إلى السماء بلونها المتدرّج بين الأزرق والذهبي، وأشعة الشمس تنعكس على زجاج النوافذ، ترسم على الأرض ظلالًا مكسورة كأنها خطوط من رواية لم تكتمل.

سارت المجموعة عبر الممرات ثم خرجوا إلى باحة المدرسة، ومنها إلى الطريق الملتف نحو الساحة العامة. الجوّ يحمل نسمات دافئة، رائحة أشجار الصنوبر امتزجت بنكهة المدينة، وصوت المارّة امتزج بصوت ضحكاتهم.

كان هناك شيء مريح في المشي معًا... كأن العالم رغم فوضاه، يمكنه أن يُمنح لحظة سلام صغيرة، على هيئة صداقة.

امتدّت الأرصفة أمامهم كأنّها شريط طويل من الذكريات المقبلة، تتداخل فيه خطواتهم مع وقع الحياة اليومية في المدينة. المباني تتمايل في زوايا الرؤية، متباينة بين الحديث والبالي، وتنبعث منها أصوات الحياة: ضحكٌ من مقهى صغير، صياح بائعٍ يعرض فاكهة الموسم، ورائحة خبزٍ طازج تنبعث من مخبز في الزاوية.

الشارع مبلطٌ بعناية، لكنه لا يخلو من الشقوق التي يمر فوقها الزمن دون إصلاح، وكأن المدينة تشيخ بهدوء. الأشجار على الجوانب تلوّح بأوراقها النصف صفراء في وداع خجول للخريف، والهواء يحمل شيئًا بين البرودة والحنان.

بين الضحكات المتناثرة، مال جيروم بجسده نحو آدم قليلًا وهم يمشون خلف البقيّة، صوته خافت، كأنّه يوشك أن يبوح بسرّ خطير:

"آدم... كن صريحًا، ألا ترى أن أنجي قد تكون خيارًا... أفضل؟"

رفع آدم حاجبه دون أن يلتفت إليه، وكأنه ينتظر المزيد.

"أقصد، أمبر جميلة، نعم... لكن فيها شيء متحفّظ، جامد، كأنها دائماً ترتدي قفازات عقلها. بينما أنجي؟ أنجي عفوية، ذكية، قوية، وجميلة بشكل يخيف أحيانًا.
وبالمناسبة، هي مهتمة بك، سواء أقرت أم لا."

آدم ابتسم بهدوء، لكن لم يقل شيئًا في البداية. خطواته كانت موزونة، وعيناه تتفحّصان الطريق أمامه. ثم تمتم ساخرًا:

"وأنت من متى أصبحت مستشار قلبي يا جيروم؟"

ضحك جيروم: "منذ رأيتك تحدّق فيها أكثر مما تحدّق في دفتر الرياضيات."

آدم هزّ رأسه وتنهّد: "أنجي... معقدة. وأنا؟ لا أريد أن أدخل في دوّامة جديدة، ما زلت أحاول فهم ما أريده أصلاً."

"أوه، تفكير فلسفي. ممتاز! يعني أنك بالفعل تميل لها." أشار له جيروم وهو يغمز، "أنا فقط أقدّم لك دفعة خفيفة باتجاه الملاك الحارس."

في هذه الأثناء، كان جوزيف يضحك بصوت خافت على هاتفه، يكتب رسائل في دردشة خاصة، يرفع عينه أحيانًا ليعلّق على شيء تقوله لونا أو أمبر، ثم يعود للكتابة.

أما الفتيات، فقد كنّ يتحدثن معًا بنوع من الانسجام اللطيف: لونا تتكلّم عن قطعة مجوهرات رأتها في متجر قريب، أمبر تحلل مقالًا قرأته عن السلوك الجماعي، وميرا تنصت بتعبير مأخوذ، تبتسم أحيانًا وتومئ، وكأنها تستمتع بمجرد وجودها معهن.

كان الطريق يفتح ذراعيه لهم، في اتساع هادئ لا يُرهب، بل يرحب. ومع كل خطوة يخطونها، كان هناك شعور طفيف بالتغيير... كأن شيئًا في أعماقهم يتحوّل، دون أن يلاحظوا تمامًا.

بينما كانوا يتجولون وسط المدينة، تحت شمس بعد الظهر الخافتة، لفت انتباه آدم مبنى عتيق الطراز محشور بين واجهتين عصريتين. بدا كأنه نسي نفسه في زمن مختلف، يرفض أن يغادر الماضي. جدرانه كانت من حجر رمادي تآكله الوقت، وأطراف النوافذ الخشبية متآكلة، بينما تدلّت على الباب لافتة مكتوب عليها بخط يدوي أنيق: "أشياء من زمنٍ آخر."

اقتربوا جميعًا بفضول، وعلّق جيروم وهو يمطّ عنقه:

"هل هذا محل تحف أم بوابة إلى مملكة نارنيا؟"

ضحكت ميرا، فيما قالت أمبر بنبرة مشككة:

"لنرَ... ربما نجد شيئًا مثيرًا."

فتحوا الباب الذي صرّ كأنّه يشكو من الوحدة، ولفحهم عبير غبار قديم، ممزوج بعطر الخزامى اليابس.

كان المكان غارقًا في سكون شبه مقدّس. رفوف من الخشب الداكن تحمل صناديق موسيقى، مرايا مذهبة، شمعدانات، كتب بجلد متشقق، وساعات حائط تكاد تتهامس فيما بينها. الضوء الداخل عبر النوافذ العليا بدا كأنه غبار متحرك، يطفو على صمت القرون.

في وسط المكان، خلف منضدة عريضة، وقفت امرأة مسنّة، جسدها الهزيل مغطى بشال بنفسجي، شعرها الفضي مجدول على هيئة كعكة ضيقة. كان وجهها مليئًا بالتجاعيد التي بدت كخرائط لعمر طويل، لكن عينيها... كانتا حيتين، بلون الشاي الثقيل، تقرآن فيهم كما لو كانت تعرفهم من قبل.

همست بصوت رخيم:

"لا أحد يعثر على هذا المكان مصادفة."

قبل أن يجيب أحد، دوّى فجأة صوت ارتطام. سقطت العجوز أرضًا فجأة، وصرخت بخفوت مذعور:

"النجدة...!"

لمح آدم ظلًا يندفع نحو الباب، شابًا بسترة سوداء وقبعة تغطي نصف وجهه، يضغط شيئًا صغيرًا بين يده.

بلا تفكير، انطلق آدم خلفه، يتبعه جوزيف وهو يصرخ:

"آدم! بحق السماء! هل تركض خلف اللصوص في أوقات فراغك؟!"

الشارع كان ضيقًا، والأزقة ملتوية. السارق يركض بجنون، يتخطى عربة خضار، يكاد يسقط فوق قطة شاردة.

آدم ركّز، تجاوز سلال نفايات، وفي لحظة قفز فوق لوح خشبي واستطاع الإمساك بطرف سترته.

صرخ اللص وبدأ يتخبط، لكن جوزيف أتى من الخلف ووجّه له لكمة خاطفة في خاصرته.

قال وهو يلهث:

"من أجل العجائز... ومن أجل أنفي الذي سأكسر لو وقعت الآن!"

طرحه آدم أرضًا، وانتزع من يده صندوقًا صغيرًا مخمليًا. كان يتنفس بعنف، ووجهه متورد من الجهد، لكنه قال بابتسامة:

"لقد انتهى الأمر."

عادا إلى المتجر، حيث كانت أمبر ولونا وميرا يحيطن بالعجوز التي جلست على كرسي، وبيدها كوب شاي دافئ. أنجي وقفت بصمت قرب الباب، تحدّق في الخارج كما لو تبحث عن شيء.

قالت العجوز بهدوء وهي تنظر للصندوق:

"شكراً لكم... هذا الإرث كان لأمي. ليس بثمنه، بل بما يحمله من ذاكرة."

فتحته ببطء، وكان بداخله ساعة جيب قديمة، محفور عليها نقش غامض بلغة بدت قديمة.

قالت ميرا وهي تنحني لتنظر عن قرب:

"ما هذه الرموز؟"

ردّت العجوز وعينيها مغرورقتان:

"لغة لا يتحدثها سوى من ينسون أنفسهم في الزمن."

سألها جيروم وهو يمسح جبينه:

"سيدة، هل كنتِ تتوقعين هذا؟"

ضحكت بهدوء وقالت:

"إنه زمن الفوضى... ومع ذلك، ما زال هناك من يتذكّر أن يكون شجاعًا."

همس جوزيف لآدم وهو يلكزه في كتفه:

"أعلم أنك تستمتع بكونك بطل رواية... لكن، ألا توافقني أن هذا المكان يشبه بداية لعنة؟"

ضحك آدم وقال:

"أو ربما بداية حكاية."

كان الضوء يتسلّل عبر الزجاج، وداخل المتجر بدا وكأن الزمن قد عاد إلى صمته القديم، بينما بقي أثر اللحظة محفورًا في ذاكرة الجميع، كندبة صغيرة على حافة يوم عادي.

قبل أن يغادروا، وقفت العجوز أمام باب المتجر، وراحت تفتّش في صندوق خشبي صغير مرصّع بمسامير نحاسية باهتة. بدا الصندوق كأنه ينتمي لعصر لا يُعرف له اسم. فتحت الغطاء بحذر، وكأنها تفتح عهدًا قديمًا.

قالت بصوت متزن:

"ما فعلتموه اليوم ليس أمرًا يمرّ بلا أثر... وهذه ليست سوى عربون شكر، لكنها تختار أصحابها..."

جوزيف كان أول من تلقّى قلادته. كانت شعلة زرقاء سماوية متوهّجة، محاطة بهالة بيضاء شفافة كالجليد النقي. امتزج فيها الصفاء بالبرودة، وكأنها تنتمي إلى سماء لا تطفئها العواصف.

قالت العجوز وهي تضعها بين يديه:

"روحك تحمل ضوءًا ساخرًا لا ينطفئ... حتى في الظلام، تضحك النجوم."

تأمّلها جوزيف وهو يقول بنبرة خفيفة، لكن عينه لا تخفي الانبهار:

"لو كنت ألعب لعبة RPG، لاخترت هذه فورًا."

ثم ناولت جيروم قلادة أخرى: شعلة بلون بني داكن تلتفّ حولها أوردة خضراء حيّة كجذور متسللة. كانت تشبه لهبًا يخرج من أرض رطبة، حية، مليئة بالصخب والدفء.

قالت له:

"قلبك عنيد كالجذور، صاخب كالنار، لكن فيه حياة تُربك القوانين."

ضحك جيروم وربت على صدره قائلاً:

"كنت أعلم أن هناك شعلة تحترق بداخلي... والآن صارت معلّقة على عنقي!"

ميرا كانت التالية، فتلقت قلادة تتوهج بلون أخضر زاهٍ، يشبه أوراق شجرة شابة مبلّلة بندى صباحي. خافت الضوء لكنها نضرة، تحوي رقّة لا تخلو من ثبات.

قالت العجوز بابتسامة:

"الحنان قوة، والهدوء موجة تغمر من حولها دون أن تُغرقهم."

ميرا ابتسمت بلطف واحتضنت القلادة كما لو كانت زهرةً تنتظر أن تنمو على صدرها.

أما لونا، فتلقت قلادة شعلة بلون أبيض نقي، لا ظلال فيه ولا عتمة. كأنها ضوء القمر حين ينعكس على بحر ساكن.

قالت العجوز وهي تضعها حول عنقها:

"أنتِ مرآة صافية... قد لا ترى ذاتها، لكنها تُظهر الآخرين على حقيقتهم."

همست لونا، كمن فهم شيئًا لم يُقال:

"كأنها تضيء شيئًا بداخلي."

ثم تقدّمت أمبر، نظرتها متوترة قليلاً لكنها تخفيها بابتسامة مصطنعة. العجوز ناولتها شعلة متقدة، بلون برتقالي ملتهب في أطرافه حمرة كثيفة. بدت كوهج شمسٍ عند الغروب، عنيدة، دافئة، ومرعبة إن اقتربت كثيرًا.

قالت لها:

"قلبك ناري... يشتعل رغبة، لكنه يخفي رمادًا لم يُطفأ بعد."

أمبر لم تُعلّق، فقط أغلقت يدها حول القلادة بإحكام، ونظرت لبعيد.

وأخيرًا... وقفت أمام آدم.

أخرجت قلادة مختلفة. شعلة مائلة للسواد، تنبعث منها أطياف دمويّة كأنها حمراء قانية سالت لتطفئ النار فلم تنجح... بل خلقت لهبًا حيًّا، مظلمًا، مثيرًا للرعب. حدّق الجميع فيها بصمت. لهبها لا يصدر ضوءًا... بل ظلّاً.

قالت العجوز وهي تضعها بين يديه دون أن تلمسه:

"أنت تسير بين نقيضين... تحمل فيك موتًا لم يحدث، ونارًا لا تعرف أين تشتعل. قد تكون حارقًا، أو منقذًا... تلك الشعلة لا تنتمي إلا لمن فقد شيئًا لم يُعرف بعد."

آدم لم يقل شيئًا... فقط أدار القلادة في يده، وشعر بوخزٍ بارد يمر عبر راحته.

ابتسم بخفة وقال لجيروم:

"تشعر كأنها تنظر إليك... لا أعرف إن كان ذلك جيدًا أو لا."

جيروم تمتم:

"أكيد خيار رومنسي ممتاز... دماء ونار؟ لو كانت قلادتي، لا اقترب أحد مني بعد الآن."

ضحكت ميرا بخفة، بينما راقبت أنجي من الخلف بصمت... لم تُعطَ قلادة، ولم تسأل. لكن عينيها بقيتا تحدّقان بشعلة آدم، كأنها تعرفها من قبل.

العجوز، وقد بدت أكثر هدوءًا، أشارت نحو الباب:

"حافظوا عليها... ليست مجرّد زينة."

خرجوا بعدها إلى الشارع، والشمس بدأت تميل إلى المغيب، والشعلة في يد كلٍّ منهم بدت وكأنها توقظ شيئًا صغيرًا... غامضًا... في أعماقهم

كان الغروب يسدل ستائره الأخيرة على المدينة، كأن الشمس تحتضر ببطء خلف الأفق، مخلفةً وراءها لوحات متوهجة من الدم القاني والذهب المصهور. السماء مزيج من البرتقالي المائل للنار، والبنفسجي العميق الذي يتدرّج إلى كحلي داكن، وكأن الكون ينزلق تدريجياً إلى حلم آخر.

أضواء الشارع بدأت تتوهّج خافتة، مثل نُجوم خجولة تتسلل من ثقب الزمن، بينما لامست نسائم الغروب الوجوه بلطفٍ خفيفٍ، يحمل في طيّاته شيئًا من الحنين وشيئًا من القلق المجهول.

كان الأصدقاء يسيرون ببطء، ضوء الغروب ينعكس في عيونهم ويطبع على وجوههم مسحةً دافئة من النور والسكينة. الضحكات خفتت، والحوار بدأ يبهت، حتى توقّف عند أول مفترق طرق.

ميرا كانت تنظر إلى الغيوم كأنها تحاول قراءتها، لونا تعبث بحقيبتها بصمت، جوزيف يربّت على كتف جيروم، وأمبر تتفقد قلادتها بعينين قلقتين.

ثم جاء الوداع. بسيطًا، ناعمًا، لكنّه يحمل ما لا يُقال. عناقٌ قصير، نظرات طويلة، وكلمات صغيرة تتساقط مثل أوراق شجرة في الخريف.

أمّا آدم، فقد بقي وحده للحظة.

نظر إلى القلادة في يده... سوداء تتخللها شعلة حمراء قانية، تشبه الجمر المحتبس، وكأنها قطعة من ليلٍ دامٍ لا ينطفئ. كان بريقها خافتًا لكنّه نابض، كأنها تنبض بقلبٍ لا يُرى.

أحس بشيء غريب فيها... شيء لا يُفسّر. ليس خوفًا... بل إدراكًا باطنيًا بأنها ليست مجرّد هدية. كانت كأنها تختبره، تختزن شيئًا ما، رسالة أو مصير.

رفع عينيه إلى السماء. النجوم بدأت تتناثر، لكن الغروب لم يَمُت تمامًا بعد. ظلال الأصدقاء ما زالت عالقة في ذهنه، وصدى خطواتهم يتردد على الرصيف خلفه.

تنهد، وأكمل طريقه نحو المنزل.

وما إن فتح باب المنزل حتى استقبله دفء مألوف، لكنّ شيئًا ما في الجو كان متوتّرًا.

أصوات خافتة من غرفة المعيشة، خطوات مشدودة، وكأنّ المكان ينتظر شيئًا.

دخل بهدوء، ووجد ألكسندر واقفًا عند النافذة، يحدّق في الأفق كأنه يفتّش عن شبح قديم.

التفت ألكسندر ببطء، وعلى وجهه مسحة من القلق والتعب. كان يبدو شاحبًا قليلًا، لكن نظرته سرعان ما تغيّرت حين رأى القلادة تتدلّى من يد آدم.

ارتسم الذهول على وجهه، كأنّ الزمن توقف. عيناه البنيتان توسعتا، كأنهما رأتا شبحًا عاد من زمن غابر.

تقدّم بخطوتين سريعتين:

– "من أين... من أين حصلت على هذه؟"

أجابه آدم بنبرة عادية، غير مدرك لما تثيره القلادة من صدمة:

– "أهدتني إياها امرأة عجوز... بعد ما أنقذناها من لص. قالت إنها عربون شكر."

صمت ألكسندر طويلًا، ثم أطلق زفيرًا ثقيلًا، كأن جبلًا انزلق عن صدره... أو تهيأ للسقوط عليه. وضع يده على كتف آدم ونظر في عينيه:

– "إسمعني جيدًا، آدم... لا تخلع هذه القلادة أبدًا. أبدًا. وإن حدث شيء غريب... فقط تمسّك بها. هذا كل ما أطلبه منك."

نظر إليه آدم بدهشة طفيفة، لكنّه شعر بأن الوقت ليس مناسبًا للسؤال، فاكتفى بالإيماء.

ومع تلاشي ضوء الشمس الأخير خلف الجبال، بقيت شعلة القلادة تخبو وتنبض، كأنها تنذر بأن الليل هذه المرة... لن يكون عاديًا.

العالم الأول - الفصل الخامس عشر: صحوة المؤلفة

كان الليل قد تمدّد فوق المدينة كحبرٍ أُريق على صفحةٍ بيضاء، تتخلّله خيوط مطر خفيف بدأت تتهادى على النوافذ، تطرق الزجاج كأنها أنامل خفية تطلب الدخول. في العُليّة حيث غرفة آدم، كان الدفء يتصارع مع نسمات الهواء الباردة التي تنسل من زوايا النافذة المغلقة بإحكام، وبين الكتب المتراكمة والأوراق المتناثرة، كان آدم يجلس على مكتبه، مُتكوّرًا على مشروع اللغة الإنجليزية الذي كُلّف به، موعد تسليمه صباح الغد.

قُدّامه كوب قهوة كبير، بخاره يتصاعد ببطء، يرقص مع أنوار المصباح الأصفر الوحيد في الغرفة. الموسيقى كانت تعلو من سماعاته الصغيرة، صوت ناعم قديم يملأ المكان بنوعٍ من الحنين، وكأنه يُقاوم مع آدم الرغبة في النوم.

رنّ هاتفه فجأة، ارتجف على الطاولة بعناد. فتحه بتكاسل، لتقفز أمامه رسائل صوتية من جوزيف، مُحمّلة باللهاث والتوسل:

.«آدم! حبيبي، ملاكي، إنقذني! المشروع غول وسيلتهمني!»

ثم لحقت بها رسالة من جيروم:

.«أقسم أني كتبت السطر الأول ثلاث مرات وانتهيت بكتابة اعتراف لرجل مجهول... ساعدني قبل أن أُرسلها بالفعل.»

ابتسم آدم وهو يهزّ رأسه بيأس، وقبل أن يُقرّر تجاهلهما، وصلت رسالة ثالثة... من أمبر.

كانت كلماتها أكثر رقة لكنها مشبعة بالخداع اللطيف:

.«آدم، أعلم أنك الأذكى بيننا، هل لك أن تُنير لي طريقي؟»

وتبعها وجه مبتسم وقلوب، كأنها تحاول رشوة طريقها نحو مساعدته.

تنهد ببطء، رفع كوب القهوة وارتشف منه دفعة طويلة، ثم رفع عينيه إلى سقف الغرفة قائلاً:

.«اللهم سلّمني من عبيدك الكسالى...»

وبنقرة أخيرة على الحاسوب، سلّم أمره للقدر، وبدأ العمل على ثلاثة مشاريع بدلًا من واحد.

في زاوية عنقه، كانت القلادة لا تزال معلقة، تتدلّى من خيطها الجلدي الأسود، شعلة صغيرة من حديد داكن ونحاس دموي تلمع بخفوتٍ مريب، وكأنها تراقب كل ما يجري. رغم سكونها، بدا أن لها وزناً أكبر من حجمها، كأنها تحمل سرًّا لم يُقال بعد. أحيانًا، شعر آدم أنها تنبض بحرارة خافتة، لكنها لم تكن سوى خيالات دماغٍ متعب.

استمر المطر في العزف على إيقاعه الحزين، وضوء البرق بعيدًا في الأفق زاد الغرفة زرقة باردة للحظة، ثم تلاشت في العتمة مجددًا. الوقت يمضي، وسهرته امتدت،

كلماته تتدفق ببطء على الشاشة، بينما تنساب الأغاني من خلفه لتملأ الفجوات بين تفكيره المتشعب... وفي كل لحظة، كانت القلادة هناك، ساكنة... لكنها ليست صامتة.

صبيحة اليوم التالي

كان الفجر ينسلّ بخجل من خلف ستائر الليل، يزاحم العتمة بنوره الفضي الباهت. السماء لا تزال رمادية، مثقلة ببقايا السُحب التي أمضت الليل تبكي، لكن المطر بدأ يخفت شيئًا فشيئًا، تاركًا خلفه قطراتٍ متلألئة على زجاج النوافذ، وأرصفة تلمع تحت النور الوليد.

آدم فتح عينيه على هدوءٍ مائل للسكون. لم يكن قد نام سوى ساعاتٍ معدودة، ومع ذلك كان هناك صفاء نادر في عقله. النعاس لا يزال يُقبض على أطراف جسده، لكنه تحرّك بخفّة، كمن خاض معركة ليلية وربحها، ولو بالكاد. جلس على حافة السرير، القلادة لا تزال معلقة على عنقه، باردة لكنها مألوفة الآن، كأنها جزء من جلده.

دخل الحمام سريعًا، اغتسل، ثم وقف أمام مرآته يُجفّف شعره ووجهه، وابتسامة بسيطة ترتسم على وجهه وهو يقول لنفسه:

.«إن نجوت من هذا اليوم، سأُطالب بوسام شرف.»

توجّه إلى مكتبه حيث الأوراق مكدّسة، والمشروع جاهز على الشاشة. بضغطة زر بدأ في الطباعة، وصوت الآلة يملأ الغرفة كأنها تُغني له نهاية المهمة. جلس يُرتب

الصفحات وهو يشمّ رائحة الورق الدافئ، نظراته تعلّقت للحظة بالقلادة... للمرة الأولى بدت هادئة تمامًا، بلا ذاك الوهج الخافت الذي شعر به في الليلة الماضية.

نزل إلى المطبخ، حيث كان ألكسندر جالسًا يرتشف قهوته، وقد ارتدى معطفًا رماديًا أنيقًا. شعره الأسود مسرّح بعناية، وعيناه البنيتان تراقبان شاشة هاتفه بهدوء.

.«صباح الخير، أيها النائم في زمن الحرب.» قال ألكسندر بسخرية خفيفة.

ضحك آدم وهو يجلس إلى الطاولة:

.«إن كنتُ في حرب، فأنت تاجر أسلحة في إجازة.»

تناولا الإفطار معًا، شاي ساخن، خبز محمص، وقطعة من الكعك الذي أعدّه ألكسندر الليلة الماضية، رغم أنه لم يعترف بذلك.

بعد دقائق، تناول ألكسندر حقيبته الجلدية، ثم عاد إلى الطاولة وقد حمل كتابًا صغير الحجم، بغطاء أسود أنيق عنوانه بخط يدوي: "همساتٌ بين السطور".

وضعه أمام آدم بلطف وقال:

.«هذه نسخة أولى من رواية ميرا. أعطها لها من فضلك، وأخبرها أنني جهّزت عقد النشر كما اتفقنا، دفعت المطلوب للمطبعة ودار التوزيع، ما بقي هو توقيعها فقط.»

تأمّل آدم الكتاب لحظة، لم يكن يُخفي إعجابه، ثم رفع عينيه إليه:

.«ألن تبقى لليوم؟»

.«عندي رحلة عمل قصيرة، أعود الليلة. لا تُحدث مشاكل في غيابي، وأبقِ هذه...»
أشار إلى القلادة، «...قريبة منك.»

أومأ آدم مبتسمًا، ثم وضع الكتاب في حقيبته بجانب المشروع، ونظر إلى الساعة.

الشمس بدأت تشق طريقها عبر الغيوم، بلونٍ ذهبي خافت يغسل الأرصفة والمباني بنور ناعم.

هدأت السماء، كما لو أنها أخذت نفسًا طويلًا بعد ليلة بكاء طويلة... وكانت المدينة تستعد ليومٍ جديد.

داخل الفصل، كانت الأجواء تمتزج بين الحماس والتوتر. بعض الطلّاب يقلبون أوراق مشاريعهم للمرة الخامسة، وآخرون يتصنّعون الثقة بينما هم في قلقٍ دفين. الشمس قد بدأت تتسلّل من خلف النوافذ، تنثر ضوءها على الطاولات، بينما نسيمٌ بارد لا يزال يتسلّل من فجوات الزجاج، يُنعش العقول المُتعبة من السهر.

آدم خطا بخطواتٍ هادئة إلى الداخل، يمرّ بجانب المقاعد بخفة، يُبادل البعض ابتساماتٍ مقتضبة، إلى أن توقّف عند أمبر، التي كانت تجلس بتأنقها المعتاد، نظاراتها الرفيعة تلمع تحت الضوء، وعيناها تتبعانه منذ لحظة دخوله.

مدّ نحوها الملف بابتسامة خفيفة:

.«كما وعدتُكِ... نسخة كاملة، دون أيّة أخطاء مطبعية. حتى أنني صحّحت خطأك الشهير في كتابة كلمة responsibility.»

نظرت أمبر إلى الملف وكأنها لا تصدّق، ثم رفعت رأسها إليه بابتسامة امتنانٍ خجولة، وملامحها تتوهّج بلطافة ناعمة، كأن شيئًا دافئًا قد لامس قلبها.

قالت بصوت خافت:

.«آدم... أنت حقًا الأفضل. لا أعرف كيف كنتُ سأنجو دونك.»

هزّ كتفيه ببساطة:

.«فقط لا تنسي ذكر اسمي بخط واضح في قسم الشكر والتقدير.»

ضحكت بخفة، بينما كان يهمّ بالابتعاد... لكن عيناه وقعتا فجأة على أنجي، الجالسة في الزاوية الهادئة، رأسها منخفض، تعبث بأطراف الورقة أمامها كأنها تهرب من شيءٍ ما.

اقترب منها بخطوات بطيئة، ووقف إلى جانبها قائلاً بهدوء:

.«أنجي... كل شيء تمام؟»

رفعت نظرها إليه... عيناها الرماديتان بدتا باهتتين أكثر من المعتاد، وجفناها ثقيلان وكأن النوم قد هجرها أيامًا.

همست بإحراج:

.«لم... لم أستطع إنهاء المشروع. لم أبدأه حتى.»

أرادت أن تُكمل شرحها أو تعتذر، لكن آدم اكتفى بنظرة عميقة، ثم غمز لها بخفة، وأخرج من حقيبته ملفًا صغيرًا آخر، بنفس ترتيب النسخة الأصلية، ومكتوب عليه بخط دقيق: "أنجي."

ناولها إياه قائلاً:

.«كنت أعلم.»

توسعت عيناها في صدمة مذهولة، وقبل أن تنبس بكلمة، تابع:

.«جهزتها خصيصًا لك، مع بعض التعديلات كي لا تكتشفي المعلمة التطابق التام. لا شكر على واجب، أليس هذا ما يفعله الأصدقاء؟»

لكن أنجي لم تستطع الإجابة فورًا... وقلبها، قلبها كان يصرخ داخليًا وكأنه يُنادي باسمه ألف مرّة في الثانية. الدم تسرّب إلى خديها ببطء ثم انفجر دفعة واحدة، وهالتها لم

تعد سوى لونٍ ورديّ ينبض. تلك المشاعر التي اعتادت أن تُخفيها تحت أقنعة الهدوء، تهاوت كلها في لحظة واحدة.

حدّقت في وجهه بانبهارٍ حقيقي، ثم قالت بصوت مرتجف وعينين تتلألأ:

.«آدم... أنت لا تتخيل كم يعني لي هذا. لا أحد يفعل لي شيئًا بهذه العفوية واللطف... أنت... أنت ملاكي.»

ولم تمنحه فرصة الرد، فقد مالت بسرعة وطبعَت قبلة خفيفة على خده، ناعمة، سريعة... لكنها كانت كالصاعقة على قلبه. قال شيء في داخله: "ها قد تغيّر شيء ما".

تراجعت أنجي ببطء، مبتسمة بخجل شديد، وكأنها فعلت أكثر فعل جريء في حياتها، ثم أضافت بصوت هامس:

.«هذا... أقل ما يمكنني تقديمه لك، يا ملاكي الشخصي.»

أما آدم، فبقي واقفًا للحظات، يرمش بدهشة خفيفة، وقلبه يدقّ هو الآخر... ليس فقط من المفاجأة، بل من تلك النظرة التي سكنت عينيها، وكأنها كانت تقول له ما عجزت الكلمات عن قوله منذ زمن.

في ساحة المدرسة الخلفية، حيث تتناثر أوراق الخريف المبتلة على الأرض، والهواء لا يزال مشبعًا برائحة المطر المنعشة، تقدّم آدم بخطوات واثقة نحو المقعد الخشبي

حيث كانت ميرا جالسة، تكتب شيئًا ما في دفترها الصغير، وعيناها الخضراوان تائهتان في الأفق كعادتهما حين تغرق في عالمها الداخلي.

اقترب منها بهدوء، ثم جلس بجانبها دون أن ينبس بكلمة. لاحظت وجوده، فابتسمت ابتسامة خفيفة وقالت:

.«أوه، آدم... لم أرك قادمًا، أظنك صرت تملك قدرة على التخفي.»

أخرج من حقيبته كتيبًا أنيقًا، مطبوعًا على ورق ناصع، غلافه البسيط يحمل اسمها بخطٍّ دقيق محفور على القلب قبل الورق.

مدّه نحوها قائلاً:

.«قد لا أملك قدرة على التخفي... لكن أملك مفاجأة.»

نظرت ميرا إلى الغلاف، للحظة ظنّت أنها تتوهّم. فتحت عينيها جيدًا، وضغطت بيديها المرتجفتين على الكتيب... كانت تلك روايتها. روايتها التي سهرت لأجلها الليالي، كتبتها بأطراف أصابع ترتجف فوق لوحة المفاتيح، وسكبت فيها كل خيالها وألمها وضحكها وبكاءها.

.«آدم... ما هذا؟» همست وهي تحدّق في اسمها المطبوع كأنها تراه لأول مرة.

ابتسم وقال:

.«نسخة مطبوعة أولى من روايتك. ألكسندر هو من طبّعها بنفسه، وأرسلني لأعطيك إيّاها... وطلب مني إخبارك أن العقد جاهز، ودُفع ما يلزم. فقط يلزم توقيعك... والبداية تنتظرك.»

لم تستطع ميرا النطق. انفجرت داخلها دوّامة من المشاعر. وضعت يدها على فمها، وارتجف كتفاها بلحظة صامتة. لم تكن تبكي، بل شيء أعمق من البكاء... فرحٌ خالص ونادر، يلامس الروح مباشرة دون أن يحتاج لدموع.

نظرت إليه ووجهها يلمع تحت ضوء الشمس المتسلل:

.«أنت... لا... أنت تمزح، صح؟ هذا حلم؟»

هز رأسه:

.«لو كان حلمًا، فلا توقظيني أنا أيضًا.»

ضحكت، وأغمضت عينيها بقوة، ثم عانقته فجأة، بتلقائية نادرة. كان عناقًا دافئًا، يشبه احتضان فصول كاملة من الأحلام التي كانت تخفيها في دفترها الصغير.

.«شكرًا، آدم... لا أظن أن كلمة "شكرًا" تكفي.»

ابتعدت عنه قليلاً، ووضعت الرواية على حجرها كأنها تحضن طفلًا صغيرًا.

.«أخيرًا... حلمي يلمس الواقع. هل تدرك ماذا يعني هذا لي؟»

قال بابتسامة خفيفة:

.«يعني أن عيون الناس ستقرأك، وأنكِ لستِ فقط الكاتبة الحالمة التي نعرفها، بل المؤلّفة التي ستجعل الحلم معديًا.»

نظرت إليه مطولًا، ثم نظرت إلى الرواية مرة أخرى، ولم تقل شيئًا... فقد كان قلبها يقول كل شيء.

اجتمع الأصدقاء في ساحة المدرسة مع اقتراب نهاية اليوم الدراسي. أجواء خفيفة، ضحكات متناثرة، وحماس يملأ العيون. اقترح آدم بنبرة مشاكسة:

.«ماذا لو أقمنا حفلة الليلة؟ نحتفل بإطلاق رواية ميرا... منزلي فارغ وألكسندر مسافر.»

جوزيف صرخ كمن فاز بالجائزة الكبرى:

.«أخيرًا حفلة بدون رقيب!»

لونا ضحكت بخفة:

.«هذا إن لم تتسببوا في كارثة جديدة كالعادة.»

ستيف قال وهو يغمز:

.«أنا مستعد، فقط أعطني الضوء الأخضر.»

وهنا قال جيروم وهو يمطّ شفتيه:

.«أوه... بيت آدم؟ مجددًا؟»

ثم نظر إلى ستيف ورفاقه:

.«هل تعرفون ما حدث آخر مرة زرناه فيها؟»

ألكس رفع حاجبه بفضول:

.«لا، ماذا؟»

جيروم اتخذ وضعية المعلّم الذي على وشك سرد حكاية ملحمية:

.«كانت أمسية هادئة... حتى قرر السيد ألكسندر اختبار آدم في ما يسميه بـ"اختبار القدرة". معركة؟ لا، لا تسميها كذلك. إنها كانت... ملحمة.»

ستيفن نظر إلى آدم مصدوماً:

.«معركة؟ بينك وبين ألكسندر؟»

آدم ابتسم ابتسامة نصفها فخر ونصفها خجل، ولم يقل شيئًا.

جيروم تابع، وهو يشير بيده كأنّه يرسم ما حدث:

.«لقد تحركا مثل مقاتلين من أسطورة قديمة، كل خطوة محسوبة، كل ضربة مليئة بالقوة. الصالة تحوّلت إلى حلبة، وكل شيء كان يطير. آدم؟ لقد قاتل بشراسة... أذهلنا جميعًا. والنتيجة؟»

سكت لحظة ثم ابتسم وأشار لآدم:

.«لقد أطاح بألكسندر نفسه. نعم، آدم فاز.»

ستيف قال باندهاش:

.«آدم؟ أنت؟ ضد ألكسندر؟»

جوزيف تدخّل، وهو يربت على كتف آدم:

.«ومن يومها، صارت الضمادة على وجهه نوع من التذكار... رغم أنه تخلّى عنها لاحقًا بعد أن شُفي تمامًا.»

ستيفن قال وهو يضحك:

.«هذا يعني أننا في حفلة بطل المعركة... علينا أن نتصرف باحترام إذاً!»

جيروم قال بسخرية:

.«احترام؟ مع آدم؟ لا، نحن سنجعله يغني على الطاولة الليلة.»

ضحك الجميع، بينما أشار آدم لهم وهو يضحك:

.«طالما لا أحد يطلب منّي إعادة القتال... أنا موافق.»

ستيف تمتم:

.«أحتاج لرؤية تسجيل هذا القتال يوماً ما...»

جيروم قال بنبرة درامية:

.«لا يوجد تسجيل... فقط في ذاكرة من شهدوه. وهذا يكفي.»

العالم الأول - الفصل السادس عشر: الحفلة

كانت الشمس تميل قليلًا نحو الغرب، وعطر العصر قد بدأ يتسلّل بخفة عبر نوافذ المدينة. الجو عليل، ورائحة الأرض المبلّلة ببقايا المطر لا تزال تلوّح في الهواء، ممتزجة بنسيم خفيف يرقص بين الأشجار ويضرب وجوه العابرين بلطف.

أنهى آدم يومه الدراسي باكرًا خلافًا للعادة، وكانت خطاه أسرع من المعتاد، كأن شيئًا داخله يتوق للهدوء قبل العاصفة. ما إن وصل إلى المنزل حتى خلع سترته وألقى بها على الأريكة، وبدأ بجمع الأغراض المتناثرة هنا وهناك... وسائد أعاد ترتيبها، زجاجات فارغة من الليلة الماضية وجدها في الزاوية، تنظيف سريع للحمام، ولمسة من معطر الجو برائحة اللافندر.

البيت بدا أكثر اتساعًا الآن بعد مغادرة ألكسندر... وكأن جدرانه تتنفس بحرية.

خرج بعدها متجهًا إلى السوق لشراء بعض الضروريات... مشروبات، رقائق، وعلب بلاستيكية تُغني عن كسر أي شيء مهم.

في أحد الأزقة القريبة، التقى بجوزيف بالصدفة.

.«أوه، آدم؟! خلصت بدري؟»

آدم ابتسم وهو يرفع كيسًا بيده:

«حفلة دون مشروب؟ مستحيل.».

جوزيف ضحك بخفة وسار معه:

«دعني أساعدك... لا أريد أن يُقال إنني لا أشارك في الأعمال الخيرية.».

وصلا معًا إلى المنزل، ليُفاجآ بشخص يجلس على الدرج المؤدي إلى المدخل، يتأرجح بصبرٍ نافد، حقيبة صغيرة إلى جانبه، وقدمه تضرب الأرض بإيقاع متكرر.

جيروم.

«وأخيرًا! توقعت أنكما تهربتما إلى المريخ.».

فتح الباب بخفة، ودخل ثلاثتهم معًا. لم يكد يضع جوزيف أكياسه، حتى فتح جيروم حقيبته، أخرج منها علبة معدنية فضية، سحب منها سيجارة ووضعها بين شفتيه.

«أحتاج هذا قبل أن أغوص وسط هذا الجنون...».

أشعلها وأخذ نفسًا عميقًا، جعله يغمض عينيه برهة، كأنه يحاول العودة إلى مكان لا يستطيع الوصول إليه إلا عبر الدخان. هواء الشقة بدأ يتغيّر، دخان خفيف بدأ يتصاعد كأنّه رماد أفكار دفينة تحترق داخله.

كان جيروم دائمًا يعتقد أن التدخين لا يمنحه سوى لحظة واحدة من الهدوء... لحظة كاذبة، ربما، لكنها ثمينة بما فيه الكفاية لتستحق تلك السحبة الأولى.

في تلك اللحظة، يشعر كأن العالم يتوقف مؤقتًا... كأن الضوضاء تتلاشى، وكأن كل ما يثقل قلبه يذوب في الهواء الرمادي.

كان يرى في السيجارة شيئًا أشبه بـ"رفيق مؤقت"، لا يتكلم ولا يسأل، لكنه حاضر دائمًا حين يحتاجه.

هو لم يكن يبحث عن لذة... بل عن مهرب.

كل سحبة كانت اختصارًا لكلمات لا يريد قولها، لأفكار لا يجد من يستمع إليها دون أن يصفه بالمهووس أو المعقد.

جلس على الأريكة، ومد رجليه أمامه، ثم قال بنبرة متهكمة وهو يراقب اللهب الصغير في طرف السيجارة:

.«هل تعلم، يا آدم؟ هذا أفضل من جلسة تأمل... على الأقل لا أحتاج لفتح شاكرا القلب لأرتاح.»

ضحك جوزيف، بينما أدم نظر إليه بنظرة نصف ملامة، نصف تفهم.

.«فقط لا تحرق الستائر... هذه من ذوق ألكسندر، وسيقتلني إن شمّ فيها رائحة الدخان.»

جيروم ابتسم بخبث وهو ينفث الدخان إلى الأعلى.

.«دعه يقتلني... على الأقل سأموت وأنا هادئ.»

جلس الثلاثة في غرفة المعيشة بعد أن أنهوا ترتيب الطاولة وأعدّوا بعض الموسيقى الخلفية. الشمس كانت قد بدأت تميل للغروب، وأشعتها البرتقالية تنعكس بخجل على زجاج النوافذ، تمنح المكان دفئًا زائفًا... لأن الجو بين الثلاثة كان يتجه نحو شيء آخر.

كان آدم مستندًا إلى الأريكة، كوب عصير بين يديه، يتابع شاشة التلفاز بصمت. جوزيف كان يحاول فتح كيس من رقائق البطاطا، بينما جيروم اكتفى بالجلوس على الأرض، ظهره إلى الطاولة، والسيجارة لا تزال بين أصابعه، تتوهج في هدوء.

قطع جوزيف الصمت بنظرة جانبية نحو آدم:

.«بالمناسبة... لاحظت أنت وأمبر صرتما تقضيان وقتًا أطول معًا.»

رفع آدم حاجبه، دون أن يغير جلسته:

.«هل هناك قانون يمنعني؟»

ضحك جوزيف:

.«لا، فقط ألاحظ. حتى ستيفن بدأ يتكلم عنكما...»

هنا تدخل جيروم، دون أن ينظر إلى أحد:

.«والناس تتحدث كثيرًا، لكن هذا لا يعني أنهم مخطئون.»

رمق آدم جيروم بنظرة جانبية، ثم قال بهدوء:

.«ما الذي تحاول قوله؟»

جيروم نفث دخانًا بطيئًا، ثم قال بصوت منخفض:

.«أقول فقط إن أمبر... قد لا تكون الخيار المثالي. كل شيء فيها يبدو... مظهرًا. لامعة، جميلة، لكن... هناك شيء غير مريح، لا أستطيع تفسيره.»

جوزيف هز كتفيه:

.«أنا لا أكرهها، لكن بصراحة؟ ما أراه الآن مجرد انجذاب، لا أكثر. لا أتحدث عن سوء نية، فقط... لا أراها تناسبك، موش نفسيًا ولا عاطفيًا.»

آدم تنهد وأبعد كوبه قليلاً.

.«أنتم ترون جزءًا واحدًا منها. أنا أراها كاملة. وأعرف أنها تحاول. وهذا يكفيني.»

سادت لحظة من الصمت.

جوزيف نظر إليه بابتسامة صغيرة، فيها بعض الاستسلام:

.«على كل حال، قرارك وحدك. وإذا كنت مرتاح، فأنا احترم ذلك. حتى لو اختلفت معاه.»

أما جيروم... فقد بقي صامتًا. لم يُعلّق، لم يُعبّر عن موافقة أو رفض. فقط أنهى سيجارته وسحق عقبها ببطء على طبق فارغ، وعيناه تحدقان في شيء غير موجود، كأنه كان في مكان آخر.

آدم لاحظ الصمت... لكنه لم يُعلق.

لأن بعض الآراء... تُقال بالصمت أكثر مما تُقال بالكلمات

حلّت لحظة الغروب تمامًا حين دق جرس الباب. ارتفعت عيون الثلاثة، آدم وجوزيف وجيروم، قبل أن ينهض الأول بخطى ثابتة نحو المدخل.

فتح الباب ليجد أمامه الثلاثي: ستيفن، أليكس، وستيف. كل واحد منهم يحمل شيئًا في يده — كيس من الحلويات، علبة عصير، أو مجرد حقيبة كتف.

أطلق ستيفن صافرة إعجاب وهو يخطو إلى الداخل:

.«واو... من كان يظن أن هذا المنزل الكئيب يمكن أن يتحوّل إلى مكان يصلح للحياة!»

ضحك أليكس وهو يخلع سترته الجلدية:

.«أنا منبهر بصراحة... نظيف، مرتب، وفيه رائحة ليمون! جيروم... هل أنت بخير؟»

جيروم كان جالسًا على الأريكة، يرفع حاجبًا بكسل وهو يشير إلى آدم:

.«أنا؟ ما لي علاقة، كل هذا من صنع الخادم آدم.»

ضحك ستيف وهو يتفقد المكان بعين فاحصة:

.«التنسيق رهيب. الموسيقى، الإضاءة، وحتى الطاولة! أخيرًا حفلة مش وسط فوضى جوارب وأكياس طعام.»

أغلق آدم الباب خلفهم بابتسامة ساخرة:

.«يا للامتنان... أنتم كرماء جدًا.»

استقر الجميع في غرفة المعيشة، أطلقوا بعض التعليقات الساخرة، وأعادوا ترتيب بعض الأشياء بطريقتهم الخاصة. ستيفن لم يتوقف عن التحديق في الزوايا، وكأن المنزل يخفي شيئًا سريًا.

قال فجأة، وهو يشير إلى إحدى اللوحات على الجدار:

.«من رسم هذه؟ لا تبدو من النوع الذي يختاره آدم... فيها حس.»

أجابه جوزيف ضاحكًا:

.«ربما ألكسندر؟ أو أحد الأرواح التي تسكن المكان.»

قهقه الجميع، بينما اقترب ستيف من المطبخ الصغير وقال:

.«الآن، من يريد أن يبدأ بالجولة الاستكشافية؟ أعني... لازم نعرف وين نرقص، وين نأكل، وين ننهار لاحقًا.»

همس أليكس مازحًا لآدم وهو يمر بجانبه:

.«أنا خائف صراحة... إنهم يتصرفون وكأنهم سيحتلون المكان.»

أجابه آدم بهدوء:

.«ليكن... الليلة للجنون. وهذا المنزل سيشهد على ذلك.»

وفي تلك اللحظة... بدا أن المكان نبض بالحياة.

الستائر ترقص مع نسمات المساء، والأنوار الخافتة تنعكس على الوجوه المتحمسة، والضحكات تتصاعد شيئًا فشيئًا، كما لو أن هذه الليلة كانت بداية شيء جديد، شيء... سيصعب نسيانه.

كان آدم لا يزال يصحح طية كم سترته حين دق جرس الباب، فقطع الهدوء الخفيف في المنزل. ارتفعت نظرات الجميع نحو المدخل، ثم اتجه آدم بخطوات رزينة ليفتح.

وما إن فتح الباب، حتى تجلّت أنجي، واقفة بثقة وهدوء، تحمل طبقًا مغطى بورق الألمنيوم بين ذراعيها. شعرها الأسود الطويل منسدل بنعومة على كتفيها، تتخلله خصل متمردة رغم محاولة ترتيبها بعناية. عيناها الواسعتان، بلون الليل الصافي، تطلان بنظرة ثابتة، وشفتيها بلونٍ أحمر داكن، كأنها طبعت عليهما سراً لم يُفصح عنه بعد.

كانت ترتدي معطفًا أسود طويلًا، يلتف حول خصرها ليبرز منحنيات جسدها الممشوق دون ابتذال، ويوحي بجاذبية مقلقة لا تشرحها الكلمات. مزيج من الرصانة والغموض، مظهرها وحده كافٍ لفرض الصمت دون أن تتكلم.

ابتسمت بخفة وهي ترفع الطبق نحوه:

.«أحضرت شيئًا بسيطًا... بمناسبة الحفلة.»

تناوله آدم منها وهو يحاول ألا يظهر ارتباكه من حضورها اللافت، وقال:

.«تبدو رائحته مذهلة... دجاج؟»

رمشت بعينيها ببطء، ثم مالت برأسها قليلًا وهي تبتسم ابتسامة جانبية:

.«ليس تمامًا... إنه الديك.»

.«الديك؟!» كررها جوزيف من الخلف بذهول.

هزت أنجي كتفيها بخفة، وراحت تشرح وكأن الأمر عادي تمامًا:

.«ذاك الديك الوقح الذي يجول الحي كل صباح وكأنه يمتلكه... أفسد لي مزروعات الحديقة ثلاث مرات. هذا الصباح... أمسكت به، ذبحته، وها هو الآن، بطل المائدة.»

تجمد آدم لثوانٍ وهو يتخيل صباحه الهادئ، قبل أن يحدّق فيها ويهمس بذهول:

.«كنت أتساءل لم بدا هذا الصباح هادئًا على غير العادة...»

ضحك جوزيف وهو يصفق على كتف جيروم:

.«لقد فقد الحي ديكًا... وربح وجبة.»

أما أنجي، فقد نظرت إلى آدم بصمت للحظة، وراودها في الداخل صوت ساخر وهمسة خفيفة:

"هذا هو السبب الحقيقي."

كانت لحظة عابرة، لكنها حملت في طيّاتها الكثير، كما لو أن حضور أنجي وحده كفيل بأن يُبدّل مناخ المكان... وحتى طبول الفجر

في غرفة المعيشة، حيث الأضواء الدافئة تلامس الجدران بلطف، والموسيقى تعزف خلفية هادئة من أنغام الجاز الممزوجة بصوت خافت للضحك والحديث، جلس آدم على طرف الأريكة الجلدية السوداء، يمسك بكوب عصير بارد في يده، فيما عيناه تتابع حركات الموجودين حوله بنصف اهتمام.

وفجأة، تحركت أنجي بخطوات ناعمة نحو الأريكة وجلست بجانبه، المسافة بينهما قصيرة ولكنها مشحونة بما لا يُقال. لم تكن ترتدي شيئًا مبالغًا، فستانًا بسيطًا بلون رمادي داكن، لكنه احتضن جسدها برقة مُربكة، وكان شعرها الأسود لا يزال يحتفظ بتلك الفوضى المتعمدة، وعطرها الخفيف يلمس هواء المكان كوشوشة سرّ.

نظرت إليه وقالت بابتسامة ناعمة: .«أنت مستعد تمامًا لدور المضيف... تبدو أنيقًا، آدم.»

أجابها بابتسامة خفيفة: .«وأنتِ... تبدين وكأنكِ خرجتِ من إحدى روايات الجريمة، البطلة الغامضة التي يعرف الجميع أنها تملك خنجرًا تحت وسادتها.»

ضحكت، تلك الضحكة القصيرة التي لا تصدر منها كثيرًا، وقالت بنبرة لاهية: .«من قال إنني لا أملكه فعلًا؟»

وفي الجانب المقابل من الغرفة، وقف جوزيف وجيروم قرب المطبخ، يتظاهران بتفقد الأطعمة لكن أعينهم كانت على الثنائي الجالس.

همس جوزيف وهو يراقب الموقف: .«أقسم أني لم أرَ آدم بهذه الراحة من قبل...»

أومأ جيروم، يرد وهو يحتسي من كوبه: .«قلت لك منذ البداية... أنجي ليست مجرد فتاة. عقل، مظهر، وشيء غريب... كأنها وُجدت لتكون حارسه.»

.«أعتقد أنها تجاوزت مرحلة الحارس، صارت الحُلم ذاته.»

ضحكا بخفة، قبل أن تتجه الأنظار إلى الباب الذي انفتح مجددًا.

دخلت جاسمين ولونا، الأولى بملابس لامعة وأحمر شفاه صارخ، والثانية بهدوئها المعتاد وفستان أزرق بسيط. فور دخولهما علت التحايا، وعانقتا الموجودين وسط دفء واضح.

ثم، وبعد لحظات، انفتح الباب مجددًا، وهذه المرة دخلت ميرا، سيدة الحفل الحقيقية، بصحبة أمبر. كانت ميرا ترتدي تنورة قصيرة بلون خمري، وقميصًا أبيض مربوطًا عند الخصر، وتحمل بين يديها علبة كرتونية صغيرة وكيسًا بسيطًا.

توجهت مباشرة نحو آدم، وقالت بابتسامة عريضة: .«ها نحن ذا! أحضرت بعض الكعك، و... المال.»

رفع آدم حاجبه: .«مال؟»

.«أعرف أن ألكسندر دفع للطباعة، وأنا... لا أستطيع النوم وضميري يأنبني. لذا جمعت ما استطعت، على الأقل أكون قد ساهمت.»

ابتسم آدم وهو يرفع يده بقَسم: .«أقسم بشرفي، لن آخذ منكِ فلسًا. اعتبريها هدية منّا. لكن الكعك؟ سأقبله كرشوة.»

ضحكت ميرا: .«ليكن. لكنك لن تنجو من وجبة دسمة الأسبوع القادم.»

لوّح آدم بكفه: .«على الرحب والسعة... طالما لن تذبحيني بعدها مثل ديك أنجي.»

ضحكت أنجي بخفة من بعيد، بينما ارتسمت على ملامح الجميع ابتسامة خفيفة.

بدأت الليلة تتشكل، وكل شيء بدا وكأنه يسير نحو ذكرى ستُروى كثيرًا... لا من أجل الحفل، بل من أجل ما كان يتشكل خفية بين الأرواح المتقاطعة.

في داخل منزل آدم، تحديدًا في غرفة المعيشة الواسعة، كانت الأضواء الملوّنة ترقص على الجدران بتناسق خفيف مع أنغام الموسيقى المتعاقبة، التي تراوحت بين الأغاني الراقصة الحماسية، والأخرى الدافئة التي تشبه همسات الذكريات القديمة. الأرائك دفنت تحت أكوام الوسائد، والهواء كان مشبعًا بروائح الحلوى والمشروبات الغازية وأصوات الضحك المتناثر في كل زاوية.

جوزيف وستيفن كانا يتواجهان بتركيز في لعبة فيديو قتالية، أصوات الأزرار السريعة تكاد تتفوق على الموسيقى، وجوزيف يصرخ: .«مستحيل! غش! أنت أكيد تستخدم كودات!»

ضحك ستيفن: .«بل أنت فقط بطيء! حتى جدتي تلعب أسرع منك!»

بينما جيروم وألكس كانا على طاولة ورق، تتناثر عليها أوراق اللعب وبعض قطع الشوكولاتة، يشتبه كل منهما بالآخر في خداع ما، فيما لونا وجاسمين كانتا تتمايلان مع الموسيقى وتضحكان، وميرا كانت تلتقط الصور للجميع، تحتفظ باللحظة قبل أن تنفلت من أصابع الزمن.

وسط كل تلك الضجة، ارتفعت صيحة آدم من الزاوية: .«يا جماعة! اقترب وقت العشاء، بس في شوية أشياء لازم أضيفها. رايح المطبخ.»

وانطلق بخطى واثقة نحو المطبخ.

لكن الفضول البشري لا يُقاوم. تبعه جوزيف، جيروم، ميرا، وستيفن، أرادوا فقط "إلقاء نظرة"، لكن ما شاهدوه جعلهم يتجمدون عند الباب.

المطبخ بدا وكأنه ساحة معركة... لكن منظمة. آدم كان يتحرك بسرعة جنونية بين المكونات، بيده اليمنى يقطع البصل بسكين طويلة بطريقة استعراضية، يرفعه في الهواء، يديره بين أصابعه، ثم يهوي به بدقة مذهلة، ويده الأخرى تفتح البهارات وترش منها دون قياس.

رائحة الزبدة المحترقة قليلاً، مع الثوم المفروم، والزيت المتلألئ في المقلاة، كلّها مزجت المطبخ بعطرٍ يجعل المعدة تحتج من الجوع.

صرخ جيروم، نصف مرعوب: .«آدم، هل هذه مهارة قتالية أم طبخ؟!»

نظر إليهم آدم، يضع السكين جانبًا وقد التصق خيط من البخار بجبهته، وقال باندهاش: .«يا جماعة الخير... ماذا يحدث؟ ليش المطبخ صار عرض مسرحي؟»

ضحك جوزيف وهو يصفق: .«أنت ساحر! ما هذا؟ تقطيعك كأنك في فيلم أكشن!»

أضافت ميرا بدهشة: .«لم أظنك من النوع الذي يطبخ... هكذا!»

أجابهم آدم بابتسامة خفيفة وهو يقلب المقلاة: .«كل رجل يجب أن يعرف كيف يحمي نفسه... ولو حتى بطبق باستا!»

وبعد دقائق، اجتمعوا جميعًا في الطاولة الطويلة، الأطباق كانت كثيرة، متنوعة الألوان والروائح: معكرونة بالصوص الأحمر، صدور دجاج مشوية على الطريقة الإيطالية، سلطة بالجرجير والرمان، وأكواب العصير البارد تصطكّ عند التحايا والضحك.

أخذ ستيف قضمة من المعكرونة، توقف، رفع حاجبيه:.«انتظروا... آدم... أنت من طبخ هذا؟»

هز آدم رأسه ببساطة:.«نعم؟»

صرخ ستيف:.«ما هذا بحق الجحيم؟! هذا ألذ من مطاعم الخمس نجوم!»

أضافت جاسمين وهي تمضغ بسعادة:.«آدم... هل تفكر بفتح مطعم؟»

ضحك الجميع، وعلق جيروم ساخرًا:.«أخشى أن تصبح حياتك المهنية التالية هي الطباخ القاتل... سكاكينك خطيرة يا صاح.»

كان الضحك حاضرًا، وكان الطعام بمثابة اللحن الذي جمع قلوبهم على الطاولة. في تلك اللحظة، لم تكن هناك أي مشاكل، لا ماضٍ ثقيل، ولا مستقبل غامض... فقط الليلة، فقط الأصدقاء، وطبق طعام لم يُنسَ

في إحدى الزوايا الدافئة من غرفة المعيشة، جلس الجميع حول الطاولة الخشبية المستديرة، وقد اصطفّت عليها أطباق الكعك المزخرف بالكريمة، وعلب الفواكه الجافة المتنوعة من لوز وزبيب ومشمش مجفف، تتخللها بعض قطع الشوكولاتة المربعة. ضوء خافت من الثريا العتيقة فوق رؤوسهم مزج بين دفء المكان وصدى الضحكات المتعاقبة.

لعبة الأونو بدأت. أوراق اللعب تنقلب بسرعة، وتعابير الغدر والدهاء تملأ وجوه الحاضرين.

صرخ جوزيف وهو يرمي بطاقة: .«+4! تذوّق هذا يا جيروم!»

ردّ عليه جيروم ساخرًا: .«أوه، بدأت الحرب؟ حسنًا، استعد للرد يا كلب!»

ميرا كانت تضحك بصوت عالٍ وهي تنظر لبطاقاتها، بينما لونا كانت تضع يدها على فمها محاولة إخفاء ضحكتها، وستيفن يهمس لستيف: .«آدم يراقب بهدوء... أخاف أن يُجهّز لضربة قاتلة!»

آدم، كان ينظر لبطاقاته بتأمل عميق، ثم ابتسم بخبث وهمس: .«الصبر مفتاح الجحيم.»

أنجي، بجانبه، تميل برأسها نحوه وتقول: .«هل أنت متأكد أنك لا تغش؟ لأنك تبتسم بثقة مريبة.»

هز رأسه ضاحكًا: .«أنا لا أغش... فقط أستمتع وأنا أخطط لنهايتكم جميعًا.»

بعد بضع جولات وضحكات متقطعة، وقف آدم وقال بابتسامة: .«طيب... بما أننا شبعنا لعب وسكر، شو رأيكم بجولة سريعة؟ المنزل كبير وما شفتم إلا جزء بسيط منه.»

نهض الجميع بفضول، وبدأت الجولة بالطابق العلوي.

الدرج الخشبي العتيق صرصر بخفة تحت أقدامهم، والجدران المزخرفة بإطارات سوداء وصور قديمة من الماضي الغامض كانت تراقبهم بصمت.

فتح آدم باب غرفته أولًا — الغرفة كانت بسيطة، مرتبة بدقة، سرير كبير، مكتب أنيق، مكتبة صغيرة على الجدار، والقلادة السوداء والحمراء التي أهديت له من العجوز متدلّية من زاوية المرآة، كأنها تراقب المكان.

لكن الأنفاس توقفت عندما فتح باب غرفة ألكسندر.

الغرفة كانت مظلمة جزئيًا، تعجّ بكتب ذات أغلفة داكنة، وقطع أثرية معلقة في الجدران، تماثيل صغيرة بوجوه غير مألوفة، وطاولة طويلة مغطاة برسائل مكتوبة بخط يدويّ دقيق.

قال ستيف وهو ينظر حوله: .«غرفة شخص لا يحب الضيوف... لكنها مثيرة.»

همس ستيفن: .«أشعر أنها تُخفي أكثر مما تُظهر...»

قال جوزيف وهو ينظر إلى ركن صغير فيه دولاب مغلق بالأقفال: .«لو فتحت هذا... أشعر أني سأختفي للأبد.»

ضحك آدم: .«دعوه مغلقًا. ألكسندر يحب أن يترك أسرارًا معلقة.»

هبطت خطواتهم الثقيلة عبر السلم الحجري المؤدي إلى الطابق تحت الأرضي، حيث بدا كأن الجدران تحفظ أنفاسًا قديمة، مغمورة بصمت سحيق، كأن الزمن قد نسي هذا الجزء من المنزل.

أمامهم امتد ممر طويل، يتوزع إلى عدة أبواب مصمتة، بعضها مفتوح، والبعض الآخر مقفل بإحكام.

قال جوزيف هامسًا وهو يشير إلى أحد الأبواب المعتمة: — "أليست هذه غرفة ألكسندر؟"

هزّ آدم رأسه بإيجاب، ثم اقترب من الباب، ومدّ يده إلى المقبض، لكنه لم يتحرك.

— "إنها مغلقة، كما كانت دائمًا."

تحدث بنبرة محايدة، لكن في عينيه انعكست ظلال حذر لم يعتدها أصحابه.

تمتم ستيفن وهو يحدّق في النقوش الغريبة على إطار الباب: — "وكأنها تحرس سرًا لا يُفترض بنا معرفته."

ردّت لونا بصوت خافت: — "ربما الأفضل ألا نحاول."

قال آدم ساخرًا وهو يدير ظهره للباب: — "لو كان ألكسندر هنا، لطردنا جميعًا خارجًا."

انتقلوا إلى الباب التالي، الذي انفتح بسلاسة، كاشفًا عن غرفة رياضية فسيحة، تلمع فيها الأجهزة الحديدية تحت ضوء السقف البارد، والمرايا تعكس صورهم المتناثرة على الجدران.

نظر أليكس إلى الأثقال الضخمة المصفوفة في الزاوية، ثم إلى آدم، وقال بنبرة مازحة:
— "لا عجب أن جسدك يبدو كدرع مضاد للطائرات."

ضحك آدم وهو يرفع حاجبيه مدافعًا: — "أقسم أنني نادرًا ما آتي إلى هنا، إن ألكسندر هو من لا يغادرها أصلًا."

قال جوزيف متهكمًا وهو يتأمل جهازًا لا يعرف اسمه: — "ومع ذلك، يبدو أنك ابتلعت نصف حديدها!"

في الجانب الآخر، وقفت ميرا ولونا وأنجي وجاسمين يتأملن المرايا ومعدات التمارين.

قالت ميرا وهي تضحك بخفة: — "هل تتخيلن عضلات ألكسندر؟"

ردّت لونا بخجل: — "حتماً ستكون منحوتة بدقة."

قالت أنجي وهي تعبث بشعرها الأسود: — "يبدو من نوع الرجل الذي لا يرحم في التدريب... ربما يرفع الأثقال بأسنانه."

ضحكت الفتيات، بينما ألقى ستيف تعليقًا من بعيد: — "آدم، رُفِع الحظر، عضلاتك صارت حديث الصبايا."

ضحك الجميع، ثم واصلوا جولتهم حتى وقفوا أمام باب خشبي ثقيل، فتحه آدم ليدخلوا إلى صالة ذات طابع كلاسيكي عتيق.

كانت غرفة الأسلحة تحفة قائمة بذاتها:

رفوف خشبية مصقولة تتدلّى منها سيوف طويلة، رماح برؤوس مصقولة، فؤوس ثقيلة مزخرفة، وخناجر بأشكال لا تُشبه ما يراه المرء في المتاحف العادية.

وفي وسط الغرفة، كانت حلبة قتال دائرية، آثار دماءٍ جافة تلطّخ أحد أطرافها، لا تزال شاهدة على صراعٍ قديم.

قال ستيف وهو يتأمل الحلبة: — "أهي من معركة حدثت هنا؟"

ردّ آدم بنبرة منخفضة: — "كانت اختبارًا بيني وبين ألكسندر... وقد خرجتُ حيًّا، وهذا يكفيني."

قال جيروم وهو يتلفت حوله: — "لن أنسى تلك الليلة... كانت الضربات تُسمع كأنها طبول حرب."

واصل الأصدقاء جولتهم في الطابق السفلي، يتنقّلون بين الغرف المذهلة، متأملين الكنوز التي يحتويها المنزل، حتى بلغوا صالة الأسلحة العتيقة.

كانت الغرفة تغمرها إضاءة خافتة تتساقط من ثريات نحاسية قديمة، ورفوف عالية محمّلة بشتى أنواع السلاح: سيوف معلّقة كأنها تنتظر معركة، خناجر مذهّبة بخطوط دقيقة، وأقواس عتيقة محاطة بجعب السهام المنسية.

انشغل الجميع بالتأمل، وراحوا يتنقّلون من ركن إلى آخر.

غير أن أنجي، وقد بدت وكأنها جذبتها قوة خفية، انسلّت إلى زاوية مظلمة قليلاً، حيث وُضعت خنجران منحنيان بخمد جلدي أسود ومطرّز بخيوط فضيّة.

نظرت إليهما كمن وجد كنزًا دفينًا.

عيناها السوداوان لمعتا ببريق خافت.

تحسّستهما بأطراف أصابعها، ثم، في حركة خاطفة، أخرجت أحد الخنجرين، ومرّرت لسانها على حدّه كما لو كانت تذوق نبيذًا معتّقًا.

قالت في سرّها، بابتسامة صغيرة مشبعة بالرغبة المكتومة:

— "نعم... هذا المعدن نقيّ... قاتل وصادق... من صنعه كان عبقريًا."

ثم أعادته إلى غمده بهدوء، وألقت نظرة مشتهية أخيرة، كأنما تخبّئ في صدرها وعدًا بالعودة.

في الطرف الآخر من الغرفة، كان الأولاد قد اجتمعوا حول آدم وأليكس، متبادلين أطراف الحديث وسط جو من المزاح وذكريات الماضي.

قال جوزيف وهو يرفع رمحًا طويلًا نصف صدئ: — "لو أطلقنا العنان لأنجي، لربما خرجنا جميعًا من هنا مقطّعي الأوصال."

ضحك جيروم: — "بلى، خاصة وأنتَ، آدم، من يملك وجهًا مستفزًا بطبيعته."

ابتسم آدم بمكر: — "أفضّل أن أكون مستفزًا من أن أكون مطاردًا بخنجر."

تدخّل أليكس وهو يتكئ على جدار حجري: — "آدم... على سيرة العنف، ألا تذكر ما فعلته بذلك المسكين 'جو'؟"

أدار الجميع وجوههم إليه.

قال جوزيف: — "جو؟ تقصد فتى الشعر المجعد؟"

أومأ أليكس: — "نعم، ذاك المسكين الذي طار كما تطير الطيور... بفعل قدم آدم."

ضحك آدم بمرارة وهو يمرر يده في شعره: — "آه، تلك المباراة... كنت حارس مرمى، والكرة أتت بقوة... ركلتُها بكل ما أملك، لكن..."

تابع أليكس متسليًا: — "لكنك ركلت الكرة ومعها جو.

ارتفع عدة أمتار، وانقلب في الهواء كما لو أنه بهلوان، ثم ارتطم بالأرض كما يسقط كيس بطاطا.

انخلعت كتفه، وكُسِر مرفقه، ووقع في يد طبيب غبي لم يعرف كيف يضع الجبيرة... فتحوّلت يده إلى اللون الأزرق، وظنوا أنها ماتت.

قضى عامين يتنقل من مستشفى إلى آخر. كادوا أن يقطعوها، لولا عناية الله."

ضحك الأولاد، رغم توتر الموقف الذي كان مأساويًا آنذاك.

قال جيروم ضاحكًا: — "أقسم أنه منذ تلك الحادثة، لم يمرّ أحد في طريق ركلات آدم دون أن يوصي أهله."

ضحك ستيف وهو يصفق: "آدم، أنت لست إنسانًا... أنت سلاح دمار شامل."

قال آدم مدافعًا وهو يرفع يديه: — "والله ما كنت أقصد، كنت شابًا... غبيًا... مليئًا بالحماس."

ثم تنهد ضاحكًا: — "لكن جو؟ لم يسامحني حتى اليوم... في عيد ميلاده السابع عشر، أرسل لي صورة ليده، وكتب: 'ما زلت أكتب بهذه، شكرًا لأنك لم تقتلني.'"

سادت القاعة لحظة من الضحك الجماعي، حتى قالت ميرا من بعيد: "أنتم حقًا مخلوقات لا تملّ من الذكريات الدموية."

ابتسم الجميع، لكن أنجي، التي عادت بهدوء، ظلت صامتة وهي ترمق الخنجرين بعينيها مرة أخيرة، قبل أن تلتحق بالبقية، والابتسامة ما زالت مرسومة على شفتيها الحمراء كأثر دمويّ خافت.

عادت الأجواء إلى الحفلة، والموسيقى تعلو شيئًا فشيئًا حتى ملأت أركان المنزل.

الأضواء الراقصة تلوّنت بين البنفسجي والأزرق والأحمر، تعكس ظلالًا متراقصة على الجدران، بينما تصاعدت الضحكات والأنغام مع كل دقّة إيقاع.

في منتصف القاعة، بدأ الأصدقاء يتمايلون على وقع الإيقاع، خطواتهم متخبّطة أحيانًا، لكن ممتلئة بالفرح.

اقترب آدم، وقد بدا عليه الحماس الممزوج ببعض التوتر، من أمبر التي كانت تضحك مع ميرا قرب الطاولة.

قال وهو يمدّ يده إليها: — "هل لي بهذه الرقصة؟"

رفعت حاجبيها، ثم ابتسمت ابتسامة خفيفة وقالت: — "آه، آسفة آدم... لا أشعر أنني مستعدة للرقص الآن."

ثم أضافت بهدوء، وهي تنقل بصرها بعيدًا: — "ربما لاحقًا."

تراجع آدم خطوة، وابتسامته بدأت تنكسر بخفة.

قال بهدوء وهو يشيح بنظره: — "لا بأس... لاحقًا، إذًا."

اتجه نحو جيروم الذي كان يتمايل وحده قرب مكبر الصوت، وقال ممازحًا: — "يبدو أنك ستكون شريك رقصي لهذه الليلة."

ضحك جيروم: — "هنيئًا لي، ها نحن ذا يا عزيزي."

بدأ الاثنان يرقصان معًا بحركات عبثية، مما فجّر ضحكات بقية الحضور.

لكن أنجي، التي كانت تتابع من بعيد، لاحظت الموقف، ورأت ظل خيبة الأمل الخفيفة على ملامح آدم... نظرة قصيرة تكفيها لتفهم.

وضعت كوب العصير جانبًا، واقتربت منه بخفة، ثم مدّت يدها فجأة نحوه.

قالت بابتسامة مائلة: — "هل تسمح لي بهذه الرقصة... يا ملاكي؟"

رمش آدم بدهشة، لكنه سرعان ما ابتسم وأخذ يدها بكل لطف: — "بكل سرور."

وما إن وقفا وسط القاعة، حتى بدا وكأن الموسيقى أصبحت تعزف لهما خصيصًا.

خطواتهما كانت متناسقة، ملتفّة، رشيقة.

أنجي تتمايل بانسيابية، شعرها الأسود يتطاير مع كل حركة، وابتسامتها تشعّ.

أما آدم، فقد بدا وكأن خيبته تبخّرت تمامًا، وارتسم على وجهه صفاء نادر.

التصفيق اشتعل.

الصفير تصاعد.

الهتافات ملأت المكان.

قال ستيف وهو يصفّق: — "أوه، انظروا إليهم! هذا تناغم خرافي!"

وهتف أليكس: — "راقص محترف كان مختبئًا خلف هيئة الطالب النموذجي!"

جلست أمبر بصمت على الكرسي، تتابع من بعيد، وعبثًا حاولت إخفاء نظرة غريبة في عينيها... خليط من التردد والشك، وربما شيء آخر.

أما أنجي، فقد اقتربت أكثر من آدم، وهمست بصوت بالكاد يُسمع وسط صخب الموسيقى: — "قلت لك أنك ملاكي، لا تنسَ ذلك أبدًا."

اكتفى هو بنظرة عميقة، وكأنها تكفيه عن كل كلمات الشكر، واستمرت الرقصة، وكأن الزمن توقف للحظة، ليمنحهما هذا المشهد الدافئ وسط فوضى الحياة.

العالم الأول - الفصل السابع عشر: بعض الحزن لا يُقال

راح الصدى الأخير للموسيقى يخفت، وبدأت أضواء الحفلة تنطفئ شيئًا فشيئًا، تاركة خلفها صمتًا ينساب كالحرير فوق أرجاء المنزل.

الهدوء استقر، كما لو أن المدينة كلها تخلّصت من ضجيج النهار، واستسلمت لوشوشة الليل.

نسيم بارد، مشبع برائحة التراب المبتل وبقايا المطر الذي كان قد توقف لتوه، دخل عبر الشرفة المفتوحة، مرّ على الزهور المتساقطة على الأرض، ولمس أوراق الشجر في هدوء، حاملاً معه برودة الليل التي تخترق حتى أعماق الروح.

آدم، بابتسامة تعلو وجهه المتعب، بدأ بجمع الأكواب والأطباق المتناثرة، وكانت حركاته متأنية، كأن كل حركة تحمل وداعًا صغيرًا للحظة جميلة انتهت.

لم يكن يشعر بالتعب بعد، بل كان يشعر بثقل غريب في صدره، كما لو أن الليل يهمس له بأسرار لا يفهمها بعد.

ثم، وبينما كان ينظف الطاولة، دلف ألكسندر بهدوء، يحمل بين يديه كوب شاي دافئ.

ابتسم له وقال:

— "إنهاء الحفل لا يعني نهاية السعادة، عليك أن تحفظ هذه اللحظات في قلبك."

رد آدم بابتسامة مرهقة:

— "أعتقد أن الليل يحمل لي أكثر من مجرد ذكريات... هناك شيء لا أفهمه بعد."

ألكسندر جلس بجانبه، نظراته تخترق الظلام الهادئ للغرفة، وقال:

— "النفس أحيانًا ترى ما لا يراه العقل... وربما تحتاج فقط لمن يرشدها."

في الظلام الحالك من غرفته، أغمض آدم عينيه، يستسلم لتلك اللحظة التي تفصل بين اليقظة والنوم، تلك البوابة التي تعبر عبرها إلى عوالم أكثر غموضًا.

فتح باب الحلم ببطء، فوجد نفسه في فراغ لا نهاية له، لا سماء، ولا أرض، ولا صوت سوى صدى خطواته المترددة.

كلما حاول أن يركض، كأن الأرض تتلاشى تحت قدميه، والفراغ يبتلعه ببطء.

شعور لا يقاوم يجذبه إلى الأسفل، كأن هناك قوة غامضة تحاول سحبه إلى عمق مجهول، صمت موحش يلفه وكأن روحه تُسحب إلى قلب الظلام.

ثم بدأ الظلام يلتف حوله، تزداد كثافته، حتى تحول إلى شبكة من الحبال السوداء التي تقيد حركته.

في وسط هذا السواد ظهر رجل غامض، يرتدي بذلة داكنة، وجهه مخفي تحت ظل غامض لا يمكن التمييز بين ملامحه، لكن عيناه تلمعان كبريق النجوم الخافتة في ليلة حالكة.

رفع بيده سيفًا غريب الشكل، شبيه بعقرب ساعة قديم، حاد ونحيل، ينبعث منه ضوء بارد غريب.

ببطء بدأ يقطع الحبال التي كانت تحاصر آدم، وكأنها كانت تُخنق روحه.

ثم قال بصوت هادئ، ولكنه ملؤه ثقة:

— "لا تقلق، سيدي الشاب، أنا هنا لمساعدتك."

في تلك اللحظة، حدث تحول سحري مذهل.

الظلام الذي كان يلتف حول آدم تحول تدريجيًا إلى سلاسل من طاقة تشبه التيارات الكهربائية، لكنها تتلوى برشاقة كالثعابين الذهبية الفضية، تلمع بألوان متغيرة بين الأزرق الغامق والأرجواني.

بدأت تلك السلاسل بالانصهار حول قفل ضخم، يشبه ساعة قديمة ذات عقارب معقدة، متشابكة بأسرار الزمن والقدر.

وسط ذلك المشهد المهيب، شعر آدم بشيء يتغير داخله، قوة باردة تخترق كل خلية في جسده، لكنها لم تكن مؤلمة، بل كأنها توقظ شيئًا كامناً.

التفكير تدفق إلى عقله بسرعة متناهية:

— "هل هذا القفل هو حدود ما بين عالمي والظلام؟ هل أنا محاصر بين عوالم؟"

مع كل نبضة في قلبه، كان القفل يلمع بقوة، وكانت السلاسل تتشدد وتغلق عليه الحصن الذي كان يعيق روحه عن الانطلاق.

ثم، فجأة، استلم اليد الغامضة يد آدم برفق، سحبه بعيدًا عن الظلام، وأحس بيدٍ دافئة تحميه من السقوط في الهاوية التي كان ينجرف نحوها.

عاد آدم إلى الواقع متعرقًا، يتنفس بصعوبة، كأن أنفاسه اختنقت في البحر العميق للحلم.

جلس على حافة السرير، يديه ترتجفان قليلاً، وأعينه تلمعان ببريق الخوف والدهشة.

التفت نحو النافذة التي بدأت الشمس تتسلل بألوانها الدافئة من خلف الأفق، فشعر بجرعة من الأمل تخترق الظلام الذي لف روحه.

رائحة الأرض المبللة والنسيم البارد تتسلل إلى غرفته، تنعشه قليلاً، لكن لا تزال داخله عاصفة تسير بين الخوف والفضول.

تمتم بصوت خافت:

— "ما الذي يحدث لي؟ ماذا تعني كل هذه الرموز؟"

تأمل القفل والسلاسل في حلمه، أحس أنها ليست مجرد صورة عابرة، بل رسالة... دعوة لاستيقاظ شيء عميق داخل روحه.

ثم أغلق عينيه مرة أخرى، يحاول استدعاء ذاك الشعور مرة أخرى، وكأنه يبحث عن مفتاح يكسر القيود.

مرّت الأيام التالية للحفل كأنها خيوط دخانٍ تتسلل ببطء بين أصابع آدم.

كانت أجواء المدرسة كما هي، الفصول، المحاضرات، صخب الساحة، إلا أن هناك أمرًا ما تغيّر. لم يكن خارجيًا، بل داخليًا... كأن ثمة ظلًّا تسلل إلى روحه واستقر فيها.

أمبر... لم تعد كما كانت.

لم تعد تبتسم له كما اعتادت، لم تعد تسأله عن يومه أو تمازحه عند كل فرصة. كانت تكتفي بإيماءة خفيفة إن صادفته، وإن تحدث، اكتفت بإجابات مختصرة، جافة، وكأنها تُبقي على الحدّ الأدنى من التفاعل لا أكثر.

لكن الأمر الذي أثقل على قلب آدم فعلًا، هو رؤيتها تمضي وقتًا طويلًا مع ستيفاني.

ستيفاني، تلك التي طالما شعر آدم بشيء غريب في ملامحها، ابتسامة تُخفي خلفها نوايا مبهمة، وحديثٌ لزج مليء بالتلميحات والغمز.

كان يرى أمبر معها، تضحك، تهمس، تشاركها الأسرار، وكأن عالمًا جديدًا فُتح لهما، وهو... لم يعد جزءًا منه.

كل ذلك لم يمر دون أثر.

في أحد أيام الأسبوع، وبينما الشمس تسللت بخجل إلى ساحة المدرسة، جلس جيروم وجوزيف على أحد المقاعد، يتأملان زوايا الفناء.

قال جيروم وهو ينفث زفرة طويلة:

— "أنظر إلى آدم... كأنه ظلّ نفسه، حتى حين يأكل، يفعلها كما لو أن الأمر عقوبة."

نظر جوزيف إلى آدم، الذي كان يجلس في زاوية بعيدة، يعبث بعلبة طعامه دون شهية، ملامحه شاحبة، عينيه غائرتان.

قال بصوت منخفض:

ـــــ "لم أره هكذا منذ مدة... شيء ما ينهشه من الداخل."

هزّ جيروم رأسه:

ـــــ "ستيفاني... لا أحب أن أقول هذا، لكن ما دامت أمبر بدأت تقضي وقتها معها، فالكارثة قادمة لا محالة. هذه الفتاة لا تصادق أحدًا بلا مقابل."

ثم أضاف بتنهيدة ثقيلة:

ـــــ "وأنا لا أظن أن أمبر تفعل ما تفعل عن عبث."

وفي زاويته، كان آدم يضغط على الشوكة بين أصابعه بقوة، لا يبتلع شيئًا من طعامه، بل يبتلع تساؤلاته.

ما الذي تغيّر؟ ماذا فعلت؟ هل أخطأت؟ هل قالت لها ستيفاني شيئًا عني؟ لماذا تبتعد؟ هل تكرهني؟ هل سئمتني؟ هل... لم أعد مناسبًا؟

كل سؤال كان يغرز سكينًا في قلبه.

كل نظرة منها إلى غيره كانت صفعة.

وفجأة، قُطِع الصمت الذي يلفه بخطوات هادئة تتقدم نحوه.

رفع رأسه... كانت أنجي.

شعر بشيء دافئ يلامس بصره. كانت تحمل بيدها علبة عصير، وبالأخرى قطعة كعك صغيرة.

جلست بجانبه دون كلمة، وقدّمت له الكعك.

قالت بنبرة مرحة لكنها لينة:

— "شعرت أن مزاجك بحاجة إلى سكر."

نظر إليها بصمت، ثم ابتسم ابتسامة خافتة، مهزومة.

قال:

— "هل أبدو بهذا السوء؟"

أجابت برقة وهي تسند خدها على كفها:

— "لا، لكني أعرفك جيدًا، وعينيك لا تجيدان الكذب."

ظل صامتًا، فأكملت:

— "آدم... بعض القلوب تغيّر اتجاهها، وبعض الأرواح تتوه لفترة... لكن هذا لا يعني أنك ناقص أو أن هناك خطأ بك. في أحيان كثيرة، من يبتعد عنا يُظهر لنا من يستحق أن يبقى."

لم يقل شيئًا. كان قلبه ممتنًا، وعيناه دامعتين، لكن دون دموع.

اقتربت منه أكثر، وضعت يدها بلطف على كتفه، ثم فجأة...

احتضنته.

كان حضنًا دافئًا، آمنًا، لم يحمل معنى الحب فقط، بل الطمأنينة، الرفقة، والانتماء.

ثم، وهمسها جاء كما النسيم، رقيقًا، صادقًا، يخترق كل صدع في روحه:

— "لا تقلق... أنا معك، دائمًا. وإن فرّ الجميع، أنا باقية."

أغمض عينيه في تلك اللحظة، وأحس كأن قلبه هدأ، ولو قليلًا.

كان الصوت في داخله يهمس أخيرًا:

ما زال هناك نور، حتى حين يعمّ الظلام.

كان الغروب يسكب لونه البرتقالي فوق الأرصفة بصمتٍ شاعري، حيث امتزجت أشعة الشمس الأخيرة مع نسائم المساء الباردة، ورائحة المدينة التي بدأت تنسلخ من صخب النهار.

أمبر وستيفاني تمشّتا بهدوء في طريق العودة، صوت خطواتهما يتردد بين الجدران، وحديث خافت يتناثر بين ضحكات مكتومة ونظراتٍ جانبية.

قالت ستيفاني، وهي ترفع خصلة من شعرها الأسود وتلفها حول إصبعها:

— "أتعلمين، أظنّكِ أخيرًا بدأتِ ترين الأمور بوضوح... أدم لا يناسبك، هناك حياة أوسع من عينيه الحزينتين."

ضحكت أمبر بخفة، لكنها لم ترد.

وفي مكانٍ غير بعيد، خلف سور صغير تغمره الظلال، كانت أنجي تراقب المشهد...

عينان سوداوان كأعمق ليل، يلمع فيهما بريق الغضب، والشفاه منكمشة، مشدودة، والأنفاس ثقيلة كأنها على وشك الانفجار.

ملامح وجهها كانت منحوتة بجمود، لكنها مشبعة بتلك النار الهادئة، نار لا تشتعل بالضجيج، بل بالصمت المرعب.

كانت تتبع خطواتهما، لا صوت يصدر عنها، إلا صوت الأرض التي تشهد على سعيها.

وما إن افترقت أمبر عن ستيفاني عند زاوية الطريق، حتى همّت الأخيرة بالاستدارة، لتُفاجأ...

بحدقة سوداء تُخترقها من شبر واحد، وسكينٌ باردٌ وضع بلطافة مميتة على رقبتها.

همست أنجي بصوتٍ منخفضٍ، لكنه مفعم بالوعيد:

— "أنطقي بحرفٍ غير مفيد... وستكون تلك نهايتك."

تجمدت ستيفاني في مكانها، أنفاسها تعلّقت في صدرها.

أكملت أنجي بصوت أكثر ثباتًا:

— "أجيبي، ما طبيعة علاقتك بأمبر؟ منذ متى تتسكعين معها؟ ولما أصبحت تتجاهل آدم؟ أجيبي قبل أن يفقد صبري ظله."

تلعثمت ستيفاني، تحاول لملمة الكلمات، لكن أنجي لم تكن في مزاج للثرثرة.

قالت مجددًا، هذه المرة وهي تضغط السكين قليلًا:

— "كل ما قلتِه اليوم... كذب. وأنا أعلم."

نظرت في عينيها مباشرة، ثم خفضت السكين ببطء، وابتعدت خطوة واحدة فقط.

— "لن أفضحك الآن... سأمنحك فرصة. لكن إن حاولتِ إيذاء آدم أكثر، إن قلتِ شيئًا لأيّ كان عمّا حدث الآن، أو حتى فكرتِ بأنك قادرة على اللعب في الخفاء..."

اقتربت مجددًا، وهمست بصوت بارد كالثلج:

— "سأجعلكِ تتمنين الموت، لكنّه لن يأتي. سأدعكِ تتعفنين في كل لحظة."

ثم استدارت، ومضت في طريقها، تاركة خلفها فتاةً مصعوقة، وسماءً بدأت تبتلع ما تبقى من ضوء.

أنجي لم تنظر خلفها، لم تندم، ولم تتردد.

كانت خطواتها هادئة، كما لو أن شيئًا لم يحدث.

لكن قلبها... كان يشتعل بحريق لا يُطفأ إلا حين يعود وجه آدم للابتسام

في المساء، كان المنزل قد اكتسى بسكونٍ ثقيل، لا يشبه السكون المعتاد، بل ذاك الذي يخنق الأنفاس ويضغط على الروح.

داخل الصالة، جلس آدم على الأريكة المائلة نحو النافذة. عيناه شبه مغلقتين، يحدّق في العدم، وكأنه يتأمل شقوق قلبه المنبعثة من داخله لا من الجدار أمامه.

الستائر كانت شبه مسدلة، تاركة شريطًا ضيقًا من ضوء الغروب المتأخر يتسلل كطيفٍ حزينٍ على الأرضية الخشبية.

مرت بضع دقائق، وكان ألكسندر يقف في الظل، في الزاوية المقابلة. لم يقل شيئًا... فقط راقب. كان جسد آدم ينكمش قليلاً، وكأنه يحاول الاحتماء من فكرة أكثر من برد.

تنحنح ألكسندر بصوت خافت، ثم قال بنبرة واثقة لكنها حانية:

— "آدم... البيت فارغ الليلة، لكن فراغك أنت هو الأثقل."

آدم لم يرد، لكنه رمش ببطء، كأنه استوعب المعنى رغم أن الحزن لم يغادر وجهه.

تابع ألكسندر، وهو يخطو نحوه:

— "حين يتحول حضورك إلى ظل، ويصير صوتك داخلياً فقط، أعلم أن شيئاً يوجعك. ماذا هناك؟"

أدار آدم رأسه ببطء، وقال بصوتٍ خافتٍ كأنما يخرج من بئرٍ عميق:

— "هي... أمبر، تغيرت. أصبحت لا تنظر إلي، تتجنبني... وترافق ستيفاني باستمرار. لا أعرف إن كنت قد فعلت شيئاً خاطئاً... أم أنها فقط استيقظت ذات صباح وقررت أنني لم أعد أستحق."

توقف لثوانٍ ثم همس وكأنه يتحدث إلى نفسه:

— "لكنها كانت تبتسم لي... كانت تنصت حين أتكلم."

أغمض ألكسندر عينيه لوهلة، ثم تقدم بخطى ثابتة إلى الطاولة، تناول مفاتيحه، وقذفها إلى الأعلى، وأمسكها في الهواء وهو يقول بنبرة خفيفة:

— "ارتدِ حذاءك، سنتنفس قليلاً."

— "أين؟"

قالها آدم دون حماس، كأنما يطلب إذنًا ليبقى غارقًا.

— "إلى أيّ مكان. طالما نخرج من هذا الصمت... نخرج من هذا الصدر."

ابتسم بتحدٍ لطيف وأردف:

— "أرفض أن أدعك تذبل أمامي، يا شريكي في الجنون

كانت السيارة تشق الطريق الليلي بين أضواء الشوارع المتقطعة، ونسيم الربيع العليل يتسلل من النوافذ.

صمت يلف الاثنين، لكن هذه المرة لم يكن ثقيلاً... بل مهيبًا.

ألكسندر كسر الجمود أخيرًا:

— "تعرف، أحيانًا البشر يختارون البعد، لا لشيءٍ فيك، بل لشيءٍ فيهم. ربما يخافون، يختنقون، أو ببساطة... يتغيرون. وأنت، يا آدم، لا يجب أن تحمل كل هذا على كتفيك."

— "لكنني فقط... كنت أظن أنني كنت صادقًا معها. حقيقيًا."

أوقف ألكسندر السيارة عند جسرٍ يطل على نهر هادئ، انعكس فيه القمر كأنه مرآة السماء، ثم قال:

— "الحقيقة لا تضمن البقاء. نحن لا نحصل دائمًا على المقابل الصحيح، ولا على النهاية التي نستحقها."

صمت، ثم أضاف وهو ينظر إلى الماء:

— "لكن ما يمكنك أن تضمنه... هو ألا تفقد نفسك. لا تفقد من تكون لأجل أحدٍ لا يعرف من يكون بعد."

آدم تنهد، عميقًا، كأن زفرته كانت تحمل شهورًا من الأسئلة والخذلان.

قال بهمسٍ متكسر:

— "أشعر بأنني أختنق... كل يوم. كأن جزءًا مني يتمزق في صمت، ولا أحد يلاحظ."

نظر ألكسندر إليه، عيناه تشعان بالجدية، وقال بصدق:

— "أنا ألاحظ. وأنا هنا. ولا أحتاج منك أن تكون قويًا كل الوقت. لكني أطلب منك شيئًا واحدًا... أن تحاول. أن لا تنكسر تمامًا. أن تظل ذلك الغبي الجميل الذي أزعجني أول مرة التقيتك فيها."

ضحك آدم بصوت خافت، كانت ضحكة قصيرة، لكنها حقيقية... شاحبة لكنها صادقة.

— "غبي جميل؟ هذا أسوأ مجاملة سمعتها."

— "هيّا، لا تفسد اللحظة."

قالها ألكسندر، وهو يرمق النجوم:

— "تذكر... الألم لا يدوم، لكن القوة التي تولد منه، تبقى."

عادا إلى المنزل، بصمتٍ أكثر دفئًا. لم تكن هناك معجزة، ولا حلّ، لكن كان هناك نور خافت... خيط أمل، بدأ يتسلل بين الشقوق.

ولأول مرة منذ أيام، نام آدم دون أن يشعر بحزن...

رغم أن قلبه كان لا يزال مثقوبًا، لكنه كان يعلم... أنه ليس وحيدًا.

العالم الأول - الفصل الثامن عشر: قلب تحت المراقبة، وسيف ينتظر أمرا

مرّت عدة أيام، تسلّلت خلالها الحياة إلى آدم من جديد كما يتسلّل الضوء من نافذة مكسورة. كان يتنقّل بين روتين المدرسة والمنزل، يحاول أن يضحك كما كان، أن يمازح كما اعتاد، أن يبدو طبيعيًا... لكن الانكسار لا يُرى دائمًا في الصوت، بل يُلمح في نظرة شاردة، أو في صمت طويل وسط ضجيج الأحاديث.

كان جالسًا في الفصل، والشمس تنسلّ من بين الغيوم لتنير الساحة الخارجية بنور رماديّ بارد. إلى جانبه جلس جوزيف، واضعًا رأسه على الطاولة، بينما كان جيروم يُقلب في دفتريْه بعشوائية.

"آدم، هل لاحظت شيئًا؟" سأل جوزيف بنبرة متكاسلة.

"أي شيء؟" قال آدم، دون أن يرفع رأسه من الورقة التي كان يرسم عليها خطوطًا بلا معنى.

"اقترب عيد ميلاد أمبر."

توقّف القلم في يد آدم فجأة، كأنما تجمّدت أصابعه.

"أحقًا؟" سأل بصوت منخفض.

"نعم، بعد يومين، يوم السبت." قال جيروم وهو يتكئ إلى الوراء في كرسيه، "وقد بدأت تُخطّط لحفلتها بالفعل."

ابتسم جوزيف بنصف فم وأضاف، "أرسلت لي أمس تطلب مني أن أساعد في الموسيقى والإضاءة."

"وأنا أيضاً..." قال جيروم، "تواصلت معي منذ ثلاثة أيام... كانت متحمسة جداً، سأحضر لها شيئاً بسيطاً."

ظلّ آدم صامتًا للحظة، ينظر إلى السطر الفارغ أمامه، ثم قال:

"لقد أرسلت لي مرة واحدة فقط... رسالة باردة، تطلب مني فقط أن أُخبر الآخرين... لا أكثر."

ساد صمت قصير، شعرت فيه الأرواح الثلاثة بأن شيئًا هشًّا كاد ينكسر في الهواء.

رفع آدم رأسه ببطء، في عينيه لمعة مختلفة، تلك التي تسبق القرار، لا العودة.

"سأعترف لها."

التفت إليه جوزيف فورًا، وقد انقلبت ملامحه من التراخي إلى التوتر، "تعترف لها؟ بماذا بالضبط؟"

"بمشاعري." قال آدم، كأنما يُخرج ذلك من صدره أخيرًا، "سأخبرها أنني أحبها."

نظر جيروم إليه بدهشة، ثم ضحك ضحكة قصيرة فيها قلق، "أوه، لا يا صديقي. فكرة سيئة جدًا. الآن بالذات؟ بعد كل ما حدث؟"

"أعلم." قال آدم، وقد استند بمرفقه على الطاولة وسند رأسه بيده، "لكن... لم أعد أحتمل هذا الثقل. أريد فقط أن أقول ما بداخلي. ما أسوأ شيء قد يحدث؟ أن ترفضني؟ لقد رفضتني مسبقًا، بطريقة غير مباشرة، بتجاهلها... وصدقاني، السكوت أقسى من كلمة 'لا' صريحة."

نظر إليه جوزيف طويلًا، ثم قال بنبرة أهدأ:

"وماذا لو خسرنا التوازن بينكم أكثر؟ ماذا لو تغيّرت الديناميكية؟"

أجاب آدم بنظرة حزينة، "إن كانت مشاعري ستخرّب شيئًا، فهي لم تكن تستحق من البداية أن تُخفى. لن أقول لها لأجل أن أكسبها، بل لأحرّر نفسي."

سادت لحظة من السكون، لم يجرؤ فيها أحد على الكلام. كان هناك شيء حقيقي في نبرة آدم، شيء مُرهَق وعميق، أشبه باعتراف متأخر أمام النفس قبل أن يكون أمام الآخر.

قال جيروم أخيرًا، وهو ينظر إلى النافذة:

"لكنك تعرف أن أمبر تغيّرت، أليس كذلك؟"

"أعرف." همس آدم، "لكن حتى لو تغيّرت، أريد أن أكون صادقًا مع نفسي. أريد أن أُغلق هذا الباب... إما بنهاية واضحة، أو بداية صادقة."

كانت الشمس تغرب ببطء، ترسم خطوطًا ذهبية باهتة على أرض الساحة المدرسية، وقد بدا كل شيء ساكنًا إلا داخله... حيث كانت العاصفة.

جلس آدم على أحد المقاعد الخشبية المهترئة، محدقًا في الأفق البعيد بلا تركيز. الهواء يعبث بشعره، وعيناه لم تغادرا تلك النقطة... هناك، على الجانب الآخر من الساحة، وقفت أمبر.

كانت تتحدث إلى ستيفاني، وعلى الطرف الآخر من الحوار كان هناك شابٌ لم يعرفه آدم، يبدو أكبر قليلًا، ذا شعرٍ مسرّح بعناية وابتسامة واثقة.

لم يكن الأمر في الكلمات التي تبادلوها — بل في الجسد، في الإيماءات، في الضحك المتواصل الذي تصاعد من أمبر، وفي الطريقة التي كانت تنظر بها إلى الشاب عندما مزح بشيء جعل كتفيها يهتزان وهي تمسك ذراع ستيفاني من شدّة الضحك.

شيءٌ في صدر آدم انكمش فجأة...

كأن قلبه رُبط بحبلٍ من شوك، وكل ضحكة من أمبر كانت تشدّه، تشدّه حتى بدا له أن أنفاسه لم تعد تطاوعه.

لم يفهم تحديدًا ما الذي آلمه أكثر...

هل لأن أمبر تضحك؟

أم لأنها لا تضحك معه؟

أم لأنها لا تراه أصلًا، وكأنه أصبح مجرّد ظلٍ عابر؟

ركّز بصره على الفتى المجهول.

ما الذي يفعله هناك؟

ولماذا تبتسم له بهذا الشكل؟

وهل كانت تبتسم له، آدم، هكذا... يومًا ما؟

وبينما كان يغرق في عاصفة من الأسئلة والغيرة والخذلان، جاءت خطوات ناعمة من الخلف، تبعتها رائحة فواكه دافئة ممزوجة بعبق النعناع.

"أدم... هل تحاول الانتحار بالنظر؟"

التفت.

أنجي.

كانت تقف أمامه بابتسامتها المعتادة، تلك التي تتقن بها التسلل إلى حزنه دون إذن. كانت ترتدي معطفًا رماديًا خفيفًا، وشعرها الأسود ينسدل على كتفيها كسواد الليل المريح.

"ماذا؟" تمتم آدم، محاولًا استيعاب وجودها المفاجئ.

جلست بجانبه بخفّة، ومدّت ساقيها للأمام بتكاسل، وكأنها جزء من المشهد منذ البدء، ثم قالت:

"أراقبك منذ ربع ساعة... تحدّق بهم كأنك تستعدّ لكتابة نعيك العاطفي."

ابتسم آدم ابتسامة باهتة، كأن روحه لم تجد القوة الكافية لسحب زوايا فمه للأعلى.

"أنجي... لا تسخري، فقط... لا اليوم."

أجفلت قليلًا، ثم نظرت إليه بجديّة نادرة، وهمست:

"أنا لا أسخر، أحمق... أنا أقرأك."

سكتت لثانية، ثم أردفت:

"أنت تحبها، أليس كذلك؟"

لم يجب. لم يكن يحتاج.

صمته كان أشد بلاغة من أي اعتراف.

أدارت أنجي وجهها نحو أمبر للحظة، ثم تنهدت وقالت بنبرة حاولت أن تبدو مرحة:

"لا بأس... ربما لديها ذوق سيء، أو ربما لم ترَ بعد ما تراه عيناك في المرآة."

التفت نحوها ببطء، نظر إلى عينيها اللتين تحملان حرارة غير مألوفة، وفي الوقت الذي همّ فيه أن يقول شيئًا، باغتته...

حضن.

دفنت رأسها في كتفه، احتضنته بدفءٍ نقيّ، بلا سؤال ولا تفسير.

ارتبك آدم للحظة، لكنه لم يُبعدها.

كانت هذه المرة، الأولى منذ أيام، التي يشعر فيها بشيء يشبه الطمأنينة.

بينما كانت أنجي محتضنة له، رفعت عينيها نحو الجانب الآخر من الساحة، حيث لا تزال أمبر تضحك.

نظرتها تغيّرت...

صارت حادة، مظلمة، وباردة كالنصل.

نظرة لا تخطئها عين...

نظرة من تُنذِر بالعاصفة.

في داخلها، لم تتكلم... لكنها فكرت:

"ستيفاني... أمبر... كل شيء يهون، لأجل ألا أخسر ابتسامته مجددًا."

ثم شدّت على آدم أكثر، كأنها تخشى أن يبتلعه الحزن مرة أخرى.

وأغمضت عينيها للحظة...

الحرب لا تُعلن دائمًا بالسيوف... أحيانًا، تبدأ بحضن

كانت شمس العصر تودّع السماء خلف الغيوم، تاركة خلفها خيوطًا ناعمة من الذهب تمتد بين الأشجار وعلى الأرصفة المبللة بندى الربيع.

يسير ثلاثتهم على مهل: آدم، جوزيف، وجيروم.

الأحاديث تتناثر بينهم بخفّة، وشيء ما في جوّهم يوحي بأن غيمة سوداء انقشعت.

آدم... لم يعد كما كان قبل أيام.

صحيح أن الحزن لم يغادر ملامحه كليًّا، لكن تلك النظرة الزجاجية التي كانت تخيم على عينيه بدأت تذوب، كأن شيئًا دافئًا تسرّب إلى داخله. ابتسامة خفيفة ارتسمت على فمه، ليس بفعل نكتة أو تعليق، بل كأنما بفضل شيء... أو شخص.

اقترب جوزيف من جيروم قليلًا، وهمس دون أن يحوّل نظره عن آدم:

"أتلاحظ؟... إنه أفضل حالًا."

نظر إليه جيروم بهدوء وقال وهو يضيق عينيه:

"أنجي، أليس كذلك؟"

أومأ جوزيف برأسه:

"هي وحدها التي عرفت كيف تلمّه وهو يتهاوى... لا عجب، تلك الفتاة ليست عادية."

في تلك اللحظة، توقف آدم فجأة.

التفت نحو نافذة زجاجية صغيرة، خلفها محل قديم تملأ واجهته أشياء متنوعة، من التحف الصغيرة إلى القلائد والخرزات اليدوية.

عينيه استقرتا على قلادة فضية بشكل وردة لوتوس.

كانت تتدلّى بهدوء من مسمار خشبي صغير. التصميم ناعم، تفصيلي، كأن بتلاتها ستتحرك مع النسيم. في مركزها حجر لامع، خافت الضوء، يضفي عليها هالة من الغموض والجاذبية.

ظلّ يحدّق فيها لحظة، ثم تمتم:

"قد تكون هذه... مناسبة."

"مناسبة لماذا؟" سأل جيروم، لكنه لم يتلقَّ جوابًا.

فقط ابتسامة بسيطة من آدم، وهو يسجّل في ذهنه صورة القلادة، كما لو كانت خيطًا سيمتدّ بينه وبين أحدٍ ما.

حين دخل آدم المنزل، كان كل شيء يبدو طبيعيًّا في الوهلة الأولى.

الهدوء يعمّ المكان، رائحة الكتب القديمة والقهوة الباردة تعبق في الأرجاء، لكن سرعان ما لاحظ أن هناك ما لا يبدو في مكانه.

ألكسندر.

كان يجوب المنزل جيئة وذهابًا.

مرة يقترب من النوافذ ويزيح الستائر سريعًا ليتفقد الخارج.

مرة أخرى يفتح الباب الأمامي، يتأمل الشارع، ثم يغلقه بهدوء متوتر.

عندما لاحظه آدم، قال بخفّة مترددة:

"ألكس؟ ما الأمر؟ هل هناك لصوص في الحي؟"

رفع ألكسندر رأسه، ونظر إليه بعينين متعبتين، كأن النوم قد خاصمه منذ ليالٍ. ثم تمتم بنبرة منخفضة:

"لا... لا لصوص. ليس من هذا النوع على الأقل."

اقترب منه آدم، متجهمًا:

"ألكسندر، ما الذي يحدث؟ أنت تتصرف كمن ينتظر نهاية العالم."

لم يجب مباشرة.

بل تردد، كأن هناك شيئًا في عقله يدور لكنه غير مستعدّ لإطلاقه.

ثم قال بصوت خافت، كأنما يخشى أن يسمعه الجدران:

"هناك... شيء في الطريق، آدم. لا أعلم متى سيحدث، أو كيف... لكنني أشعر به. إنه يقترب."

"شيء؟" سأل آدم وقد تجمدت نظرته.

"ربما خطر... أو اختبار. لكنني لا أستطيع تجاهل هذا الإحساس. إنه عميق... كما لو أن شيئًا ما من الماضي بدأ يتحرك، يعود، يطرق الأبواب القديمة."

بقي آدم صامتًا للحظة.

هذه ليست المرة الأولى التي يرى فيها ألكسندر على هذا الحال، لكنه هذه المرة بدا خائفًا، نعم، ألكسندر نفسه، الذي لا يخشى أحدًا، بدا كمن ينتظر صفعة مجهولة من قدر يعرفه وحده.

سأل آدم أخيرًا:

"هل هناك ما يجب أن أعرفه؟"

أجاب ألكسندر بنظرة مطوّلة، وكأن في عينيه ألف كلمة لم يُنطق بها، ثم اكتفى بالقول:

"ليس بعد... لكن كن على استعداد، آدم. أحيانًا، تتسلل المصائب مثل الهمسات، لا نراها... حتى تصير صراخًا في وجهنا."

في الخارج، كانت السماء قد احمرت بالكامل.

لون الدم فوق رؤوسهم.

وفي قلب المنزل...

تحت سكونٍ خادع، كان شيء ما يتحرك بصمت.

كان الليل قد انزلق على المدينة بهدوء، تاركًا المنازل تغطّ في سباتٍ ثقيل، والأصوات تبهت حتى تختفي كأنها ذابت في السكون. في غرفته، كان آدم ممددًا على فراشه، جسده ساكن، لكن ذهنه ظلّ عالقًا بين أطياف الترقب، يحوم حول كلمات ألكسندر الغامضة، وما ألقته من ظلالٍ ثقيلة في صدره.

مرت الدقائق... ثم الساعات.

وغاب وعيه رويدًا رويدًا... حتى دخل ذلك النفق الرمادي الذي يفصل بين الواقع والحلم.

الفراغ. من جديد.

كان هناك... واقفًا وسط اللاشيء.

نفس الفضاء الغريب، الممتد في كل اتجاه دون بداية أو نهاية، تلك المساحة التي لا أرض فيها ولا سماء، فقط ضباب شاحب يتلوّى ككائنٍ حي، يهمس من بعيد بأصوات لا تُفهم.

لكن، هذه المرة، لم يكن الظلام بنفس الوحشية.

كان أخفّ، كأن شيئًا من الضوء ينفذ عبره، لا ينير الطريق تمامًا، بل يخلق خطوطًا باهتة تومض وتختفي... تكفي بالكاد لرؤية بعض المعالم المجهولة.

آدم، وقد استجمع شتات نفسه، بدأ يمشي.

خطوة بعد خطوة... وصدى قدميه لا يعود إليه.

هدوءٌ يخترق الصدر ويضغطه.

كل نفس يسحبه يشعره وكأنه يسحب معه جزءًا من وجوده.

ثم... من بعيد، بدأ يلمح شيئًا.

هيئة بشرية... جالس على شيء لا يمكن وصفه تمامًا، كأنه جسم عضوي، ناعم في ظاهره، لكنه ينبض كما القلب.

وعلى ظهره، متكئًا بخفة... كان هناك السيف.

نفس السيف الغريب.

سيف ذو نصلٍ أسود يلمع بخطوط زئبقية، ويد تشبه في تصميمها عقرب الساعة... متقن، منحني، وكأنه يقيس الزمن لا يقطعه.

ما إن اقترب آدم حتى رفع الغريب رأسه.

كان وجهه ما يزال... غامضًا.

ملامحه ضبابية، لا يمكن تثبيتها، كأنها تنتمي لكل الرجال ولا أحد منهم.

لكن صوته؟

كان واضحًا، ثابتًا، يحمل نغمة لم يسمعها آدم من قبل، فيها وقار خافت، ونبرة راحة مخيفة.

قال الغريب وهو ينهض ببطء:

> "يا سيدي الشاب... عدتَ."

آدم توقف، مبهورًا، لكنه لم ينبس.

تابع الرجل وهو يسير نحوه:

> "أعلم أنّ هناك الكثير يدور في رأسك... وأعلم أن هذا المكان ليس مألوفًا، لكنك... معتاد عليه، بطريقة ما."

صمت لثوانٍ. ثم نظر إلى آدم مباشرة:

> "جئتُ فقط... لأذكّرك."

هتف آدم أخيرًا، مترددًا:

"تذكّرني؟ بماذا؟ من أنت؟"

ابتسم الغريب، ابتسامة باهتة، وقال:

> "أنا ظلّ الحقيقة... أو مَن تبقّى منها. لا يهم الآن من أكون. المهم، أن تنتبه... يا آدم."

تقدّم خطوة، وأصبح صوته أكثر جدية:

> "الفترة القادمة... لن تكون سهلة. ستحاول الأشياء من كل جانب أن تشوّهك، أن تسلب منك جوهرك. لا تخف من الألم، بل من ما قد تفقده أثناء تحمّله."

ثم أشار إلى قلبه:

> "ابقَ قويًّا... لأن هناك من ينتظر سقوطك."

في تلك اللحظة... بدأ المكان يهتزّ.

الضباب تراجع فجأة.

وانفجرت من قلب الظلمة سلاسل ضخمة من طاقة رمادية، تلتفّ، تتمدد، وتشدّ في كل اتجاه.

صوت يشبه طحن المعادن علا في الفراغ، وظهر في السماء المفتوحة قفلٌ عظيم على هيئة ساعة، عقاربها تتحرك عكس الزمن.

صرخ آدم:

"ما هذا؟!"

لكن الغريب قال بثبات وهو يختفي في السلاسل:

> "ذلك... هو الختم. كُلُّ شيءٍ له توقيت... حتى أنت."

استيقظ آدم فجأة.

شهقة عنيفة خرجت من صدره، كأنه صعد من أعماق محيط لا هواء فيه.

العرق يغمر جبهته.

صدره يعلو ويهبط.

عيناه تفتشان السقف، كأن بقايا الحلم عالقة عليه.

جسده كله متوتّر، كأن عضلاته لم تنم.

جلس على السرير ببطء، وضع يده على قلبه...

كان ينبض بشدة، لا كخوف، بل كتحذير.

همس لنفسه، وقد ارتجف صوته:

"من... كان ذلك؟ وما معنى الختم؟"

ثم نظر إلى نافذته.

الفجر بدأ يتسلّل، والظلال تتراجع.

لكنه يعلم... أن الظلال لا تختفي.

هي فقط... تنتظر.

العالم الأول - الفصل التاسع عشر: بداية النهاية

كان صباح السبت مشرقًا على نحو غريب، كأن الشمس قد تواطأت مع قلب آدم ليقنعاه أن هذا اليوم يستحق المحاولة.

فتح عينيه ببطء، وأول ما لاحظه هو سكون غير معتاد في المنزل... لا صوت خطوات، لا رائحة قهوة ألكسندر، ولا حتى صدى من تلك الموسيقى التي اعتاد تشغيلها كل صباح.

نهض من فراشه، جلس للحظة يحدّق في الأرض وكأن قلبه يحاول أن يلتحق بجسده. التقط هاتفه وتفقّده... لا جديد. تنفّس بعمق، كما لو كان يهيّئ صدره ليوم قد يكون فاصلاً.

دخل الحمام، غسل وجهه بماء بارد كالصقيع، ثم وقف أمام المرآة يتفحّص ملامحه. "اليوم، إمّا أن تُكمل الطريق... أو تُطفئ الشمعة الأخيرة."

ارتدى قميصًا رماديًا داكنًا، أزراره مشدودة بعناية، بنطالًا أسود أنيقًا، وربطة عنق بسيطة لم يلبس مثلها منذ زمن طويل. صفف شعره بعناية، ولامس عنقه بعطرٍ هادئ، يشبه شخصيته الصامتة في أعماقها.

وحين خرج من غرفته، تفاجأ بأن الطاولة الخشبية في الممر تحمل باقة وردٍ أنيقة، مغلّفة بعناية، وبجانبها بطاقتان صغيرتان.

أمسك بالبطاقة الأولى... كانت فارغة.

أما الثانية، فقد كُتب عليها بخطٍ واضح:

"بالتوفيق، آدم. - ألكسندر"

ابتسم بخفة، لكن عينيه احتفظتا بذلك الحزن الذي لا يريد أن يغادر. أمسك البطاقة الفارغة، وذهب إلى غرفته مجددًا.

جلس على الطاولة الصغيرة، وتنفّس ببطء، ثم أمسك القلم، وتردد.

"إلى من كان حضورها كفصلٍ جميل، وانسحابها كشتاءٍ لا ينتهي...

ربما لا أملك الشجاعة الكافية لاحتلال قلبك، لكنني أملك صدقي، وهذا كل ما أقدمه."

طوى البطاقة ووضعها بين زهور الورد، ثم حمل الباقة بين يديه.

نظر لمرآته لثوانٍ، وكأنه يستشير ذاته للمرة الأخيرة، ثم قال:

"فلنمضِ... فالندم أهون من الصمت الأبدي."

غادر المنزل.

والشمس التي كانت في أعلى السماء، لم تكن أكثر إشراقًا من تلك الشعلة التي كانت لا تزال تحترق بصمت داخل قلبه.

وفي الطريق إلى المتجر، كان آدم يسير بخطى هادئة، لكن كل جزء فيه كان يركض...

يركض إلى المجهول، إلى احتمال مبهج... أو سقوط قاسٍ.

لكنّه لم يكن يخشى النتيجة.

كان فقط يأمل... أن يُقدّر أحدهم صدقه

بالدهشة.

كان الهواء في قاعة النادي مشبعًا بنكهة التوت المجفف والقهوة الرخيصة، والأنفاس المزدحمة بنقاشات متقطعة وأصوات ضحك مُصطنعة. جلست أمبر عند طرف الطاولة، يدها تسند خدها، ونظرتها تائهة في النقطة العمياء من الفراغ.

قالت بنبرة تحمل ظلال الإحباط:

.لم أكن أرغب في القدوم اليوم... تخيّلوا، عيد ميلادي، وأنا في المدرسة.

ردّت ميرا برقة محاولة التخفيف من حدّة شعورها:

.لكننا هنا لنحتفل بكِ على طريقتنا، أنتِ نجمة اليوم!

قهقه ستيف بنصف مبالاة وهو ينظر إلى هاتفه:

ـ أجل، نجمة عالقة في قاعة خانقة.

ضحكت لونا بخفوت، بينما التفتت ستيفاني نحو أمبر وقد علت شفتيها ابتسامة تشي بالانتصار وقالت:

ـ على كلٍّ، هديتي لكِ ستكون عطراً خاصاً... يلائم موعدك القادم مع الفتى الجديد.

تجمّد الجو.

ارتفعت الحواجب، سقطت النظرات، وبقيت لحظة الصمت تطفو بين الكلمات.

قال جيروم، وقد تلبّسته الدهشة:

ـ موعد؟ أمبر، هل تواعدين أحدًا؟

هزّت كتفيها لا مبالية، وأجابت بنبرة مفرطة في البرود:

ـ ليس تمامًا... فقط لقاء بسيط لأتعرّف عليه، لا أكثر.

ارتجف شيء ما داخل لونا، وبدت في ملامحها شروخ غير مرئية، وكأن قلبها انكمش دون إذن. همست:

.وماذا عن آدم؟

قبل أن تنبس أمبر بحرف، سبقتها ستيفاني وقد وضعت ساقاً على الأخرى، وقالت بضحكة ساخرة:

.وما شأن ذلك الفاشل؟ آدم بالكاد يستطيع إدارة حياته... تظنونه شريكًا محتملاً؟ أرجوكم.

وفي لحظة غير مسبوقة، انفجر جوزيف غاضبًا، صوته ارتفع، وعيناه اشتعلتا بحريق قديم:

.كفى. كفى هراء! أنتِ السبب! أنتِ مَن خرّبتِ كل شيء بينه وبينها!

أنتِ مَن جعلتِها تشك فيه، تبتعد عنه، تدمّره!

آدم ليس فاشلاً! الفاشلة هي من ترى الكمال نقمة!

من أنتِ لتقرري من يستحق الحب؟

ساد الصمت مجددًا... جيروم، الذي صُدم أولاً، استعاد توازنه ثم تقدّم خطوة إلى الأمام وقال:

.أنتِ تجاوزتِ كل حدودك، ستيفاني... كيف تجرئين على الحديث عن صديقي بهذا الشكل؟!

آدم ليس أقل من أحد... بل هو أعلى من الكثير.

مشكلتكم أنكم لا ترون ما لا يُقاس بالعين.

قالت ستيفاني بسخرية جارحة:

.وهل ترونه ملاكًا؟ لا أرى فيه إلا انكسارًا وضعفًا... لن يصلح أبدًا لأي علاقة.

جيروم، وقد بدا كمن انفجرت في داخله قنبلة من الغضب، تقدّم خطوة أخرى، ونظر حوله إلى الجميع:

.لنكن صرحاء... لنقارن بموضوعية.

رفع سبّابته مشيرًا إلى جاسمين:

.لدينا جاسمين، الجسم الفاتن، الرقة الخالصة.

ثم إلى لونا:

.لونا؟ الطيبة، النقاء، الملائكية تمشي على الأرض.

ثم إلى ميرا:

- ميرا؟ الذكاء، الفطنة، والاتزان.

وقال بنبرة امتنان حار:

- وكل هذا... كلّ ما سبق... وأكثر... لدينا في أنجي.

أنجي التي كانت السند، والملاذ، والحصن... التي تستحق ألف اعتراف حب.

وصمت لبرهة، ثم تمتم بغضب:

- ومع ذلك... وقع قلبه عليكِ... لا أدري بأي منطق، لكنه فعل.

صدق من قال: الحب يعمي.

همّت أمبر بالدفاع عن نفسها، ولكن جيروم قطعها بحزم:

- من تظنين نفسكِ؟

أنتِ لستِ مميزة، لستِ فريدة.

في العادة لا أدافع عن أحد، ولكن آدم حالة خاصة...

آدم يستحق من ترى فيه رجلاً، لا من تتعالى عليه وكأنها آلهة.

ثم أردف بتنهيدة حارقة، قاصفًا بجملته الأخيرة:

.لا تستحقينه حتى بجسدك المسطح ذاك... على الأقل، لو امتلكتِ شيئًا من الجمال، لهان الأمر.

خيم على الغرفة صمتٌ ثقيل بعد تفجّر الكلمات من فم جوزيف وجيروم...

كل الأنظار توجّهت نحو أمبر.

نظرات تنتظر.

نظرات تطلب منها كلمة... توضيحًا... دفاعًا... ندمًا... أي شيء.

أما ستيفاني، فابتسمت. تلك الابتسامة المستفزة، المملوءة بالغرور، وهي تسند ظهرها على المقعد وتمدّ ساقيها للأمام وكأنها خرجت منتصرة من معركة.

لكن الباب فُتح فجأة...

بهدوء جليدي...

خطوات ناعمة لكنها ثقيلة، كأنها تدقّ على عظام الأرواح، لا على الأرض.

دلفت أنجي.

كانت تقف بثبات عند المدخل، ترتدي معطفها الأسود الطويل، شعرها مربوط بإحكام، ونظرتها...

كانت نظرة شيطان خرج من قبره فقط ليقتص.

اللون في وجه ستيفاني تلاشى، ويداها ارتجفتا بوضوح، كأنما الموت قد أطلّ من تلك العينين.

تقدمت أنجي ببطء.

كل من في الغرفة ابتعد خطوة إلى الوراء... لا أحد أراد أن يكون بين نيران الغضب.

ثم قالت، بصوت هادئ... هادئ جدًا...

"ممم... سمعتك تقولين شيئًا يا عزيزتي ستيفاني؟ شيء عن... آدم؟"

تلعثمت ستيفاني:

"أنا... لا... لم أكن-"

قاطعتها أنجي وقد اقتربت منها حتى لم يعد هناك سوى فراغ ضئيل بين وجهيهما:

"كأنني سمعتك تلفظين اسمه مرفقًا بلقب قذر... أم أنّ خيالي أصبح خصبًا فجأة؟"

قالت ستيفاني، وهي تحاول الحفاظ على توازنها:

"أنتِ تسيئين الفهم... أنا فقط-"

لكن قبل أن تكمل،

جوزيف قال بحدة:

"لا، لم تُخطئ أنجي بشيء. لقد قالتها بوضوح."

جيروم أومأ:

"كلنا سمعنا. حرفيًا كلنا."

الجميع كانوا شهودًا...

ما عدا أمبر.

أخفضت أمبر عينيها، يداها تشابكتا على حجرها، لم تنبس بكلمة.

أنجي نظرت إليها... ولم تقل شيئًا، لكنها فهمت.

ثم وجه الجميع أنظارهم نحوها.

تنتظر الغرفة جوابها، الحكم الأخير.

أخذت نفسًا عميقًا وقالت:

"آدم... فتى جيد. لكنه فقط ليس مناسبًا لي."

قالتها بنبرة عادية، لكن كلماتها التي تلتها كانت كصفعة في وجه الواقع:

"هو دائم الصمت، لا يعرف كيف يعبر، دائمًا غامض... يملك طاقة حزينة تلتف حوله... وأشعر بالاختناق حين أكون بقربه. لا أستطيع تحمّله."

الصدمة ارتسمت على الوجوه.

أما أنجي...

فلم تتكلم.

لكن عروق رقبتها كانت نابضة كأنها على وشك الانفجار.

هنا، لم يعد جيروم قادرًا على الصمت، وضرب الطاولة بيده:

"كلامكِ لا يُصدّق...!"

ثم أشار إليها بإصبعه، والغضب يتأجج في عينيه:

"الخطأ موش خطأك، بل خطأنا نحن لأننا سمحنا له أن يحب إنسانة لا تعرف كيف تحسّ! آدم وضعك في مقام عالي، وأنتِ لا تستحقين!"

أمبر:

"أنا لم أطلب منه أن يحبني..."

جيروم، وهو يضحك بمرارة:

"لا، لكنكِ أعطيتِ إشارات، وأبقيتِه في حالة انتظار... فقط لتكسريه في اللحظة المناسبة!".

ارتسم الغضب على وجه أنجي كعاصفة محتدمة، اشتعلت عيناها بحمرةٍ شرسة، وارتفعت أنفاسها بتوتر غير مُسيطر عليه. ارتفعت يداها فجأة، وكادت أن توجه لكمة قوية نحو أمبر، لكن ما إن اقتربت خطوة واحدة حتى تجمدت في مكانها، كأنّ قوة خفية أوقفتها.

كان خوفٌ عميقٌ يسري في أعماقها، خوف من رد فعل أدم إذا ما سمع بهذا المشهد، خوف من أن يتحول الغضب إلى عاصفة لا يمكن السيطرة عليها. خفضت يدها ببطء، وتراجع جسمها قليلًا، بينما ظلّت نظراتها ملتهبة، تنذر بانفجار قادم لو استمر الوضع.

في تلك اللحظة، كان صمت المكان ثقيلًا، يختلط برائحة التوتر والرهبة، بينما كان كلٌ من حولهم يراقب بشغف تلك اللحظة التي كادت تتحول إلى مواجهة لا تُحمد عقباها.

لم يكن يعلم آدم، حين اقترب من قاعة النادي، أن خطواته تقوده نحو لحظة ستُحفر في أعماقه كجرح لا يندمل. كان يحمل باقة ورود صندوقًا صغيرًا مغلفًا بعناية، فيه تلك القلادة التي اختارها بعناية... وردة لوتس نادرة، ناعمة التفاصيل، تشبه في نظره تلك الفتاة التي سكنت قلبه.

اقترب بخفةٍ، فسمع ضجة من الداخل. شيء ما في نبرة الأصوات جذبه... توتر، غضب، وأصوات متقطعة. وضع يده على المقبض، وقبل أن يفتحه، تجمّد جسده حين التقط أذنه الاسم الذي ظل يُردد في ذاكرته ألف مرة: اسمه.

صوت أمبر، واضحًا، باردًا، حادًّا كسكين يشق القلب:

> "أدم؟ ذلك الضعيف؟ هل نسيتم من هو؟ مجرد تابع يلاحقني مثل ظلٍ بلا شكل... لا طموح، لا هدف، لا شيء! حتى وجوده يشعرني بالاختناق... كل مرة يتحدث أشعر وكأني أستمع إلى طفل يتوسل الحب... إنه عارٌ على من تحاول تسميته حبيبًا!"

توقفت أنفاس آدم.

شحب وجهه، واحمرت عيناه في لحظة خاطفة. سقط الصندوق من يده، وارتطم بالأرض بصوت خافت، لكن في أذنيه كان كأن العالم كله قد انهار.

بدأ صدره يعلو ويهبط، كما لو أن الهواء قد خانه. يداه ارتجفتا، وانزلق ظهره ببطء ليسند نفسه على الحائط البارد. ارتجف جسده كما لو أن صقيعًا اخترق عظامه. نبضات قلبه لم تعد مجرد خفقان... بل كانت صرخات ألم، عنيفة، تتصادم في صدره بلا رحمة.

أغمض عينيه بقوة، كأن الظلام قد يطفئ ما سمع.

لكن الصوت بقي... محفورًا في ذاكرته، يتكرر: "عار... اختناق... طفل... لا شيء."

تجمد الوقت من حوله، تلاشى كل شيء. أصوات الحياة اختنقت. حتى الدموع... لم تنهمر، بل تجمدت في محاجرها، عاجزة عن أن تعبّر عن الخراب العميق الذي اجتاحه.

أحس بشيء ينهار في داخله، شيء ثقيل، كبير، كان يظنه ثابتًا. قلبه؟ كرامته؟ أمله الصغير؟ لا يدري، لكنه كان سقوطًا كاملاً، صامتًا ومروعًا.

بدأ صدره يؤلمه، كأن شيئًا يضغط عليه بلا شفقة. رأسه يدور، والمكان يتمايل من حوله. زحزح نفسه بصعوبة، وسار مبتعدًا كأنه يسير في حلم ثقيل. كل خطوة كانت كأنها تجترّه بعيدًا عن كل ما كان يؤمن به.

كان يحاول فقط أن يتنفس.

أن يبقى واقفًا.

أن لا ينهار في ممر المدرسة، كطفل كُسرت لعبته المفضلة أمامه.

لكن الحقيقة كانت أوضح من أن تُنكر:

قلبه قد انكسر.

وهو الآن مجرد شظايا متناثرة... لا أحد يراها، ولا أحد سيجمعها.

في الداخل، كان الجو متوتراً، وكأن الشرارة الأخيرة تنتظر فقط نسمة صغيرة لتنفجر.

أمبر ما تزال واقفة، وجهها لا يعكس ندمًا ولا خجلاً، بل شيء أشبه بالانتصار الوهمي، ذلك النوع من الكبرياء الهشّ الذي يُغذي نفسه من وهم السيطرة...

وكانت لا تزال عيناها تحملان نبرة التحدي.

لكن جوزيف، الذي كان يراقب بصمت، لم يعد قادرًا على الاحتمال. يده قبضت على الهواء، فكاه انغلقا حتى صرّت أسنانه بصوت مسموع، وصدره يرتفع وينخفض كمن يحاول أن يحبس إعصارًا داخله.

صرخ فجأة، والغضب يتفجّر في نبرته:

> "لقد كَسَرته! سحقًا لكِ، سحقًا لكل حرف تفوّهت به! أنتِ... لا تستحقين حتى ظِلّه!"

اندفع نحوها، ذراعه ممدودة، جاهزة لصفعة كانت ستُكتب في ذاكرة الجميع، لولا أن يدين تدخلتا في اللحظة الأخيرة يد ألكس من جهة، وذراع ميرا من الجهة الأخرى.

شدّاه للوراء، بكل قوتهما، وقد ظهر على وجه ألكس توتر غير معهود، وعينا ميرا تتوهجان بخوف حقيقي.

جوزيف صرخ من بين أسنانه وهو يقاوم الإمساك به:

> "دعوني ألقّنها درسًا... دعوني فقط دقيقة واحدة... دقيقة!!"

وهنا، كانت أنجي تتحرك بهدوء شديد، ذلك الهدوء الغريب الذي لا يسبق إلا العاصفة. اقتربت من جوزيف، نظرت إليه بثبات، ثم وضعت يدها على صدره تدفعه برفق إلى الوراء.

قالت بصوت ناعم... ناعم لدرجة مخيفة:

> "لا ترفع يدك على سيدة يا جوزيف... مهما كان."

أمبر، وقد ارتفع ذقنها قليلًا، تباهت للحظة. رفعت حاجبها بازدراء، ونظرت إلى أنجي بنظرة مليئة بالسخرية والغرور، كأنها تقول: ها هي تدافع عني رغم كل شيء.

لكن السكين الحقيقية كانت في الجملة التالية التي خرجت من فم أنجي بهدوء قاتل، وصوت انخفض لدرجة تشبه همسات الشياطين:

> "حتى وإن كانت... عاهرة."

ثم، دون سابق إنذار - ارتفعت ركبتها وارتطمت بجبهة أمبر في حركة مفاجئة، دقيقة، صاعقة.

لم يكن هناك تردد، ولا تحذير، فقط غدر عنيف بحجم الغضب المكبوت.

اهتز جسد أمبر بعنف وسقطت على الأرض، متكوّرة، تتأوه بصوت مكتوم وهي تمسك رأسها، الدم يسيل من أنفها ببطء.

القاعة تجمّدت.

ستيفاني شهقت، تراجعت خطوة، ووضعت يدها على فمها، قبل أن تلتفت بخوف لأنجي وتهمس لأمبر:

> "توقّفي... توقفي فورًا! لا تقولي شيئًا آخر! أرجوكِ... توقفي!!"

وجه ستيفاني شحب كأنها رأت شبحًا يخرج من الجحيم نفسه. أنجي لم تكن فقط غاضبة، بل كانت... وحشًا يبتسم دون شفقة.

جيروم انفجر ضاحكًا رغم الموقف، بينما يضع يده على فمه ليكتمها:

> "يا إلهي... ركبة بالرأس؟ أنجي، أنتِ بطلة العالم الجديدة!"

جوزيف، رغم ما حدث، رفع حاجبيه بإعجاب، وقال بنبرة فخر:

> "أنا لم ألمسها، لكن الحمد لله... شخص آخر تكفّل بالمهمة."

ميرا وضعت يدها على جبينها وغمغمت:

> "أوه أنجي... لماذا أنتِ هكذا دائمًا؟"

أما ألكس، فكان يراقب بصمت، عيناه مملوءتان بتأمل ثقيل... وكأنه يعرف أن هذه اللحظة، وهذا الانفجار، ليس إلا بداية انهيار أكبر قادم.

وفي الزاوية، كانت أمبر تحاول النهوض... ليس بجسدها فقط، بل بكبريائها المهشّم... وقد بدأ يدرك قلبها، ولو متأخرًا، أن ما خسرته قد لا يُعوّض أبدًا.

كان الصمت قد خيّم بعد ضربة أنجي. الصدمة تبلّدت على ملامح الجميع، لا أحد تجرأ على تحريك ساكن. الأنفاس مكبوتة، والأنظار متجهة نحو أمبر المنهارة أرضًا، فيما ظلت أنجي واقفة فوقها، كأنها حارسة جحيم تُراقب فريستها الأخيرة قبل أن يُسدل الستار.

وفجأة... فتح الباب، صوت الخشب وهو ينفتح كان كطلق ناري في ساحة حرب. التفتت الأنظار تلقائيًا، وكأن العالم بأسره عاد للدوران.

كانت جاسمين، واقفة هناك، نصف جسدها داخل الفصل، ونصفه خارجه. شعرها مضطرب، وجهها شاحب، ويدها ترتجف وهي تحمل صندوقًا صغيرًا مغطى بقطعة قماش مخملية حمراء، ومعه باقة زهور أرجوانية بعبق زهرة اللوتس.

عينها الواسعتان تدوران في وجوه الحاضرين، بين أمبر الممددة، وأنجي المتجهمة، وجوزيف المتشنج، وستيفاني التي بدت وكأن الحياة تسربت منها.

ثم قالت، بصوت مبحوح، متقطع، فيه توتر حاد:

> "أعتقد... أعتقد أن كارثة قد حلّت علينا..."

"آدم... كان خلف الباب."

"سمع كل شيء."

صمت ثقيل. ثم... كأن العبارات اخترقت جمجمة الجميع دفعة واحدة.

جيروم سقط على كرسيه، كمن تلقى لكمة في بطنه، ووضع يديه على رأسه قبل أن يطلق صرخة منخفضة:

> "يا ويلنا... ويا سواد ليلنا..."

ميرا وضعت يدها على فمها، ترتجف، بينما تسربت من عينيها دمعتان خفيفتان.

ألكس خفض بصره، وغصّ ريقه. بدا كأن الأرض قد انقلبت تحت قدميه.

جوزيف صرخ فجأة وهو يركض نحو النافذة:

> "آدم! آدم! انتظر، أرجوك!!"

لكن ما رأوه في الأسفل كان شيئًا لن يُنسى بسهولة

في الخارج:

كان آدم يركض مبتعدًا، لا بل يقفز من الطابق الثاني، يمرّ من خلال النافذة المفتوحة بلا أدنى تفكير.

جسده ارتطم بالأرض بشدة، لكنه نهض فورًا وكأن الألم لا يعنيه، وكأن الجراح التي في صدره أعمق بكثير من خدوش الجسد.

وجهه كان خاليًا من الملامح، عينيه زجاجيتين، نظراته تائهة وكأن كل ما فيه انكسر دفعة واحدة، وكأن الكون كله لفظه خارج حضنه.

في لحظة السقوط، لم يصرخ. لم يتأوّه. فقط... سقط بصمت.

وركض.

هرب من الضجيج، من الوجوه، من الأصوات، من كل شيء...

هرب من الحقيقة التي طعنته بلا رحمة، أمام الجميع.

صوت جوزيف وجيروم يتردد من فوق:

> "آدم!! توقف، أرجوك!!" "آدم، لا تفعل هذا بنفسك!!"

لكن آدم لم يلتفت، ولم يتوقف... فقط الجري...

جريٌ كأنه يبحث عن مخرج من الجحيم الذي انفجر داخله.

في الداخل مجددًا:

أنجي، ما تزال واقفة بجانب أمبر، كانت تصغي بصمت مشحون.

الضوء الرمادي النافذ من النافذة انعكس على نظارتها، فحجب عينيها للحظة. ثم، التفتت ببطء نحو ستيفاني، تلك التي بدأت تتراجع خطوة إلى الوراء، وكأنها تعرف أن دورها قد حان.

اقتربت منها أنجي... ببطء شديد، خطواتها كدقات نعش يقترب من صاحبه.

ثم انحنت قليلًا، واقتربت من أذنها وهمست، ببرودة مخيفة:

> "أنتِ هالكة يا ستيفاني..."
"آدم سمع كل شيء."
"ومهما فعلتِ... لن أرحمك هذه المرة."

ارتعشت ستيفاني، عضّت على شفتيها، ويدها تمسح عرقًا وهميًا عن جبينها. ملامحها فقدت توازنها، كأن كل الأقنعة سقطت دفعة واحدة.

تراجعت، وهمست:

> "أنا... أنا لم أقصد... لم أعرف أنه كان هنا..."

لكن أنجي لم تجب. نظرت لها بنظرة جعلت حتى الظلال في الغرفة تنكمش.

في زاوية من ساحة المدرسة الخلفية، بعيدًا عن عيون الجميع، جلس آدم كمن انفصل عن هذا العالم. الريح الباردة تعبث بشعره، تمرّ فوق خديه المجروحين دون أن يشعر، كأن الحواس فيه تعطّلت... أو بالأحرى، ماتت مؤقتًا.

كل شيء في صدره كان ينهار بصمت، بصوت لا يسمعه أحد سواه.

جسده مرهق، رأسه يدق كطبل فارغ، والقلب... قلبه يُخنق تحت وطأة خيبة لا توصف. جلس مستندًا إلى جدار المدرسة، ساقاه ممدودتان، ويداه على الأرض كأنها تمسك به لتمنعه من السقوط أكثر مما سقط.

عيناه نصف مفتوحتين، تحدّقان في اللاشيء. شفتاه تتحركان بصوت لا يُسمع أولًا، ثم... بدأ يتمتم:

> "كيف يمكن أن يحدث هذا؟... هل كنت أتوهم؟

هل كل ما عشته معها كان مسرحية؟"

ومع كل سؤال، كانت ضلوعه تضغط أكثر، قلبه يتمزق أكثر، والهواء يضيق في رئتيه.

صورة أمبر تمرّ أمامه، تضحك، تنظر له، تقترب منه... ثم تُستبدل فجأة بوجهها القاسي، نظرتها الساخرة، كلماتها التي طعنته بلا رحمة...

> ("فتى ساذج... لا يليق بشيء... مجرد عالة...")

بدأت ضحكة هستيرية تشق شفتيه، مزيج من السخرية والخذلان. ضحكة من لا يصدق حجم الألم.

رفع رأسه، نظر إلى السماء الرمادية وقال بصوت مشوّش:

> "كم أنا غبي...

صدّقت أنني أستحق الحب...

لا أحد أحبني يومًا، لا عائلتي، ولا من ربيت قلبي لأجلها.

من وجد الرفض في أهله، لن يجد القبول في أحد.

كأنّي حقًا كنت سأجد الخير فيها؟... أنا لا أُولد للحب... أنا مجرد خطأ."

ضحكته ارتفعت أكثر، وجسده بدأ يرتجف من شدة التوتر، أو البرد، أو الإثنين معًا. عينيه مغرورقتان، والدمع لا ينزل، فقط يحترق داخله.

وفجأة... صوت محرك يكسر الصمت، سيارة سوداء ذات نوافذ معتمة تتوقف أمامه.

النافذة الأمامية تُفتح ببطء، ويظهر منها رجل بلباس الشرطة، بوجه صارم لكن ليس خبيثًا. عيونه فاحصة، تتأمل ملامح آدم المشوشة.

قال بصوت هادئ، لكن يحمل في نبرته ما يكفي لإثارة التوتر:

> "أنت... هل أنت آدم؟ آدم، الابن المتبنّى لألكسندر فولتير؟"

جفّ حلق آدم. توسعت حدقتا عينيه، وجسده كأن صعقة كهربائية اجتاحته للحظة. قلبه بدأ ينبض بسرعة.

رفع رأسه قليلًا، ونطق بالكلمة بصوت منخفض، متردد:

> "نعم... أنا هو."

ردّ الشرطي دون أن يوضح شيئًا:

> "تعال، أركب معنا. يجب أن تأتي حالًا. الأمر عاجل."

تجمّد آدم في مكانه للحظة، لا يعرف ما الذي يحدث. هل ألكسندر في خطر؟ هل ارتكب هو خطأ دون أن يدري؟ أم هل القدر قرر أن يضيف عبئًا آخر فوق صدره الذي لم يعد يحتمل؟

وقف بصعوبة، ساقاه ثقيلتان كالرصاص. خطواته بطيئة، كأنه يسير إلى ساحة إعدام. فتح الباب الخلفي للسيارة ودخل.

بداخل سيارة الشرطة، كان كل شيء هادئًا، لكن داخله كان عاصفة لا تهدأ. صدره يعلو ويهبط، وعيناه تتنقلان في الداخل المغلق للسيارة كمن يبحث عن منفذ، عن مفرّ، عن إجابة.

تقلّص قلبه، وانكمش جسده، وشعر بالبرد يتسلل إلى عظمه... ليس من الطقس، بل من الخوف، من الغموض، من ذلك الشعور الثقيل بأن العالم من حوله ينهار قطعة قطعة، وأنه وسط هذا الانهيار عاجز، منبوذ، ومحطم.

العالم الأول - الفصل العشرون: الوداع ...أخي الصغير

داخل سيارة الشرطة، كان كل شيء هادئًا... هادئًا بشكل مريب.

الصمت لم يكن راحة، بل كأنه يدٌ خفية تضغط على صدر آدم بكل بطء، بكل خبث. مقعده الخلفي كان باردًا، قاسيًا، كأن الأرض رفضته حتى في جلوسه. نافذته شبه مغبشة ببخار أنفاسه المرتعشة، والضوء الخارجي يمر من خلالها مشوهًا، بلا معنى.

الشرطيان في الأمام لم يتحدثا بكلمة واحدة.

كل ما سُمع كان صوت المحرك، صوت العجلات وهي تلتهم الطريق، وصوت أنفاس آدم... المتقطعة، كأنها خائفة من الخروج.

لم يكن ينظر أمامه، ولا إلى الخارج. كان ينظر إلى يده المرتجفة، تلك اليد التي كانت تمسك يومًا باقة ورود...

باقة دفنت على أرصفة الكلمات المهينة.

كل ثانية تمر، كانت تنهش روحه.

كل ارتجاج طفيف للسيارة، كل وقفة في إشارة، كل التفاتة من الشرطي، كانت كصفعة أخرى على قلبه.

في رأسه، دوامة...

الوجوه تتوالى بسرعة: ألكسندر، أمبر، أنجي، ستيفاني، جوزيف، جيروم، الحديقة، الفصل، الكلمات، الضحكة، الإهانة...

وفجأة، توقف كل شيء.

وصلوا.

توقفت السيارة أمام مبنى ضخم بلون رمادي باهت... المستشفى المركزي. لا أضواء زاهية، لا بوابة ترحيبية. فقط مدخل بارد، ممرات صامتة، وروائح مطهرات تخترق الأنف بلا استئذان.

فتح الشرطي الباب، وقال بلهجة رسمية:

> "انزل يا آدم... وتابعنا، من فضلك."

نزل آدم، خطواته غير ثابتة، كأن الأرض تميد تحته.

الهواء كان ثقيلاً.

كأن المشي نفسه صار مهمة مستحيلة.

عند الباب، استقبلهم طبيب بزي أبيض ناصع، يحمل بيده ملفًّا طبيًا، ونظرة فيها شيء من القلق.

نظر الطبيب إلى آدم بتفحص، ثم إلى الشرطيين:

> "أهذا هو؟... حسنًا، تابعوني."

بدأت الرحلة داخل المستشفى.

الممر طويل... أبيض... صامت.

الجدران صقيلة لدرجة أن وجه آدم انعكس فيها مشوّهًا.

الضوء العلوي ينبض بنبضات متقطعة، كأن النور نفسه لا يحتمل هذا المكان.

آدم شعر بأنه ينفصل عن نفسه.

كأن جسده يتقدّم، لكن روحه متأخرة بخطوتين...

كل شيء حوله ضباب، خطوات الشرطيين تتردد في رأسه كطبول جنائزية.

ومع كل خطوة، شعر أن قدميه تخونانه...

أن شيئًا بداخله يريد الهرب، التراجع، الاختفاء...

كأن روحه بدأت "تخرج من مكانها" دون إذنه...

كأن هذا الممر الأبيض... يسحب قلبه للأسفل، نحو قاعٍ مظلم لا نهاية له.

لم يسأل، لم يفتح فمه.

لم يجرؤ.

كان الخوف يكبر بداخله ككائن حيّ، له مخالب، له أنفاس ثقيلة، ويهمس له بأن ما ينتظره ليس خيرًا.

ما الذي ينتظره؟

هل ألكسندر في خطر؟

هل اكتشفوا شيئًا عن ماضيه؟

هل أخطأ دون أن يدري؟

أم أن الحياة تحب أن تهينه مرة أخرى... فقط لأنها تستطيع؟

ووسط هذا كله، بدأ جسده بالارتعاش، ارتجافة صغيرة في ركبتيه، لكنها كافية لأن يشعر أنه سيسقط في أي لحظة.

الطبيب يفتح بابًا، يشير لهم بالدخول...

فُتح الباب.

خطوة واحدة فقط كانت تفصل آدم عن الحقيقة...

عن الهاوية التي لم يكن يتخيل أن تطلّ عليه بهذا الشكل.

دخل.

توقف الزمن.

عيناه تحجّرتا.

الهواء فُقد.

النبض اختنق.

على السرير الأبيض، وسط الأجهزة التي تئن بصمت، كان ألكسندر ممددًا.

أشبه بجثة لم تتخذ قرار الرحيل بعد.

جسده كله ممزق.

ضمادات ملطّخة بالدم، كدمات بألوان متعددة، وسكينٌ خبيثة قد تركت على صدره توقيعها الأخير: شقٌ عميق يمتد من كتفه الأيمن إلى خاصرته اليسرى.

آدم لم يتحرك...

كأن قدميه التصقتا بالأرض، وكأن عينيه ترفضان تصديق ما ترى.

لكن... من وسط الوجع...

من بين أنفاسٍ متقطعة، ونظراتٍ نصف واعية، انطلقت ضحكة خافتة، ساخرة، مكسورة.

ضحكة ألكسندر.

رفع رأسه بصعوبة، بعينٍ شبه مغلقة، وقال بصوت أجش:

حقًا؟... بهذه الهيئة تأتي لزيارتي؟

تبدو مرهقًا أكثر مني... من الذي تعرّض للطعن هنا، أنا أم أنت؟"

ابتسم، رغم الجرح، رغم الألم، رغم ما تبقى من أنفاسه.

ذلك هو ألكسندر، لم يفقد روحه الساخرة حتى وهو يصارع الموت.

آدم تقدم ببطء، دموعه تسيل بلا إذن...

جلس على حافة السرير، وضع يده على يد ألكسندر المرتجفة، تمتم بصوت منكسر:

> "من فعل بك هذا؟... لما؟... كنتَ بخير،

هز ألكسندر رأسه ببطء، وقال:

> "لا، لم أكن بخير...

أنا فقط كنتُ أجيد إخفاء الشقوق... مثلك تمامًا."

سكت لثوانٍ، ثم تابع بصوت متعب:

> "آدم... أنظر إليّ...

أنت لست ضعيفًا، فقط مُتعب.

القلب حين يُخذل كثيرًا، يختنق...

لكنك أقوى من أن تختنق.

أتعرف لماذا؟...

لأنك عشت الجحيم، وما زلت تحب، وتضحك، وتحاول."

آدم بدأ بالبكاء بصوت مكتوم، رأسه منكس، قبضته مشدودة.

ألكسندر رفع يده بصعوبة، ولمس شعره برفق كأخٍ يحاول احتضان حياة كاملة بكف ميت:

> "أنا فخور بك...

فخور لأنك صمدت...

فخور لأنك رغم كل ما مررت به، ما زلت آدم الذي أعرفه...

لا تدع العالم يطفئ نورك."

فجأة، انخفض صوت أجهزة القلب.

نبضاته تترنح، روحه تنسحب كضوء شمعة في مهبّ ريح.

ألكسندر بدأ يرتجف.

عينيه تهربان من التركيز...

لكنّه قاوم، قاوم فقط ليقول جملته الأخيرة... تلك التي اختار أن تكون وصيته الأخيرة، وهمس بها بشفتين ترتجفان:

> "كن قوياً... لتصمد...

كنتُ أتمنى أن نكمل حياتنا في سلام...

الوداع... أخي الصغير."

وأسلم الروح.

الصمت...

كان أول من نعى ألكسندر.

قبل أن تنطلق أجهزة الرصد بعويلها الرتيب، وقبل أن يصرخ الأطباء، وقبل أن تسقط دمعة آدم...

كان الصمت قد قال كل شيء.

صوت جهاز القلب...

خط مستقيم.

لا صعود، لا هبوط.

كأن الحياة نفسها أعلنت انسحابها.

"توقف قلبه!" صرخ الطبيب الأول.

أصوات ارتطام الأحذية بالأرض، أجساد تهرع، أنفاس متوترة، حقن، صدمات كهربائية...

وآدم، هناك، واقف وسط كل شيء، كجدارٍ بلا ظل،

عيناه معلّقتان بذلك الجسد الذي كان قبل دقائق ينبض حياة، يشهق روحًا، ويهدي كلمات الدفء.

"واحد، اثنان، صدمة!"

ارتجف الجسد... لا ردّة فعل.

"أعطني 10 ملغ أدرينالين!"

تكررت الصدمة.

تكررت المناشدة.

تكررت المحاولات...

لكن شيئًا لم يعد.

وابتسم ألكسندر.

ابتسامة صغيرة... شبه وهمية... لكن كانت هناك، مرسومة على فمه، كأنه اختار الرحيل وهو يصالح الدنيا.

وهناك... في الزاوية، تجمد آدم.

عيناه لا ترمشان.

نفسه لا يدخل... لا يخرج.

شيء في داخله انكسر.

انكسر بصمت، لكن صداه دوّى في قلبه كزلزال خافت.

وفجأة...

انفجر.

صرخة خرجت من أعماقه، لم تكن صرخة بشر، بل نحيب حياةٍ تهدمت.

أندفع نحو السرير.

احتضن جثة ألكسندر بقوةٍ لم يعرف أنها تسكنه.

بكى كطفل فقد أمّه، كروح بلا مأوى، ككائن انسلخ عنه نصفه الآخر.

دماء ألكسندر تلطّخت على وجهه، تسربت إلى ملابسه، التصقت بشفتيه، بأنفاسه، حتى أصبحت جزءًا منه.

جاء الشرطي الأول ليبعده برفق:

> "آدم، أرجوك، دع الأطباء..."

لكنه لم يُكمل.

نطحة مفاجئة من آدم في وجهه أسقطته على الأرض!

اقترب الثاني، أكثر حذرًا،

لكن آدم كان أسرع، لكمه بكل ما بقي من طاقة في جسده الهزيل،

حتى سقط الشرطي يتأوّه، ممسكًا بفكه.

صرخ أحد الممرضين:

> "أحضروا حقنة المهدئ فورًا!"

أمسك بالمحقنة... اقترب.

لكن آدم دار بجسده بسرعةٍ لا تليق بمن كان يبكي قبل لحظات،

انتزع الحقنة من يده...

وطعنها في كتف الممرض مباشرة.

شهق الممرض، سقط على الأرض ممسكًا بذراعه، والدهشة ترتجف في عينيه.

الجميع تجمّد.

حتى الجدران ارتعشت من الجنون.

آدم... لم يعد آدم.

كان جسده يرتعش، نبضه يتسارع، عرقه يتصبب،

عيناه حمرتا من شدة الضغط، ويداه ترتجفان بشكلٍ لا يمكن السيطرة عليه.

ثم... شعر بألم مفاجئ في صدره.

كأن خنجرًا غُرس فيه.

لم يعد يرى بوضوح.

أذناه أغلقتا على كل الأصوات ما عدا همسًا داخليًا يقول:

> "يكفي... انتهى كل شيء."

سقط على الأرض.

يرتجف... صدره لا يصعد ولا يهبط بشكل طبيعي...

علامات جلطة!

ركض الأطباء نحوه، أحدهم صرخ:

> "لدينا حالة انهيار عصبي وجسدي حاد!

إلى قسم الإنعاش حالًا!"

تم رفع جسده المنهار على النقالة.

يداه متدليتان، وجهه ملطّخ بالدماء،

عيناه شبه مغلقتين... وشفته تهمس دون وعي:

> "أخي... لا تتركني..."

وانطلقت العربة نحو الأمل الأخير.

كان السكون يلفّ الغرفة البيضاء، لا يكسره إلا صوت أنفاسٍ خافتة تصدر عن آلة الإنعاش، وأزيزٌ متقطّع لجهاز مراقبة نبض القلب. كانت الساعة تشير إلى ما بعد الظهيرة بقليل، غير أن الزمن بدا كما لو أنه تجمّد خلف نوافذ المستشفى. هناك، وسط الصمت، كان جسد آدم ممددًا فوق السرير، أشبه بظلٍّ بشريّ، بقايا روحٍ سحقتها فاجعةٌ لا ترحم.

وجهه الشاحب ما يزال يحمل أثر دماء ألكسندر، تلك التي جفّت وتيبّست وكأنها أبت أن تفارقه. ملابسه قد تم تغييرها، غير أن أثر الدم لا يزال مطبوعًا في عينيه، في ملامحه، وفي ارتجافات جسده كلّما تنفّس. لم يكن آدم حيًّا بالكامل، ولم يكن ميّتًا. كان جثمانًا منتصبًا في انتظار صحوة لا يدري إن كانت ممكنة.

دخل الطبيب، يتقدّمه جوزيف، جيروم، لونا، ميرا، جاسمين، أنجي، وأم جوزيف. الجميع بدت على وجوههم علامات القلق والرهبة. تبادلوا النظرات، وكأنّهم يتحسّسون أرضًا هشّة من الكلمات.

قال الطبيب بصوت خفيض وهو يفتح ملفًا صغيرًا بيده: "حالته... حرجة للغاية. لقد نجا بمعجزة. جسده تلقّى صدمة جسيمة، وقلقه النفسي كان أكبر من أن يحتمله أيّ فتى في عمره. لقد كانت إرادته وحدها ما منعه من الموت."

رفعت أم جوزيف يدها بتردد، وقالت بصوت حنون: "هل... هل يمكننا رؤيته؟ الدخول إليه؟"

أومأ الطبيب قائلاً: "نعم، لكن رجاءً... لا تذكّروه بما حصل. لا تثيروا شجونه. ما يحتاجه الآن هو السلام."

اقترب الجميع خطوة خطوة، وعند عتبة السرير، تجمّدوا. ملامحه كانت ميتة، لا أثر للحياة فيها، سوى دمعة واحدة تسيل ببطء كأنها تخرج من غياهب روحه.

كان جوزيف يحمل كيسًا صغيرًا، أخرجه من سترته بتكتم، وابتسم نصف ابتسامة وهو يقول: "انظر، لقد أحضرنا فطائرك المقلية بالبيض والبصل... ألا تتذكّر كم كنت تتشاجر معنا لأجل القطعة الأخيرة؟"

لم تتحرك فيه شعرة. لم يرتجف رمشه. كان كأنّه لا يسمع. التفت جيروم نحو جوزيف وهمس: "يا إلهي... لم يتفاعل!"

تقدّمت أنجي ببطء، وجلست إلى جانبه، ثم مدّت يدها تلامس وجهه بلطفٍ بالغ، كأنها تخشى أن يتحطم إن ضغطت عليه أكثر من اللازم. همست: "أنا هنا... أنا وكلّ من تحبهم هنا، لن تذهب وحدك، لن تبقى وحدك، أقسم لك... سنعبر هذا الجحيم سويًّا، فقط عُد إلينا..."

لم يكن هناك ردّ. لكن الدمع سال من عينيه، دفقتان ثم ثالثة، غير أن وجهه ظلّ ساكنًا. مشهد الدموع وحده كان كافيًا لتمزيق قلوبهم.

أم جوزيف اقتربت، جلست على طرف السرير، وضعت يدها على رأسه ثم جذبت رأسه إلى صدرها، كما لو أنها تحاول أن تزرع له أمومة لم يعهدها. تمتمت والدموع تخنق صوتها: "ابكِ يا صغيري... يكفيك ما تحمّلت. ابكِ، دع عنك القسوة، أنت طفل، وحقّك أن تنهار."

عند تلك الكلمات، تحرّك صدره لأول مرة. شهقة خرجت من صدره، ثم انفجر باكيًا. كانت شهقة واحدة ثم تتابعت، كأن كلّ ما كتمه منذ سنين اندفع أخيرًا من صدره كبركان.

أنجي، التي لم تذرف دمعة حتى تلك اللحظة، لم تتحمّل. جلست على السرير وأحاطته بذراعيها، وجذبته إليها بقوة. كانت ترتجف، وكان هو يتفتّت بين يديها.

قالت بصوتٍ مكسور: "أقسم لك، سأحرق من جعلك تبكي، سأحرق كلّ ما آملك، فقط لا تتركني الآن."

وفي الخلف، كانت جاسمين قد خفضت رأسها وبدأت تبكي في صمت، بينما لونا مسحت دمعةً عن خدها، وهمست وهي تنظر نحو النافذة: "يا الله، أنقذ هذا القلب، لقد كُسِر بما يكفي."

أما ميرا، فجلست بصمت، ودوّنت شيئًا في دفترها، وكأنها تحفظ اللحظة، لا بالكلمات، بل بالدم.

وهكذا، ظلّ آدم هناك، في حضن أمٍّ ليست أمه، وسط أصدقاءٍ صاروا له عائلة، وروح ألكسندر تُرفرف فوق الغرفة، تهمس له كما في آخر كلمة قالها:

"كن قويًّا... لتصمد... كنت أتمنى أن نكمل حياتنا في سلام... الوداع، أخي الصغير."

في ردهة المستشفى...

ساد صمتٌ ثقيلٌ على المكان، لا تُقطعه سوى خطوات التمريض الرتيبة وصوت الأجهزة التي تئنّ برتابة مملة، كأنها تواسي المرضى أو تبكيهم. كان بعض الأصدقاء لا يزالون يجلسون على المقاعد الرمادية الباهتة، ووجوههم متجهمة، مرهقة، مثقلة بما لا يقال.

كانت أنجي قد عادت لتوّها من غرفة آدم، وملامحها لا تزال تحاول الانضباط أمام ما رأت. كان وجه آدم غائبًا عن الدنيا، كأنّه لم يعد منها، وعيناه مغمضتان كأنه استسلم أخيرًا للنوم الذي يليق بالمنهكين... أو المكسورين.

لكن فجأة، انفرج باب الردهة بخفّة، ودخلت أمبر.

في البدء لم ينتبه أحد لها سوى أحد الممرضين الذين تصادف مرورهم، فبادرها بابتسامة مجاملة وسألها إن كانت بحاجة لمساعدة. وكانت هي، بجسدها المنتصب وثوبها الباهت، تتحدث معه بنبرة واهنة:

«أردت فقط أن أسأل عن... عن حالة آدم...»

لكن الكلمات لم تكتمل، فأنجي، التي كانت تتكئ على الحائط قرب النافذة، التفتت ببطء، كأن سكينًا حادًا انغرس في أعصابها عند سماع ذلك الصوت. نظرت إلى أمبر، ووجهها تغيّر تغيّرًا كاملاً.

تلك النظرات... لم تكن مجرد غضب. كانت نظرات قاتلٍ أدرك أن من أمامه ليس سوى الجاني، المجرم الذي أريق بسببه الدم، وامتلأ القلب بالشروخ.

لم تنبس أنجي بكلمة، فقط خطت نحوها بخطوات ثابتة، وسرعان ما استدارت لونا التي لاحظت التغيّر القاتل في وجه صديقتها، وتبعتها بقلق. أما جيروم، فرفع حاجبيه دهشة ثم التفت إلى جوزيف وقال بصوتٍ خافت فيه نذير شرٍّ قادم:

«اللعنة... اتبعني فورًا، قبل أن تتحوّل أنجي إلى مجرمة حقيقية!»

في الممر الطويل الممتد بين الردهات، كانت خطوات أنجي ترنّ كأنها صدى طبول حرب. كانت قبضتها مشدودة حول شيء مخبّأ في جيب معطفها، وعيناها لا تغفلان عن وجه أمبر، التي التفتت فجأة لتراها قادمة.

تجمّدت أمبر للحظة، ولم يكن فيها من الجرأة ما يكفي لمقابلة تلك النظرة. لكن قبل أن يقترب المشهد من لحظة الانفجار، وضعت لونا يدها على ذراع أنجي وقالت لها هامسة، بصوتٍ عميق مثقل بالحكمة:

«لا توسّخي يدك بدمائها، أنجي... لا تستحق. وأنت تعلمين جيدًا أن آدم... لن يغفر لكِ هذا، لو علم.»

كانت أنجي تلهث كأنها في سباق، لكنها أغلقت عينيها للحظة، وتراجعت خطوة، بينما زفيرها يلهب صدرها المشتعل. وبينما هي تحاول السيطرة على شتات نفسها، ظهر جوزيف من الطرف الآخر وهو يصفق بيديه ببطء وسخرية:

«رائع... رائع! أنظرو من لدينا هنا! أمبر، بنفسها، وبكل وقاحة العالم، أتت لزيارة من دمّرت قلبه! أيتها الوقحة، ألا يوجد لكِ قلب؟ أم جئتِ لتتأكدي أنه لم يمت بعد؟»

أمبر عضّت شفتها وتقدّمت، وقالت بصوتٍ خافت:

«أنا... لم أقصد إيذاءه. لم أكن أعلم أن الأمر سيصل إلى هذا الحد...»

قهقه جوزيف ساخرًا وقال:

«أوه، طبعًا لم تكوني تعلمين! هل تريدين وسام الرحمة أيضًا؟»

اقترب منهم الممرض الذي كانت تتحدث إليه أمبر، وقد بدا عليه بعض الحرج وقال:

«أفهم الغضب، لكن من وجهة طبية... أحيانًا زيارة الأشخاص القريبين عاطفيًا قد تحفّز المريض وتساعد في تعافيه.»

كانت أنجي قد هدأت نسبيًا، لكنها ما إن سمعت هذا حتى شهقت بسخرية وقالت، وشفتيها ترتجفان غضبًا:

«لأن تلك العا—»

لكن جوزيف أسرع بوضع يده على فمها قبل أن تكمل، وهمس لها:

«اصمتي، لا تفسدي الأمور الآن.»

ثم التفت للممرض وقال بنبرة جدّية فيها شيء من تهذيب مفتعل:

«سيدي، الفتاة الواقفة أمامكم... هي السبب الأول لما حدث لآدم. حرفيًا. وإن كنت تسألني، فلا أرى أنها يجب أن تقترب منه شبراً واحداً.»

أومأ الممرض ببطء ثم قال، بعد لحظة من التفكير:

«في هذه الحالة... حفاظًا على حالته النفسية، من الأفضل أن لا تلتقياه. تفادياً لأي مضاعفات قد تودي بحياته.»

سكت الجميع للحظة، ولم يكن في المكان سوى الصمت المكهرب، إلا من قلبٍ واحد لم يهدأ قط... قلب أنجي، الذي ظلّ ينبض بألم وغضب لا ينطفئ.

مرّت أيّامٌ سبعٌ كأنها دهورٌ معلّقة على خيط رفيع من الصبر واليأس... جسد آدم بدأ يستعيد عافيته، لكن روحه لا تزال تائهة، معلّقة بين الفقد والانهيار.

كان جسده يستجيب للعلاج، نبضه مستقر، حرارته متوازنة، بشرته استعادت شيئًا من نضارتها، وكأن الجسد يقاوم، لكنه يقاوم وحده، في غياب الروح والعينين والتعبير. لم يكن أكثر من جسدٍ على سريرٍ أبيض، كأنما الحياة فيه قد عادت جسديًا، لكن بقيت النفس هاربة، هائمة في مكانٍ لا يُرى.

وأمام ذلك الصمت العظيم، لم تيأس أنجي، بل أقسمت أن تكون الملاك الحارس الذي لا ينام.

كانت لا تغادر غرفته إلا للحظات، تطهو له أطباقه المفضلة، تُطعمه، تُنظّف جسده، تُبدّل ملابسه، وتجلس ساعات طويلة تروي له القصص التي كان يحبها وهو صغير، تحاول إيقاظ شيء من أعماقه. في كلّ يومٍ كانت تقول لنفسها:

"ربّما اليوم..."

لكن اليوم يمر، ويعود الغد، وآدم لا يفتح فمه، ولا يحرّك جفنه استجابة.

ولم يكن أحد يجرؤ على سحبها من الغرفة أو تحدّي وجودها؛ آخر من تجرّأ على ذلك كان أحد الممرضين، وانتهى به الأمر بضمادات تغطي وجهه ومعدته، وأسبوع راحة بأمرٍ من الطبيب.

وفي ظهر يومٍ خانق، بينما كانت أنجي جالسة بجوار آدم، تمسك يده وتغنّي له بلحنٍ خافت، انفتح الباب بهدوءٍ غريب، ودخلت كلارا.

كانت ترتدي قميصًا رماديًا طويلًا، وسروالًا داكنًا، شعرها مربوط للأعلى بشريط جلدي، وفي عينيها نظرة لا يمكن قراءتها بسهولة.

قالت بابتسامة باهتة، وهي تقترب:

«سمعت بما جرى له... أردت رؤيته.»

رفعت أنجي رأسها، وحدّقت فيها بصمتٍ قاتم، ثم قالت ببرودٍ لاذع:

«ولِمَ؟»

تقدّمت كلارا خطوة، دون أن تجيب، وجلست بهدوء إلى الجهة المقابلة من السرير، مدت يدها لتلمس جبين آدم، وقالت بنبرة شبه هامسة:

«أردت فقط أن أطمئن...»

لكن ما إن لامست يدها جبينه، حتى حدث شيء لم يكن في الحسبان.

من نقطة التلامس، انبعث وميض خافت، لون أزرق باهت مشوب بالأرجواني، وكأن شرارة غير مرئية خرجت من جسد آدم، انتفض بعدها الجسد الذي ظل ساكنًا لأيام! ارتعشت أطرافه، شهق من الألم، وتقوّست عضلاته للحظة قصيرة، قبل أن يهدأ من جديد.

تجمدت أنجي في مكانها، ثم تحوّلت ملامحها في لحظة إلى غضب ناريٍّ لا يُقاس.

صرخت بأنفاس حادة:

«ماذا فعلتِ؟!»

وانقضّت عليها، دفعتها بعنف، وأبعدت يدها عن جسد آدم كما لو أنها أبعدت أفعى سامّة. وقفت بين كلارا والجسد الراقد، كأنها درع بشريّ، تحميه من خطرٍ غامض.

كلارا رفعت يديها دفاعًا، وقالت ببرود متكلف:

«لا شيء! لم أفعل شيئًا! لقد تفاعل جسده... من تلقاء نفسه!»

لكن الغضب في عيني أنجي كان كافيًا لإشعال الغرفة بأكملها.

بصوتٍ حادٍّ متقطّع بين الألم والحنق:

«لا تلمسيه ثانية! لا تقتربي منه! هذا ليس مكانك... ولا هو لكِ!»

تبادلت الاثنتان نظراتٍ محتدمة، وكادت الأيادي ترتفع، خاصة حين تقدمت أنجي في وضع قتالي، لكن كلارا أدارت وجهها، تنهدت، وقالت:

«قوتك ليست في غضبك... بل في حبك. سأرحل، لكن تذكّري: هناك أشياء في داخله لا يفهمها أحد، وأنتِ... ربما تكونين الأمل الأخير.»

ثم استدارت وغادرت الغرفة.

**

أنجي بقيت واقفة بجوار آدم، تنظر إليه بعينين دامعتين، تمسح جبينه حيث لمسته كلارا كأنها تمحو أثرها. ثم جلست على الأرض، تسند رأسها إلى حافة السرير، واحتضنت يده برفق.

همست بصوتٍ متكسّر:

«لن أدعهم يلمسونك... لن أسمح لأيّ شيء أن يؤذيك مجددًا. عد فقط، عد لي...»

وفجأة، وسط هذا السكون المتكسر، اهتز جفن آدم، ثم تسرّبت دمعة دافئة من زاوية عينه.

رفعت أنجي رأسها بدهشة، وفتحت عينيها على اتساعهما، ثم أمسكت وجهه بكلتا يديها.

آدم... يبكي.

لكن وجهه بلا أي تعبير. لم يتكلّم. لم يتحرّك. لم يرتعش. فقط دموعٌ تنساب... صامتة، ثقيلة، موجعة.

أغمضت أنجي عينيها، وضمّت رأسه إلى صدرها، وهي تهمس بصوتٍ مشروخ:

«أبكِ يا روحي... أبكِ... أخيرًا... أبكِ، فهذا البكاء حياة، وهذا الدمع خلاص...»

العالم الأول - الفصل الحادي والعشرون: الجنازة

كان عصر ذلك اليوم الصيفي مكسوًا بغلالة ذهبية باهتة، كأن الشمس قد لفّها الحزن، وخفّ بريقها من وطأة الفقد. الهواء حارّ ساكن، لا نسمة تُحرّك الغصون، كأنّ الكون بأسره قد وقف لحظة صمتٍ على رحيل رجلٍ من طراز نادر.

على أطراف الهضبة المطلة على المقبرة القديمة، تجمّع جمعٌ غفير، كأنّ الزمن استدار ليكرّم من خسره الجميع دفعة واحدة. رجالٌ ببدل رسمية داكنة اللون، يحملون أوسمة ونياشين تعكس مواقعهم في مراتب الحكم، المال، السياسة، والفكر. وجوه مشدودة، أفواه مغلقة، وعيون تبحث عن لغة العزاء فيما بينها، لكنها لا تجدها.

ألكسندر... الرجل الذي لم يكن مجرّد اسم، بل هيئة وهيبة، ذاكرة وطن، وظلّ أبٍ للكثيرين.

الأعلام نُكّست، وارتفعت لافتات سوداء تحمل اسمه وتاريخ ميلاده ورحيله. عمّ الصمتُ المكان، إلا من تراتيلٍ جنائزية خافتة، تتسلل من مكبرات صوتٍ موزعة حول الساحة الترابية.

الصفوف الأولى ازدحمت بشخصيات مرموقة من شتّى أنحاء البلاد؛ وزراء، مفكرون، فنانين، قادة أمنيين، حتى سفراء من بلدان بعيدة أرسلوا مندوبين خاصّين لحضور وداعه الأخير. النساء ارتدين السواد الحالك، وغطّين رؤوسهن بقبعات أو أوشحة

حريرية حزينة. الرجال اكتفوا بالسواد الصارم، وربطات عنق ضيقة تزداد خنقًا كلّما اقتربت الساعة من الانحدار نحو لحظة الوداع.

لكن وسط ذلك المشهد الرسمي... كان هناك ظلٌّ واحد لا يشبههم.

آدم.

كان يجلس على كرسي خشبي بعيد قليلًا عن الساحة المخصصة للوقوف. نظراته ثابتة، تحدّق في الأرض كأنّه لا يراها. لم يتكلّم. لم يرمش. لم يشارك في حمل النعش. لم يرفع رأسه حتى حين صاحت الصفارة المخصصة لبدء المراسم العسكرية.

كان هناك، نعم... لكنّه لم يكن هناك حقًا.

جسد بلا روح.

وجهه شاحب كقمرٍ في الصباح، عيناه محمرّتان، وجفونه ثقيلة متورّمة من البكاء الذي سبق... أو ربما من السهر المستمر. كان يرتدي بدلة سوداء بسيطة، أكمامها غير مرتّبة، حذاؤه مغطى بشيء من التراب، كأنّه مشى مشيًا بلا هدف منذ أيام. شعره متشابك، وكأنّه لم يلمسه مشط منذ رحيل ألكسندر.

جلس كتمثالٍ منهك، لا يتحرك إلا حين تناديه أنجي بلطف، تميل عليه بين لحظة وأخرى، تهمس له:

«أنت بخير... أنا هنا... لست وحدك...»

لكنّه لم يكن يجيب. لم يكن حتى يرمش. مجرد حركات بطيئة للرأس نحو النداء، ثم عودة إلى الشرود.

اقترب التابوت الموشّى بالرايات السوداء والحمراء، ووقف الجميع في صمت مطبق. ارتفعت الأبواق الجنائزية، وانطلقت رصاصة الشرف.

رفرف قلب أنجي للحظة حين دوّى صوت الرصاص في الأفق، لكنّ آدم لم يتحرك.

لم يرمش.

لم يرفع رأسه.

كأنّ الصوت لم يصله، أو كأنّ روحه قد توقفت عن استقبال أيّ مؤثر خارجي.

مرّ رجلٌ كبير في السن، له ملامح أرستقراطية وهيبة حكماء الزمن القديم، وتوقف أمام آدم، وضع يده على كتفه وقال بصوت أجشّ:

«كان والدك رجلاً عظيمًا... وقد ترك فيك ظلّه. كن على قدره.»

لكن آدم لم ينظر إليه. لم ينطق بحرف. كأن الصوت ارتطم بجدارٍ زجاجي داخل صدره وتحطّم دون أن يدخل.

**

في زاوية أخرى، جلست أنجي بالقرب منه، تُخفي حزنها خلف نظارات سوداء، لكنّ غضبها ظلّ يتسرّب من بين أصابعها المعقودة على ركبتها. كانت تنظر إلى آدم وتكاد تبكي كلّ مرة تراه في تلك الحال، لا لضعفه، بل لصموده... لصمته... لهذا الفراغ الذي يسكنه.

همست لنفسها:

«لو فقط استطعت أن أنتزع عنك هذا الألم... لو فقط استطعت أن أُرجِعك إليّ...»

ثم نظرت إلى تابوت ألكسندر وقالت بصوت لا يكاد يُسمع:

«لقد كنت كلّ عائلته... والآن... من له؟ من له إن لم أكن أنا؟»

**

وفي اللحظة التي رُفع فيها التابوت ليُنقل إلى مثواه الأخير، مالت الشمس نحو الغروب، وبدا أن الضوء نفسه يذوب، يرحل مع ألكسندر، كأن الزمن يعترف بأنّ شيئًا عظيمًا قد انتهى للتو.

لكن ما لم ينتهِ... هو وجع آدم.

في عصر يومٍ صيفيّ خانق، تنفّس العالم ببطء، وكأنّ الكون نفسه قد دخل في حداد.

كانت المقبرة غارقة في سكونٍ مقدّس، والسماء تكسوها ظلالٌ أرجوانيّة قاتمة.

الحشود انفضّت منذ ساعات، ولم يبقَ سوى القبور، والحجارة الصمّاء، والتراب الذي لم يبرد بعد.

وقف آدم أمام شاهد قبرٍ كُتب عليه:

"ألكسندر ف"

الأخ، المعلّم، النور في زمن العتمة.

ركع ببطء، وكأنّ الهواء أثقل من أن يُستنشَق، ووضع كفه على الحجر البارد.

حدّق فيه طويلاً...

وجهه شاحب كرماد، عيناه غارقتان في ظلامٍ لا قاع له.

كان آدم جسدًا بلا روح، صدفةً فارغة من المعنى، كأنّ كل شيء فيه قد توقّف منذ لحظة الموت.

مرت أمام عينيه شذراتٌ من الذكريات...

صوت ضحكة، عبث في المطبخ، شجار تافه على آخر قطعة كعك...

ثم تكسّر كل ذلك في ومضة

ـ "وداعًا... أخي الصغير."

صوت ألكسندر، الأخير، يعلو في صدره كهمسٍ من جحيم.

**

اقترب جيروم من خلفه، واضعًا علبة صغيرة بجانبه، قال برفق:

ــــ "أعددت لك الشوكولاتة التي تحبها... تلك التي كنت تتشاجر معنا لتأخذها أولاً."

ثم جلس بهدوء، شارك الصمت بصدرٍ مفتوح.

أتبعه جوزيف، الذي ألقى نفسه بجانب آدم كطفل:

— "هيّا، فقط قم بالتنهد! فقط قل أي شيء... صِف الطعم المقرف للهواء، أو الشتائم التي كانت تخطر ببالك حين كنا نغضبك! فقط... افعل شيئًا، يا صاحبي."

لكن آدم لم يتحرّك... لم يرمش حتى.

كأنّه ليس معهم.

كأنّه يُشاهد من مكانٍ بعيد.

**

حينها تحرّك ببطء... قام وتركهم خلفه، وكأنّه يُلبّي نداءًا لا يُسمع.

مشا بخطى مثقلة، حتى وصل إلى بحيرة صغيرة تبعد عن المقبرة بضع خطوات.

جثم عند حافتها، غمس قدميه في الماء، وتنهّد.

ثم، وبين هدوء النسيم وتموّج الماء، بدأ يشعر بوجود... آخر.

"هل تُراني تائهًا إلى هذا الحد؟" قال آدم، مخاطبًا ظلاً تخيّله واقفًا أمامه.

وإذا بعينيه ترتسمان على صفحة الماء، صورةٌ... مألوفة.

ألكسندر.

وقف هناك، مبتسمًا، في ثيابه المعتادة، لا دماء، لا جراح...

كان كما كان في الأيام الخوالي: مُطمئنًا، ساخرًا، شديدًا في حنانه.

قال له:

— "تظن أنّي تركتك؟ أنظر إليك، هالك، لا تطاق، ورغم ذلك... لازلت أشتاق لك."

— "آدم... لا تجعل موتي هو موتك أنت أيضًا."

رفع آدم رأسه، فظهر إلى جواره جيروم، يتأمّله بحذر.

ثم جوزيف، يتنهد بقلق.

جيروم همس:

— "هل... هل تكلّم نفسه؟"

جوزيف، بشفاه مشدودة، تمتم:

— "إنه لا يرى نفسه... بل يرى ماضيه."

**

وبينما يتخيل ألكسندر، ابتسم آدم.

كانت ابتسامة خافتة، مائلة، بالكاد ترسم على وجهه... لكنها كانت موجودة.

غير أن أنجي، التي كانت تراقبه من بعيد، أدركت ما لم يدركه أحد.

لم تكن تلك ابتسامة شفاء...

بل ابتسامة وجع.

ابتسامة من أدرك أنه ما يزال ضائعًا، حتى وهو يبتسم.

**

وعند عودتهم إلى القبر، لمحوا رجلاً واقفًا على طرف الظلال.

رجل ذو هيئة فاخرة، شعر بنيٍّ ناعم، وعينان صفراوان كعقيقٍ مشع.

وقف يحدّق في قبر ألكسندر كما لو كان يعرفه جيدًا، تمتم بصوتٍ عميق:

— "من البداية جايسون... ثم أنت، ألكسندر.

كم مرّة سأحضر جنازة أحدكم؟

كم مرة سأقول وداعًا؟

لو فقط... لو فقط أتيت للعيش معنا منذ البداية، لما صار هذا مصيرك."

اقترب أكثر، انحنى باحترام، همس:

— "وداعًا... يا أخي، من ليس من دمي."

ثم، نظر إلى آدم، بعينين تقدحان حزنًا ونبوءة، وقال:

— "مسكين...

هذا الجيل، كتب عليه أن يشهد الجنائز أكثر من الأعياد، أن يعرف الموت قبل أن يتذوق الحياة."

ومضى بخطى هادئة في الغابة، واختفى كظلٍّ تحت الغروب.

**

أما آدم، فقد ظل واقفًا عند البحيرة،

يتنفس كمن لا يعرف إن كان حيًّا،

أم نصفَ ميت... يبحث عن الجزء الآخر من روحه في الماء.

كانت الشمس توشك على الهبوط، تنثر أشعتها الأخيرة على سطح البحيرة بنورٍ مائل إلى الحُمرَة، كأنّها تنزف.

في تلك اللحظة، كانت أمبر تهيم في أرجاء المقبرة والحدائق القريبة، خطواتها مسرعة، أنفاسها متقطعة، وقلبها ينبض كطبل حرب. عيناها تبحثان في الوجوه، بين الأشجار، خلف الشواهد، كأنها تسعى لالتقاط طيفٍ فرّ منها منذ زمن.

همست لنفسها:

— "لا بدّ أنه هنا... لا يمكن أن أغادر دون أن أتي إليه..."

وحين انعطفت ناحية الممر الحجري المؤدي إلى البحيرة، لمحته... جوزيف.

كان واقفًا بجانب شجرة صنوبر، يدخن بصمت، وجهه مائلٌ نحو الغروب كأنّه يسترق من الزمن دقيقة تأمل.

اقتربت منه، ملامحها مجهدة، لكنها متماسكة بصعوبة:

— "جوزيف... أرجوك... هل رأيت آدم؟ أين هو؟"

لم يلتفت. سحب نفسًا عميقًا من سيجارته، ثم قال ببرود:

— "لمَ تسألين؟ لم يكُن مهماً بالأمس... لمَ الآن؟"

تراجعت خطوة، ثم استجمعت قواها:

— "أريد فقط التحدث إليه. أحتاج أن أعتذر... أن أشرح..."

أطلق زفرة طويلة، حدّق في الأفق، ثم قال:

— "البحيرة. ذهب إلى البحيرة... كما في كل مرة يتمنى أن يجد سلامًا."

ثم أضاف بنبرة لاذعة:

— "أقل ما يمكنك فعله... هو تقديم العزاء، لا أكثر. وإن كنتِ تظنين أنّك قادرة على إصلاح ما تهدّم... فأوفري عنكِ الوهم. بعض الجراح لا تندمل... بل تصبح جزءًا من الجسد."

وغادر، تاركًا خلفه سحب دخان كثيفة... ورجفة في صدرها.

**

اقتربت أمبر من البحيرة بخطوات حذرة، فرأت آدم جالسًا عند الضفة، ظهره إلى العالم، وعيناه غارقتان في انعكاس الماء.

اقتربت منه ببطء، كأنها تخشى أن تتسبب في انكسار آخر داخله.

ثم تمتمت بصوتٍ مكسور:

— "آدم..."

لم يلتفت.

واصلت، وقد ترددت أنفاسها:

— "أنا آسفة... لا تعلم كم كنت تائهة... ستيفاني هي من لعبت بعقلي، أوهمتني أن... أن كل شيء كذب، وأنك تستغلني... كنت غبية. غبية جداً."

رفع آدم عينيه ببطء نحو الماء، دون أن ينظر إليها.

انعكاس صورته المكسورة أمامه، وعيناه الخاليتان لا تعكسان شيئاً سوى الفراغ.

أكملت أمبر، صوتها يرتجف، ويداها ترتعشان:

— "أعرف أنّي جرحتك... أعرف أنك لا تثق بي الآن، ولا حتى تطيق سماع اسمي... لكن، هل لي فقط بكلمات؟ هل لي بنظرة؟ فقط... فقط لا تصمت هكذا، لا تتركني أتكلم مع صدى وجعي..."

**

وفي تلك اللحظة، انفجرت الذكريات كشرارات في عقل آدم.

ستيفاني. الهاتف. الرسائل المخبأة. نظرات أمبر المترددة. صوت ألكسندر وهو يسأله: "هل تثق بها حقًا؟"

ثم... طعنة الخذلان الأولى، ووجه ألكسندر المغطى بالدماء...

**

شعر آدم فجأة بضيقٍ في صدره، ارتعاش في أطرافه، وكأنّ الهواء يثقل حوله.

رفع كفيه المرتجفتين، وغرف شيئًا من ماء البحيرة، فغسل وجهه به، كأنما يحاول تبريد جرحٍ لا يُشفى.

تناثرت قطرات الماء على وجنتيه، لكنها لم تُطفئ النار في داخله.

**

وفي الأعلى، حيث وقف جيروم وجوزيف ولونا، كانوا جميعهم قد رأوا أمبر تقترب وتتحدث.

علّق جيروم وهو يضيق عينيه:

— "يا للمصيبة... ما الذي جاء بها الآن؟"

جوزيف بصوت مكبوت بالغضب:

— "ألم أقل إنها لا تعرف التوقيت؟ كأنها تبحث عن مسمارٍ تدقه في صدر آدم لتتأكد أنه لن يقوم بعدها."

لونا، أكثرهم هدوءاً، وضعت يدها على صدرها وقالت:

— "ربما تحاول فقط أن تغفر لنفسها... لكن... وجودها مؤلم جداً له الآن."

**

أما أنجي، التي كانت تراقب من ظل شجرة، فقد ارتجف قلبها من منظر أمبر وهي تحاول الاقتراب من آدم.

قبضت كفيها، وقاومت الرغبة في الصراخ:

— "أبتعدي عنه... لا تنثري ملحك على جرحه المفتوح."

لكنها لم تتقدم... فقط كانت تراقب.

كانت تعرف أن الكلمات الآن لن تصل، وأن آدم...

هو وحده من عليه أن يختار: أن يفتح بابًا للغفران... أو أن يغلقه إلى الأبد.

**

أما هو... فقد نهض ببطء، ما زال لا ينظر إلى أمبر.

ثم نطق أخيرًا، بصوتٍ خفيض، كأنّه قادم من هوّة بعيدة:

— "أعرف أنكِ آسفة...

لكنني... لم أعد أملك ما يكفي منّي لأسامحك."

ثم مشى مبتعداً، تاركاً أمبر واقفة عند ضفة البحيرة، بين سكون الماء وندم لا ينتهي.

العالم الأول - الفصل الثاني والعشرون: الاختفاء

عاد آدم إلى المنزل على قدميه، تحت سماءٍ مسائية خرساء لا تعرف إلا الصمت رفيقًا، كأن العالم من حوله قد تواطأ على الصمت احترامًا لجنازةٍ لم تُعلَن بعد.

كان يمشي بخطواتٍ بطيئة، لا يشبه الماشي ليس نحو بيتٍ بل نحو قبرٍ مفتوح، لا يحمل شيئًا سوى جسده، المُنهك، المُثقل، والمفرّغ في آنٍ واحد. كل من مرّ بهم في طريقه لم يجرؤ أن يقترب منه، إذ بدا كمن يحمل هالة من الحزن والفراغ لا تُطاق.

ولما وصل، لم يكن هنالك من يستقبله. لا صوت ألكسندر، ولا ظلال ضحكاته، ولا رائحة قهوته التي كانت تملأ أروقة البيت القديم كل صباح.

فتح الباب بيدٍ مترددة، ودخل... فاستقبله الصمت، ذاك النوع من الصمت الذي لا يُفسَّر بالهدوء، بل بالخواء.

كانت الأنوار مطفأة، الستائر مُسدلة، وذرّات الغبار ترقص في شعاع شمس مائل اخترق الزجاج المهشم من نافذة صغيرة.

جلس على الأريكة القديمة التي تعرّفت على وزنه دون أن تسأله كيف حاله.

أرخى رأسه، فتسرّبت إليه الأصوات... همسات خافتة... كأنّ ظل ألكسندر لا يزال يجول المكان.

رآه في مخيّلته، جالسًا على الدرج، يبتسم له بطريقته الساخرة، ثم يختفي...

رآه مرة أخرى عند المطبخ، يمسك كوب قهوته، يلوّح له...

لكنّه كل مرة، يختفي قبل أن يقترب.

البيت أصبح قبرًا لأرواح كثيرة، أولها آدم نفسه.

مرّت الأيام بعدها ثقيلة كالحجارة.

آدم انقطع عن المدرسة تمامًا. لم يعد يقوى على رؤية الوجوه التي كانت تبتسم له يومًا، خاصة وجه من حكم قلبه... لم يرد أن يرى شيئًا يذكّره بأنه ما زال حيًّا بينما الجزء الأعز منه قد دُفن.

كان يقضي وقته في سريره، هاتفه بين يديه، يتنقّل بين فيديوهات لا طعم لها، وميمز سخيفة يحاول أن يضحك عليها...

ضحكة بلا صوت، بلا مشاعر، كأنها مجرد حركة عضلية منسية.

أصدقاؤه أرسلوا له عشرات الرسائل، جاؤوا إلى بابه مرات كثيرة، لكنّه لم يُجِب، لم يفتح، لم ينظر من النافذة حتى.

كان إما في سريره أو في الطابق الأرضي السري، ذلك المكان الذي تحوّل إلى ملجأ له.

**

في الطابق السفلي، عثر آدم على صندوق قديم فيه مذكرات ألكسندر، صور، قصاصات ورقية، خرائط، رسائل لم تُرسل، وحكايات لم تُروَ.

كل صفحة فيها كانت كأنها تنهش قلبه، تُقرّبه من ظلالٍ أكبر من أن تُفهم.

بدأ يلاحظ شيئًا غريبًا...

كان أحدهم يدخل المنزل حين لا يكون منتبهًا، يترك له طعامًا دافئًا على الطاولة، يُنظّف المطبخ أحيانًا، يُبدّل أغطية السرير دون أن يُرى.

لكنه لم يكلّف نفسه حتى بالتساؤل.

كأن الحياة أصبحت مُجرّد عرضٍ مسرحي لا يعنيه، يجلس في مقعد المشاهد، ويدفن وجهه في الظلام.

**

في الليالي، كان النوم أكثر الأشياء عذابًا.

كان يشعر بوجودٍ غريب بجانبه، كأنّه مُراقب حتى وهو مغمض العينين.

وفي إحدى الليالي، حين كان قلبه في أقصى درجات هشاشته، شعر بشيء... كأن جسدًا ما احتضنه من الخلف، ببطء، بحنوّ، بلا كلمات.

أراد أن يتحرك، أن ينتفض، أن يصرخ...

لكنه توقف.

ذلك الجسد كان دافئًا... هادئًا... كأنّه يحمل بين أضلعه نورًا صغيرًا يُقاوم عتمة قلبه.

شعر بالسلام...

بذلك النوع من السكينة التي نسي طعمها.

شيءٌ ما فيه أغمض عينيه بإرادته للمرة الأولى منذ زمن...

واستسلم للنوم، وعلى وجهه ابتسامة صغيرة، شاحبة... لكنها وُجدت.

**

وحين استيقظ مع بزوغ الفجر... لم يكن هنالك أحد.

السرير بارد.

نهض، نَظر حوله، تردّد أن يبحث...

لكنه تمتم في نفسه:

— "إن عرفت من هو... قد لا يأتي مرة أخرى..."

ثم جلس في الظل، ينظر إلى السقف، وكأنّه ينتظر... أن يعود الشعور... أن يعود السلام.

في أروقة المدرسة، كانت الأرواح تسير مثقلة، والضحكات خافتة، والنظرات تتبادل بصمتٍ مشوب بالقلق، وكأن الجميع يحمل شيئًا من الجنازة في قلبه.

لم تكن مدرسةً في تلك الأيام... بل كانت شبحًا لمدرسة، مبنى يرتدي الكآبة بدل الزينة، والساحات فيه لم تعد تمتلئ بالضحك، بل بهمهمات ثقيلة تخرج من أفواهٍ تبحث عن تفسير، عن عزاء، عن بصيصٍ من طمأنينة في وجه فاجعةٍ لم تكن متوقّعة.

الجميع عرف...

الطلاب، المدرّسون، حتى العمّال... ما حدث لآدم لم يكن مجرد نكسة عابرة، بل كان انكسارًا كليًّا لإنسان، تحطّم من الداخل، حتى لم يبقَ منه سوى جسد يسير بلا روح، صدى اسم في مدرسة لم تعد تعرف كيف تتعامل مع غيابه.

الأساتذة بدورهم، لم يخفوا اضطرابهم.

الأستاذ توماس، الذي كان لا يتوانى عن نقد آدم وتوبيخه، جلس ذات صباح في قاعة الأساتذة يحدّق في ورقة العلامات الخاصة به بصمتٍ غريب. قال ببطءٍ كأن الكلمات ثقيلة على لسانه:

> "ما كنت أعلم أن ذلك الفتى، الذي يبتسم رغم تعبه، يحمل كل هذا الألم في صدره... يا له من عار أن نرى فقط السطح..."

أما المعلمة هالة، فكانت كلما نطقت اسم "آدم" في قائمة الغيابات، خفضت بصرها للحظة، وتنهّدت.

**

في أروقة القسم الذي اعتاد آدم الجلوس فيه قرب النافذة، أصبح المقعد فارغًا...

فارغًا بطريقةٍ لا تملأها أجساد الآخرين، بل تبقى فيها فراغاته شاهدة على غياب لا يعوَّض.

جيروم كان يجلس مكانه، يومًا بعد يوم، دون أن يتفوّه بكلمة... وكأنه يحرس الفراغ.

جوزيف، على غير عادته، بدأ يتأخّر عن الحصص، يمضي وقته في الساحة الخلفية، يخطّ شيئًا على مفكرته الصغيرة، يصمت حين يُسأل، ويبتسم بصعوبة.

أما لونا، فبدأت تجمع الصور القديمة لآدم وألكسندر، علّها تصنع ألبومًا يوقظ شيئًا من الذكرى في قلب صديقهم الميت حيًّا، وقالت ذات مساء لأنجي:

> "ربما لو رأى نفسه... في ضحكاته القديمة... يتذكّر أنه كان يومًا حيًّا..."

**

أما أنجي... فقد أصبحت أسطورةً في المدرسة.

لم يعد أحد يجرؤ على الاقتراب منها كثيرًا. نظرتها وحدها كانت كافية لتجمّد الدماء.

ستيفاني، بعد أن همست ذات مرة بشيء عن آدم، لم تُرَ بعدها مجددًا.

قيل إنها غيّرت المدرسة، وقيل إن والديها سحباها خشية أن يُنقل جسدها إلى العناية المركّزة على يد أنجي.

لم يُؤكَّد شيء... لكن الجميع آمن بأن أنجي ليست من يُمزَح معها بعد الآن.

أنجي كانت تأتي كل صباح، تجلس في كرسي آدم، تغلق عينيها، وتتمتم:

> "سأعيدك... حتى لو اضطررت أن أُشعل العالم."

**

في غرفة الموسيقى، قرّر جيروم أن يحاول عبر الألحان.

جلس مع ميرا، عازفة الكمان، وبدأوا في تأليف مقطوعة أسموها "عودة القلب".

قال جيروم:

> "إن لم تعد له الحياة بالكلمات، فلعل النغمات تلمس ما لا يُرى."

**

أما جوزيف، فقد كان له رأي آخر.

جمع الأصدقاء في باحة المدرسة، وقال:

> "آدم لا يحتاج إلى دموع... يحتاج إلى خطة. نعيده خطوة بخطوة، نملأ يومه بمفاجآت، بأشياء تذكّره بمن يكون، لا بمن فقد."

ورغم الجراح التي في قلوبهم، بدأوا يكتبون الخطة...

لم تكن المدرسة كما كانت... ولن تكون.

فحين يسقط نجمٌ من السماء، لا تعود السماء ذاتها...

لكنّهم آمنوا أن النور يمكن أن يُسترد، ولو من رماد.

كان الغروب في ذلك اليوم الصيفيّ يحمل في ألوانه شيئًا من الحنين وشيئًا من الأمل المؤلم.

الشمس تنسحب ببطء من الأفق، تخلّف وراءها خيوطًا مذهّبة من ضوءٍ ناعم، كأنها تطبع قبلة وداع على جبين الأرض.

تألقت السماء بمزيجٍ بين البرتقالي والوردي، وظلال الأشجار الممتدة على العشب تراقصت على نسيمٍ خفيف يتسلل بين أغصان الصنوبر، فتنبعث منه رائحة الأرض الحيّة... تلك الرائحة التي تربطك بكل ما هو قديم، عزيز، مفقود.

كانوا مجتمعين قرب البحيرة الصغيرة عند أطراف المدينة، حيث اعتادوا يومًا أن يلتقوا سويًا... مع آدم.

جلست أنجي على صخرة ملساء، قد رفعت ركبتيها إلى صدرها، وذراعاها تلفّان جسدها. كانت تحدّق في الأفق دون أن ترى شيئًا، وفي عينيها ضوء باهت من الغضب

المكبوت. شعرها يتمايل مع النسيم، وشفتاها مطبقتان على سرّ كبير لا يمكن لفظه بسهولة.

جيروم جلس بجوارها، يقذف الحصى في البحيرة، مراقبًا تموجات الماء وهي تتلاشى.

جوزيف اتكأ على حقيبته، وذراعاه ممدودتان خلفه، ناظرًا إلى السماء، قبل أن يقول بصوتٍ أجش:

> "لن نستطيع تركه يغرق أكثر... علينا اقتحام عزلته. بالقوّة إن لزم الأمر."

لونا، كانت قد فرشت شالًا خفيفًا على العشب وجلست عليه القرفصاء، وقالت بهدوء:

> "نعرف آدم... كلما اختبأ، كان يصرخ في داخله. الصمت صراخه. نكاد نسمعه."

أجابت أنجي أخيرًا، وصوتها يحمل في طيّاته غضبًا يتلبّس الحزن:

> "نعم... وسأكون أول من يدخل عليه. سأركله إن اضطررت. سأجبره أن يعود... لن أسمح له أن يذوب هكذا."

ابتسم جيروم نصف ابتسامة وقال:

> "لكن بهدوء يا مجنونة، نحتاجه حيًّا، لا مُصابًا بكسر في الأضلع."

ضحك الجميع، ضحكة صغيرة حزينة، تهدف لتبديد شيء من السواد. ثم صمتوا... جميعهم.

> "سنذهب له غدًا،" قال جوزيف.

"ندخل البيت، نكسر الصمت. نغني، نطبخ له، نرمي عليه الوسائد. نذكّره أنّه لم يُخلق ليكون شبحًا."

ثم نظر نحو الشمس الغاربة، وأضاف همسًا:

"سنوقظه من بين الرماد..."

وفي الجهة المقابلة من المدينة،

كانت الشمس توشك أن تختفي تمامًا، وآخر خيط من ضوئها الذهبي امتد عبر النافذة الواسعة ليقع على وجه آدم.

آدم كان يتدلّى على سريره كريشةٍ هُزمتها الرياح.

جسده ممدد، وذراعاه مفرودتان فوق الفراش، وعيناه تحدّقان في اللاشيء.

شعره مشوّش، شفاهه جافّة، ووجهه مسلوب من الحياة...

وفي عينيه تلك النظرة العائمة، نظرة من خاض حروبًا بلا سلاح ولا درع، ورجع حيًّا فقط ليتساءل لماذا بقي.

ضوء الغروب تسلل عبر الزجاج، وارتسم على ملامحه كشهادة على الصمت العميق الذي يسكنه. لم يحاول أن يهرب منه. لم يُغمض عينيه.

بل راح يتمرّغ في الضوء، كأنّه يحاول تذكّر ما كانت تعنيه الحياة ذات غروب.

نهض ببطء. خطواته كانت ثقيلة، كأن الهواء حوله أصبح أكثر كثافة.

وقف أمام باب غرفة ألكسندر. ذلك الباب الذي لم يجرؤ على فتحه منذ رحيله.

"لماذا الآن؟"

سؤال لم يُجب عليه... لكنه شعر أن هناك شيئًا يجب أن يعرفه.

شيئًا يُفسّر شعوره الدفين بأن ألكسندر لم يكن أخاه... بل أكثر من ذلك.

فتح الباب بهدوء، كأنّه يخشى أن يوقظ من مات.

الهواء في الغرفة كان ساكنًا... لكنه يحمل شيئًا من عبقه، رائحته، ذوقه.

صور معلّقة، كتب مفتوحة على الطاولة، وشمعة نصف محترقة...

مشى آدم بخفة نحو أحد الأدراج، فتحه... وأخرج ظرفًا مختومًا باللون الأسود.

كانت نتيجة التحاليل الجينية، التي طلبها ألكسندر سرًّا قبل وفاته.

نتيجة حاسمة: لا قرابة دم بينكما.

تجمّدت أنفاس آدم. شعر أن الأرض تهتز تحت قدميه.

> "لكن... كيف؟ كيف تكون كلمة أخي منك، أشد وقعًا من أي دم؟"

بدأ يبحث أكثر، يقلب الدفاتر، يتتبع الخطوط، التواريخ، الرسائل القديمة.
وفي قلب كل هذا... شعور غريب كان يتسلّل إليه، شعور يقول:

> "هناك سر... أعمق من الدم، أقوى من الوراثة.
>
> ألكسندر لم يكن أخي... لكنه كان قدري."

العالم الأول - الفصل الثالث والعشرون: الانفراج؟

كان الغروب قد انسحب تمامًا حين وصل جوزيف إلى منزله.

أنزل حقيبته من على كتفه ورماها على الأريكة بإهمال، ثم استلقى بجسده المتعب فوقها، يتنهد بعمقٍ كمن يحمل في قلبه عبء مدينة كاملة.

سمع خطوات والدته الخفيفة تقترب. كانت دائمًا تمشي بخفّة، كأنها لا تريد أن تزعج الأرض.

ظهرت من خلف الباب، تحمل صينية شاي وتقول بابتسامة دافئة:

> "رجعتَ يا ولدي... تأخرت."

أومأ برأسه وقال وهو يمدّ يده ليأخذ كوب الشاي:

> "كنا عند البحيرة... نخطط لإنقاذ آدم من نفسه."

جلست على الكرسي المقابل، تحدّق في وجهه وقد قرأت فيه أشياء كثيرة لا يقولها، ثم قالت:

> "لا يزال في عزلته؟"

أجاب وقد خفت صوته قليلًا:

> "نعم، منذ أن رحل ألكسندر وهو... ليس معنا. كأن جسده فقط هو ما بقي."

صمتت لحظة، ثم قالت بنبرة جادة:

> "أتعلم؟ أعتقد أنني أستطيع الوصول إليه."

نظر إليها بدهشة، ابتسم ساخرًا:

> "أمي... كلّنا حاولنا. أنجي حاولت، لونا، جيروم، حتى جيروم دخل عليه يغني ويطبخ له وصفة جدته القديمة. لا فائدة."

رفعت حاجبًا وقالت بثقة:

> "لكنني لم أحاول بعد. وأنت تعرف ما الذي يحصل عندما أضع شيئًا في بالي."

ضحك، ثم مدّ يده وصافحها:

> "اتفقنا، أمي. إن نجحتِ... أعدك أن أشتري لك تلك التحفة الباهظة التي تحبينها من متجر الزجاجيات."

أجابته وهي تنهض، تنفض الغبار عن عباءتها:

> "بل اجلب لي آدم، فهو أثمن."

خرجت من المنزل بخطى هادئة... واثقة.

كانت ترتدي عباءة بلون الأرز، يغمرها النور الناعم من مصابيح الشوارع، وغطّت شعرها بوشاح حريري مطرّز بخيوط ذهبية.

وجهها كان يحمل ملامح أمّ شرقية قوية: حكمة السنين، ونعومة اليد التي ربّت، ونظرة العين التي قرأت الوجع ألف مرة وسكتت.

كانت تمشي دون استعجال، كأنها تعلم أن اللقاء ينتظرها.

حين وقفت أمام باب بيت آدم، نظرت إلى النوافذ العالية... لا نور. فقط الصمت.

لكنها لم تتردد، رفعت يدها وطرقت ثلاث طرقات متتالية...

ولدهشتها، فتح الباب فورًا.

كان آدم واقفًا هناك. عيناها التقتا به.

وجهه شاحب، شعره فوضويّ، وبذلته المنزلية واسعة عليه كأن جسده نحل أكثر من اللازم. لكنّ عينيه... كان فيهما شيء آخر. كأنّه كان... ينتظرها.

لم يقل شيئًا، بل استدار ودخل، تاركًا الباب مفتوحًا.

دخلت هي بخطوات رصينة، وأغلقت الباب خلفها، ثم لحقت به حتى جلسا في الصالة. لا تلفاز، لا موسيقى، لا حياة. فقط الصمت وجسدٌ شابٌ يجلس كظلّه.

قالت بهدوء:

> "آدم... أتيتُ إليك ليس كأم صديقك.... بل كأمك"

لم يرد. فقط نظر إليها، نظرة خالية من الدفء.

تابعت:

> "أنا لا أدّعي فهم كل ما تشعر به. لا أحد يستطيع، ولا أحد يملك حق انتزاع ألمك. لكنني أعرف شيئًا واحدًا... أن من نحبهم لا يموتون عندما يرحلون، بل عندما ندفن أنفسنا معهم."

ابتسم آدم بسخرية، وقال بصوت أجشّ:

> "أنتِ لا تعرفين شيئًا... ألكسندر لم يكن فقط شخصًا. كان كلّي. كان عالمي. كيف أعيش في عالم بعده؟"

أجابت بنبرة حنونة، وفيها شيء من الشدة:

> "لكنه اختارك لتكمل، لا لتموت حيًّا."

نظر بعيدًا، قال بصوت مبحوح:

> "اختارني... وهو لم يكن حتى أخي. التحاليل قالتها بوضوح. لا دم بيننا."

اقتربت منه قليلاً، وقالت:

> "وهل الحب يُقاس بالدم؟ هل الحماية تُشترى بالجينات؟ من قال إن الأُخوّة تُولد في المستشفيات؟ أحيانًا، الروح تختار من تحب، وتربطك بمن تشاء، حتى لو لم يكن هناك نسب."

ظلّ صامتًا... ثم قال:

> "لماذا لا أستطيع أن أرتاح؟ كلّ ليلة... لا نوم. كلّ يوم... خواء."

تنهدت وقالت:

> "لأنك لا تعطي لنفسك فرصة للحزن الطبيعي. تُعاقب نفسك، تنفيها، تعيش كأنك لا تستحق السلام. وهذا... جريمة بحق روحك."

رفع رأسه ببطء، وفي عينيه دمعة صغيرة لم تنزل بعد، وقال:

> "إذا عرفتُ كيف أخرج... لفعلت."

هنا، ابتسمت ابتسامة صغيرة:

> "سأساعدك. أول خطوة؟... غدًا، دع أصدقاءك يدخلون. لا تقل شيئًا، فقط افتح الباب. وبعدها... افعل ما تشاء."

لم يجب... فقط رمش، كأن جزءًا صغيرًا بداخله فهم الرسالة.

ثم همست:

> "لن أطلب منك أن تنسى. فقط... أن تعود."

قامت، نظرت إليه طويلًا، ثم غادرت بصمت.

وحين خرجت من الباب، أدار وجهه نحوها أخيرًا. كأنه أراد أن يراها ترحل... كي يعرف أنها كانت هناك فعلًا.

كان الليل كثيفًا تلك الليلة...

لا أصوات سوى صفير الريح التي تلامس زجاج النوافذ بخفّةٍ كأنها أرواح هائمة تبحث عن مأوى.

غرفة آدم مظلمة، إلا من خيط ضوء باهت من القمر يتسلّل من الشباك ويقع على أرضية الغرفة كأنّه يزحف على أطراف أصابعه، خائفًا أن يُوقظ قلبًا متعبًا.

آدم كان في سريره.

جسده ممدد على الجهة اليمنى، يداه تتشابكان فوق صدره كمن يستعدّ للرحيل، وعيناه مفتوحتان تنظران إلى الفراغ في السقف، لا بحثًا عن شيء، بل لعلّ العدم يُشفق عليه ويأخذه.

تمتم بصوتٍ خافت، مبحوح:

> "ليت النوم يأتي دون كوابيس..."

أغمض عينيه، ليس لأنّه أراد النوم، بل لأنه سئم من النظر.

ثم بدأ الحلم.

لم يكن حلمًا... كان كابوسًا على هيئة مشهدٍ متكرّر، متداخل، مرعب في بساطته.

رأى نفسه واقفًا وسط بحرٍ من الوجوه...

أنجي تصرخ، أمبر تبكي، جوزيف يحاول أن يضحك في وجه الموت، كلارا تهمس بكلمات لا تُفهم، وجيروم يختفي شيئًا فشيئًا، كأن العالم يمحوه ببطء.

وفوق كلّ هذا، ألكسندر...

واقفٌ هناك، على الضفة الأخرى، يبتسم تلك الابتسامة الحزينة، يمدّ يده ولا يصل.

أراد أن يركض، أن يصرخ، أن يصل...

لكن قدميه كانت مغروسة في الأرض، كأنّ الندم صار حجارة، كأن الحزن أسفلت قيد جسده.

رأى يدًا تحاول الإمساك بألكسندر وسحبه للأسفل...

صرخ:

> "لا تأخذه... ليس بعد... ليس قبل أن أعرف... من هو حقًّا...!"

فجأة... كل شيء سقط. الأصوات تلاشت. الأرض انشقت.

سقط آدم في الفراغ.

كان جسده يتهاوى في الظلام، بلا نهاية، بلا قاع...

وكان يسمع فقط نبض قلبه.

دقّة... دقّة...

ثم... لا شيء.

في تلك اللحظة، شعر به.

ذلك الدفء...

جسدٌ يحتضنه من الخلف، يلفّ ذراعيه حوله بصمت، برفق، بلا أيّ شرط.

كان ملمس ذلك الجسد كأنّه الحرير المغمّس في الحنان، كأنّه ذاكرة لم يعرفها من قبل، لكنّ روحه تذكّرتها.

أنفاسٌ بطيئة تلامس رقبته، ونبضٌ ساكن يهدّئ فوضى قلبه.

شعر بأمان غريب، كما لو أنّ الزمن توقّف احترامًا لهذه اللحظة.

بدأ الكابوس يذوب.

الظلال انسحبت، الأصوات خمدت، ووجه ألكسندر تلاشى مع ابتسامة هادئة، كأنّه يقول: "لا بأس... الآن لست وحدك."

أدم فتح عينيه ببطء، داخل الحلم.

نظر خلفه، لم يرَ ملامح من يحتضنه، فقط شعره الدافئ على خده، وهمسة غير منطوقة:

> "نم... أنا هنا."

ولأول مرة منذ أيام... أغمض آدم عينيه، وسقط في النوم حقًّا.

نوم بلا صراخ. بلا دموع. بلا سقوط.

وفي الخارج، بدأ ضوء الفجر يتسلّل رويدًا من خلف ستائر الغرفة، وكأنّه يهمس للكون:

"هو نائم... فلا توقظوا حلمه."

كان الصباح ينساب بخجل عبر ستائر النوافذ العالية، يلفّ المكان بضوء ذهبي باهت يكاد لا يبعث دفئًا في أركان البيت الغارق في الصمت. استيقظ آدم على صوت الباب الأمامي يُغلق بهدوء. ارتفع جالسًا بسرعة، قلبه ينبض بخفة غريبة، كأن شيئًا ما قد عبر المكان تواً. توجه بخطى مترددة نحو النافذة، بحثًا عن أي أثر. الشارع كان خاليًا، لا أحد هناك. لا ظل، لا صوت، لا حركة. وحده وقع أنفاسه المرتجفة يملأ فراغ الغرفة.

تمتم لنفسه، "هل كنتَ هنا مجددًا...؟"

لكن لم يأته ردّ، سوى سكون يبتلع التساؤل.

في الجهة المقابلة، كانت المدرسة تعجّ بالضجيج. غير أن جزءًا من الساحة الخلفية شهد حركة غريبة. جلس الأصدقاء في شبه حلقة: جوزيف، أنجي، جيروم، لونا، ميرا، جاسمين، بل وحتى المعلمة ديانا جاءت على غير عادتها.

جوزيف نظر إليهم وقال بنبرة حماسٍ مصطنعة:

"حسنًا، الآن بعد أن فتحت أمي الطريق، حان وقت خطة 'إعادة الروح'."

أنجي تقاطع بحدة: "هو لا يحتاج احتفالًا... يحتاج معجزة."

جاسمين أضافت وهي تمسك دفترًا: "أو على الأقل بداية جديدة... لحظة إنسانية... شيء يذكره أن الحياة لم تمت تمامًا."

اقترح جيروم حفلًا صغيرًا داخل منزله، لا موسيقى صاخبة، لا زينة مبالغ فيها... فقط ضوء، دفء، وأشياء من ماضي آدم البعيد... الفطائر مثلًا، وصور قديمة، وحتى الرسائل التي لم يقرأها.

ثم نظرت لونا للجميع وقالت: "وأهم شيء... لا تُخبروا أمبر. لن نترك مساحة للسموم."

الجميع أومأ موافقًا بصمت.

في منزل آدم، كان الهدوء مسيطرًا كمسجد خالي من المصلّين. تحت الأرض، في الطابق السري، وقف آدم أمام باب مشفّر. مدّ يده، وضع بصمته... وفُتح الباب.

دهشة، ثم صدمة.

الغرفة واسعة، جدرانها مكسوّة بالكتب، وكل كتاب موشوم بشعار ألكسندر. في المنتصف، صندوق خشبي أنيق، تعلوه ورقة صغيرة مكتوب عليها:

"إلى أخي في عيد ميلاده الثامن عشر."

فتح الصندوق.

عيناه توسعتا بدهشة.

كان هناك سيف... فريد. لونه البنفسجي يُضيء بوميض حيّ، نقوشه معقّدة كأنها تنبض بلغةٍ لا يفهمها. بجانبه رسالة:

"لطالما علمت أنك أكثر من مجرد أخ... أنت إرث."

مسك السيف... شعور كهربائي اخترق جسده، كأن ذاكرة غريبة زُرعت داخله فجأة.

ثم جرب تمريره على طاولة تجارب كانت في الزاوية.

انقسمت، احترقت، وتلاشت... في لحظة.

صوت داخلي قال:

"أنت لست كما تظن يا آدم..."

وفي الطابق العلوي، كان جوزيف يحاول طرق الباب.

"إنه مغلق."

أنجي، دون كلمة، أخرجت مفتاحًا من جيبها.

فتحته.

"من أين لكِ المفتاح؟" سألها جيروم.

فقالت بابتسامة خفيفة: "هناك أشياء لا يجب معرفتها."

دخلوا... وبدؤوا بتحضير مفاجأتهم.

جيروم أشعل الشموع، جوزيف جلب الفطائر، ميرا رتبت الصور القديمة، جاسمين وضعت الهدايا البسيطة في الزوايا، أما أنجي، فقد وضعت يدها على قلبها، وتمنت فقط... أن يعود آدم.

وفي اللحظة التي صعد فيها آدم من أسفل السلم، وعيناه تائهتان في السيف، رأى الضوء، ورأى أصدقاءه، ورأى أنجي تبتسم وهي تقول:

"عيد ميلاد سعيد... يا من نسيت معنى الأعياد."

هو لم يقل شيئًا. عيناه تجوّلت على الوجوه. قلبه لا يزال يئنّ... لكنه لم يكن وحيدًا.

ثم ابتسم...

ابتسامة حقيقية، أخيرًا.

ساد صمتٌ مُهيبٌ للحظات، كأن الزمن توقّف احتراما لتلك اللحظة النادرة... لحظة عودة آدم إلى الدائرة، ولو رمزيًا.

كانت الأنوار خافتة، والشموع الصغيرة المُتناثرة على الطاولة تُشعل دفئًا في الهواء، تعبق برائحة الفانيليا والقرفة. ضوءها يتراقص فوق وجوه الأصدقاء، وجوه مُنهكة بالانتظار، مرهقة من الألم، لكنها لا تزال قادرة على أن تبتسم.

جيروم، وهو يضع طبقا من الفطائر أمام آدم، قال بمزاح خفيف وهو يربت على كتفه:

"لا سيوف على المائدة، رجاءً... نحن نحاول أن نأكلك لا أن تُقاتلنا."

ضحكٌ خافت انبعث من جوزيف، وعلّق قائلاً:

"وإذا كان لا بد من معركة، فلنجعلها بين البسكويت والمربى!"

آدم لم يجب، لكنه جلس... جلس بين أصدقائه بعد طول غياب، جسده متراخٍ كمن خرج من معركةٍ دامت ألف عام، لكن عينيه بدآتا تتخلّصان من ذلك الرماد الذي ظل يغشيهما.

أنجي، جلست أمامه، ولم تنبس بكلمة. كانت تراقبه، تراقب كل حركة، كل نفس. في عينيها دموع لم تذرفها، فقط جفّت في صمتٍ حارسٍ لا يريد أن يُظهر ضعفه أمامه. حين التقت عيناها بعينيه، ابتسمت.

"هل تتذكر طعم حساء العدس الذي كُنت تكرهه؟ صنعته اليوم... لكن دون العدس."

ضحكةٌ خفيفة سرت في الأجواء. حتى آدم ابتسم، وهي ابتسامة لا تزال خجولة، كزهرة تتفتح بعد شتاء قاسٍ.

جاسمين، وهي تمسح عدسات نظارتها، قالت:

"كتبنا لك رسائل صغيرة. كل واحد كتب شيئًا لك... حتى أستاذة ديانا. لكنها رفضت أن نقرأها بصوت عالٍ، قالت: الخصوصية فوق كل شيء."

لونا مدت يدها بورقة زهرية صغيرة:

"اقرأها لاحقًا. حين تحتاج أن تتذكر أنك محبوب... حتى حين تنسى نفسك."

بدأ آدم يلتفت إليهم واحدًا تلو الآخر...

وجوههم كانت مألوفة، نعم، لكنها هذه المرة بدت أقرب.

أكثر دفئًا... أكثر صدقًا.

أقرب إلى فكرة "المنزل".

في إحدى الزوايا، وقف جوزيف يتحدث بهدوء مع جيروم:

"هل لاحظت؟ عينيه... ليستا فارغتين كما كانت من قبل."

"آه... لكنها لا تزالا تبحثان عن شيء. عن شخص، ربما."

"ألكسندر؟"

"ربما... أو نفسه."

بعد الحفل، وبينما بدأت الفوضى الجميلة تُرتّب نفسها، انسحب آدم قليلاً إلى الشرفة الخلفية.

كان الغروب قد انتهى، وحلّت نسمات المساء برقةٍ تمسحُ حرارة النهار. في السماء، تلألأت النجوم خافتة، كأنها تنصت إلى حديث لم يُقال بعد.

أنجي لحقت به، ووقفت إلى جانبه دون كلمة. بعد لحظات، تمتم آدم:

"لم أكن أعلم أن للظلّ صوتًا... إلا حين غاب عني."

نظرت إليه، ثم همست:

"وأنا لم أكن أعلم أن بإمكان أحد أن يتفتّت هكذا... ثم يُعيد تجميع نفسه ببطء، أمامنا جميعًا."

آدم أدار وجهه نحوها... ثم نحو الباب، حيث الآخرون يضحكون ويعبثون في صخب طفوليّ.

ولأول مرة منذ شهور، نظر إليهم... كأنهم النور في آخر النفق.

ابتسم... لكنها هذه المرة، لم تكن زائفة.

ما تزال أضواء الحفلة الصغيرة تتراقص على جدران المنزل، كأنها تُحيي روح المكان بعد طول سبات. كانت الزينة بسيطة، لكنها صنعت بدفء القلوب، من أشرطةٍ ورقيةٍ ملونة، وأزهارٍ اصطناعية كانت لونا قد أحضرتها من محلّها المفضل، تزيّن الطاولة الخشبية التي تجمع حولها الأصدقاء.

جيروم أمسك بآلة الغيتار القديمة التي كانت مركونة في الزاوية، ونفخ على أوتارها الغبارَ المتراكم، ثم جلس وبدأ يعزف لحنًا ناعمًا، يشبه نسيمًا تسلل من نافذة مفتوحة.

جوزيف اقترب من آدم، وقدّم له شريحة من كعكة التفاح:

"هذه صنعتها أمي خصيصًا لك... قالت إنك تحتاج طعماً يُعيدك إلى نفسك."

أخذ آدم قطعة صغيرة، ببطء، كمن يتذوق للمرة الأولى بعد صيامٍ طويل. لم يكن الطعم ما حرّكه... بل الذكرى، ذكرى أنه ما زال هناك من يراه، من ينتظره.

في الزاوية، جلست ميرا تدوّن شيئًا في دفترٍ صغير، وعندما لاحظها جيروم، قال ممازحًا:

"أرجوك لا تكتبي أني بكيت حين رأيت آدم يبتسم."

ابتسمت دون أن ترفع عينيها:

"سأكتب فقط أن أحدهم عرف أخيرًا أن القلوب لا تُشفى وحدها."

كانت الأجواء كحكايةٍ خافتةٍ تُروى في دفء المساء، بين أناسٍ لم يتركوا اليد حتى حين أغلقت عليهم الأبواب.

وفي لحظة، وسط ذلك الضجيج الحميم، رفع آدم نظره، نظر إليهم جميعًا، وهم يضحكون ويمازحونه ويُرغمونه على الحياة... وشعر بشيء صغير يتحرّك في صدره، كعود ثقابٍ يُشعل شتاءًا داخليًا.

ربما، فقط ربما... لم ينته كل شيء.

مرّت الأيام بعد الحفل كأنها تتسلل برفق إلى كيان آدم. لم تحدث المعجزة فجأة، بل تسلّلت في تفاصيل صغيرة.

استيقظ في اليوم التالي، وفتح النافذة... شيء لم يفعله منذ فترة.

أخذ حمامًا طويلًا، ثم جلس في المطبخ وبدأ يُعدّ لنفسه القهوة، محاولًا تذكّر نسب الحليب التي يحبّها. لم تكن متقنة... لكنه شربها.

عاد إلى غرفته وارتدى قميصًا نظيفًا، مرّر يده على شعره الذي أهمله طويلًا، وابتسم في المرآة، ابتسامة مرتجفة... لكنها ابتسامة.

في الخارج، كانت الشمس تبتهج، والسماء صافية كلوحة طفل.

المدرسة

عندما دخل آدم فناء المدرسة، لم يصدق الكثيرون أعينهم.

همس أحدهم:

"إنه هو... آدم، عاد."

بينما وضعت أنجي يدها على قلبها، كأنها تخشى أن يتوقف من شدة الفرح.

جوزيف صاح من بعيد:

"أقسم أنني كنت سأحلق رأسي إن لم تعد هذا الأسبوع!"

فأجابه آدم بصوت خافت لكن واضح:

"لا تفعل... لن يليق بك الصلع."

ضحكٌ جماعي... ضحكٌ فيه شفاء.

حتى الأساتذة شعروا بتلك الرجفة العاطفية التي سرت في الجوّ، فابتسمت المعلمة سيلين ووضعت يدها على كتفه قائلة:

"الصف لم يكن كاملاً دونك."

خلال الأسبوع

بدأ آدم يجلس في المقاعد الأمامية، يُنصت، لا يشارك كثيرًا، لكن عينيه تقرآن كل شيء.

في الاستراحات، كان يجلس مع البقية، يأكل معهم، وإن بصمت... لكنه بينهم.

بدأ يردّ على الرسائل، واحدة تلو الأخرى... بكلمات قليلة، لكنها تحمل اعتذارًا ضمنيًّا.

وفي المساء، كان يصعد إلى غرفة ألكسندر... لكن لا ليحزن، بل ليفهم.

في إحدى الليالي، وبينما كانت أنجي تنظف الطاولة بعد جلسة دراسية معهم في بيت آدم، قالت له:

"أتعلم؟ حين تنهض من الهاوية... تصبح أقرب إلى السماء."

فأجابها بهدوء:

"ربما... وربما تبدأ ترى الأرض من جديد، لكن بنظرة طائر."

وهكذا... لم يعد آدم كما كان، ولن يعود.

لكنه بات شخصًا جديدًا، يحمل الحزن مثل وشمٍ على قلبه، لا يخفيه، لكنه لا يجعله يُعيق خُطاه.

لقد بدأ يُشفى... لا لأنه نسي، بل لأنه اختار أن يعيش مع الذكرى، لا فيها.

العالم الأول - الفصل الرابع والعشرون: العودة إلى الحياة

كانت العلاقة بين آدم وأمبر في بداياتها متشابكة كأغصان شجرةٍ كبيرة، عميقة الجذور، تلتف حول نفسها وتغذي بعضها البعض. لم يكن بينهما مجرد صداقة عابرة أو علاقة سطحية، بل كانت شراكة روح، تكتنفها خفايا كثيرة، تبادل أسرار وأحلاماً كانت كنبضات القلب تتسارع حين يلتقيان، وتخبو حين يبتعدان. كانت أمبر تعرف كيف تصل إلى أعماقه وتقرأ ما لا يقوله، وكيف تحرسه حتى في أحلك اللحظات.

لكن مع مرور الوقت، وتلك الأيام التي لا ترحم، تغير كل شيء.

تبدلت الأنغام من تناغم متناغم إلى أصوات متقطعة، إلى صمتٍ ثقل كالصخر.

أمبر، التي كانت يوماً ما تسير بخطوات واثقة، تبذل الآن جهدًا مضنياً لجذب انتباه آدم. تأنقت أكثر من المعتاد، اختارت عطراً جديداً يفوح كإغراءٍ خافت، أهدته كتبًا وقطعًا صغيرة من الأشياء التي كان يحبها، ظناً منها أن هذه الهدايا ستفتح له الأبواب المغلقة في قلبه.

لكن كل ذلك كان كمن يرسل صدىً في صحراء واسعة.

آدم كان هناك، لكنه غائب. نظراته تمرّ من فوقها، كأنه يحوم فوق عالمها لكنه لا يلمسه. حديثهما أصبح مقتضبًا، كلمات مختصرة، عبارات تخلو من ذلك الدفء الذي كان يشعل في قلبها الأمل.

"لا أعرف، هل أكون أنا فقط من يُحاول؟" همست أمبر ذات مرة في حضرة جيروم.

ضحك جيروم، بتلك السخرية اللاذعة التي لطالما عُرفت بها كلماته:

"أمبر، لو كان اهتمامه بك هو مسابقة، لكانت أنتِ أول المتأهلين، لكن هيهات، يبدو أن آدم اختار أن يلعب في بطولة أخرى... حيث أنتِ مجرد متفرجة."

ضحك الجميع، لكن ذلك الضحك لم يُخفِ حزنه، فهو كان يعكس واقعًا مزعجًا.

آدم نفسه، كان يتحاشى المواجهة، يختزل كلامه إلى كلمات متفرقة، محاولًا أن لا يتورط في أي جدال أو نقاش. كان يتفادى أمبر، كمن يهرب من ظلّ قاتم يلاحقه، لا يريد أن يزيد من آلامه، لكنه لا يستطيع أن يمنعها من التسلل إلى فكره رغم ذلك.

داخل أعماقه، كانت كسوره لم تلتئم بعد، جروح غائرة، حُطام متساقط من جسده الممزق. لم يكن بعد شفاؤه كاملاً، بل كان يكافح كل يوم ليقاوم الألم، ليمنع الحزن من أن يغرقه.

كانت روحه تتأرجح بين القبول والرفض، بين الرغبة في النسيان وبين التمسك بقطعة من الماضي، حتى وإن كانت مؤلمة.

كان يحاول التأقلم مع محيطه الجديد، مع الحياة التي بدأت تُطالبه بأن يمضي قدماً، لكنه كان يعلم في قرارة نفسه أن الشفاء الحقيقي لن يأتي إلا عندما يواجه نفسه بكل ما فيها من آلام.

وهكذا، بين محاولات أمبر الصامتة، وكفاح آدم المضني، ترسم العلاقة بينهما لوحةً حزينةً، لا تملك سوى الصمت كحوار، والبعد كقرب.

جلس آدم مع أصدقائه في زاوية الحديقة التي كانت تغمرها أشعة الغروب الذهبية، أصواتهم تعلو بين نسمات الهواء العليل، ضحكاتهم تعبّر عن فرح عفوي ونقاء أعاد الحياة إلى هذه الأرجاء. ومع ذلك، بدا آدم كجسد يحمل ثقلاً لا يُرى، كأنه يحمل بداخله فراغًا ثقيلاً رغم ضحكاته الخافتة.

اقتربت أنجي بخطى هادئة وجلست إلى جانبه، ثم أسندت رأسها برقة على كتفه، وكأنها تعمدت أن تكون حضورًا صامتًا لا يطالب بالكلام.

احمر وجه آدم بشكل خفيف، كما لو أن حرارة خفية امتدت من كتفه إلى خديه، تنهد بصمت، وشعر بأن كلّ شيء حوله فجأة أصبح أكثر تعقيدًا مما يتصوره.

همست أنجي بصوت يختلط فيه دفء الحنان بلمحة من الاطمئنان:

"أنا سعيدة لأنك هنا... بيننا."

رفع آدم عينيه للنظر إلى أصدقائه وهم يتبادلون الأحاديث، ثم إلى أنجي التي ما زالت تستند عليه. لم يستطع أن يجيب مباشرة، كانت الكلمات تنهش حنجرة صمته.

قال بصوت منخفض، مشوش:

"لا أعرف... هل أنا حقًا هنا؟ أم أنني مجرد ظل... يلاحقني ذكرياتي ويهرب مني؟"

ابتسمت أنجي بابتسامة هادئة، وكأنها تقول إنه لا بأس أن يكون الظل حاضرًا، طالما أنهم معه.

وأضاف آدم وكأنما يحاول التهرب من حوارات أعمق:

"أحيانًا أشعر أن شيئًا ما في داخلي قد تلاشى إلى الأبد... شيء لا أعرف كيف أستعيده."

همست أنجي:

"ربما لا نحتاج دائمًا أن نعرف كل شيء... أحيانًا يكفي أن نكون مع من يرفضون تركنا وحدنا."

تنهد آدم ببطء، وحرك كتفه قليلًا كما لو يبعد عن نفسه ثقلًا خفيا

ثم قال بابتسامة تشبه الهمس:

"أتعلمين؟... أحيانًا أظن أن ما أشعر به ليس خوفًا أو ألمًا... لكنه نوع من الفراغ العميق... كأنني... كائن بلا جذور."

نظرت إليه أنجي بدهشة، وحاولت فهم ما وراء الكلمات، لكنها لم تسأله مباشرة، بل استمرت في صمتها الدافئ.

ضحك جيروم من بعيد، يقطع الموقف بتهكم رقيق:

"يبدو أنكم تدرسون فلسفة الروح الآن، يا رفاق. آدم، هل ستبدأ بالتأمل في وجودك بدل اللعب معنا؟"

ابتسم آدم قليلاً، لكنه لم يرد، ظل عالقًا في دوامة مشاعره المعقدة، بين الانجذاب والخوف، بين الاحتياج والدفاع، بين الألم والصمت.

أنجي، برقة، أكملت:

"أنا هنا، لا عليك. لا يجب أن تفهم كل شيء الآن."

في تلك اللحظة، كان كل منهما يحمل لغزًا داخليًا، لم يفصح عنه، لكن حضوره كان كافيًا.غروبٌ يلف المدينة بهدوءٍ أرجوانيّ، يلوّن السماء بشيءٍ من الدفء الحزين، وكأن الشمس كانت تُودّعهم لا ترحل عنهم فقط.

في الحديقة الخلفية المهجورة من الضجيج، على أطراف المدرسة، حيث تتراكم أوراق الشجر اليابسة وتختلط بعبق الندى المتسلل من العشب، جلس الأصدقاء على مقاعد حجرية قديمة، بعضها مكسور، بعضها لا يزال صامدًا كذاكرتهم المشتركة.

جيروم تمدد على الأرض، يداه خلف رأسه، يتأمل السماء:

"تعلمون؟ الغروب يشبهنا كثيرًا... جميل، لكنه حزين."

ضحك يوسف وهو يرمي عليه كيسًا فارغًا من رقائق البطاطا:

"كفّ عن الفلسفة، يا شاعر الأوجاع... الغروب يعني فقط أن علينا العودة للبيت قبل أن تصبح بطوننا فارغة."

أنجي كانت تضحك بصمت، وتمرر ببطء أصابعها فوق العشب الرطب، نظرت إلى آدم الذي جلس بصمت، نظراته معلّقة في نقطة بعيدة كأنه يراقب شيئًا لا يراه سواهما.

"ما الذي تفكر فيه؟" همست له.

آدم لم يرد مباشرة. فقط قال بعد برهة:

"أن بعض اللحظات خادعة... تشبه الغروب تمامًا. لا تدري هل هي بداية النهاية... أم نهاية البداية."

صمتٌ. نظراتٌ متبادلة. لا أحد أراد كسر ذلك التأمل.

جاسمين حاولت أن تبعث فيهم بعض الخفة، وهي تفتح قطعة شوكولاتة وتتناولها بلؤم طفولي:

"كفاكم دراما... هل نذهب في نزهة؟ أريد المشي قبل أن يظن جسدي أنني تحولت إلى طحلب."

نهض يوسف أولاً، تبعه الآخرون، بخفة تشبه خفة الطيور المغادرة أعشاشها قبل أن تنام الأشجار. كان الطريق الترابي المؤدي إلى أطراف البلدة هادئًا، تصطف على جنباته أشجار صنوبر شاهقة تخفي وراءها بيوتًا قديمة نسيها الزمن.

كانوا يمشون جنبًا إلى جنب، بين مزاحٍ خفيف وحديث متقطع.

جيروم أشار إلى قمرٍ بدأ يظهر خجولًا بين الغيوم:

"أتذكرون أول مرة خرجنا في نزهة ليلية؟ أعتقد أنني بكيت من البرد."

ضحك يوسف بصوتٍ عالٍ:

"كذّاب! بكيت لأن كلبًا صغيرًا لاحقك."

آدم ابتسم بخفة، أول ابتسامة حقيقية منذ فترة، وكأن القمر كان يحثّه على التنفس.

أنجي لاحظت ذلك، اقتربت منه وسألته بهدوء:

"هل تشعر بشيء مختلف هذه الليلة؟"

"لا أعرف..." أجاب وهو ينظر إلى الغروب المنعكس على بركة صغيرة بجانب الطريق، "ربما شيء يشبه... الانفراج دون تفسير."

"أحيانًا، لا نحتاج تفسيرًا..." همست أنجي.

جاسمين كانت تسبقهم، تركض قليلًا ثم تعود، تركل الحصى الصغيرة في الطريق. قالت بصوتٍ مرتفع:

"هل تعرفون ماذا؟ علينا أن نفعل هذا كل أسبوع. فقط نمشي... بدون هدف. فقط لأننا ما زلنا نستطيع."

يوسف: "ما رأيكم أن نذهب لتناول فطائر الجدة روزا؟ سمعت أنها عادت من السفر."

جيروم ضاحكًا:

"أنت لا تفكر إلا بمعدتك! لكن لا بأس... على الأقل لن أنام الليلة وأنا أتأمل الغروب."

آدم قال أخيرًا، بصوت هادئ لكنه أكثر حياةً:

"لنذهب... أعتقد أنني بحاجة لطعم الحياة... ولو قليلاً."

أنجي نظرت إليه، عيناها تلمعان تحت وهج الضوء الخافت المتسلل من مصابيح الطريق القديمة، لم تقل شيئًا، فقط اكتفت بأن تسير قريبة منه.

الريح بدأت تداعب أطراف قمصانهم، والرائحة الخفيفة للمطر الآتي كانت تُنبئهم أن الليل لا يأتي وحيدًا... بل دائمًا يحمل معه شيئًا من الأسرار.

هم لم يعلموا إن كانت هذه النزهة ستغير شيئًا في روح آدم، لكنها كانت، بلا شك، الخطوة الأولى في طريق لم يُحدد بعد.

كان الليل قد انزلق بالكامل إلى المدينة حين وصل آدم إلى عتبة منزله. خطواته بطيئة، لكنها ثابتة. الريح تداعب شعره في هدوء، محملة برائحة الأرض التي لُسِعت قبل قليل بندى الغروب. فتح الباب بصمت، ذلك الصمت المعتاد، الرفيق الوحيد الذي لم يتخلف يومًا.

ما إن دخل، حتى لفّه الظلام... لم يشعل النور مباشرة، بل بقي واقفًا لحظة عند المدخل، يسمع الصمت كأنه موسيقى حزينة بلا لحن. خلع حذاءه بعناية ووضعه بجانب الباب، التفت نحو المرآة الطويلة المعلقة عند المدخل، حدّق إلى انعكاس وجهه... لم يتعرف عليه تمامًا، لكن على الأقل لم ينفر منه كما في الأيام السابقة.

دخل المطبخ بخطواتٍ ميتافيزيقية، فتح الثلاجة. لم يكن هناك الكثير، بعض علب اللبن، بقايا طعام مغطاة بورق بلاستيكي، وصحنٌ صغير من الباستا وضعته جاسمين على الأرجح عندما جاءت آخر مرة. ابتسم بخفة، ثم أخرج الصحن وسخنه على مهلٍ في المايكروويف، مراقبًا عقارب الجهاز وهي تدور ببطء، وكأنها تذيب الزمن معه.

جلس إلى الطاولة، أطفأ المصباح العلوي، وترك ضوء المطبخ الخافت وحده ينير المشهد. بدأ بالأكل بهدوء، لا شهية حقيقية، لكن الجسد يجب أن يتغذى... أو هكذا أخبره الأطباء. كان المضغ أشبه بتقليب ذاكرة، كل لقمة تحمل معه طيفًا: لحظةً من

ضحك ألكسندر وهو يحرق الخبز في الفرن، صوت أنجي وهي تقول له أن الطعام بدون حب لا طعم له، صورة عابرة لأمبر وهي تحاول تجربة وصفة جديدة وتنسى الملح تمامًا.

توقف عن الأكل قليلاً. أخذ رشفة ماء، ثم أكمل.

بعد العشاء، غَسل الصحن بنفسه، رغم وجود غسالة الصحون. كان يحب ملمس الماء الدافئ على يديه. كأنه تطهير. كأنه يمحو شيئًا ما، حتى وإن كان مجرد دهون طعام.

خرج من المطبخ متوجهًا نحو غرفة المعيشة. ضغط زر التشغيل على التلفاز لكنّه لم ينتبه لما كان يعرض، فقط كانت صورٌ وأصواتٌ تتحرك أمامه، تملأ فراغ الحيطان. جلس على الأريكة، مدّ جسده بتكاسل، حمل هاتفه وتصفح بعض الميمز التي أرسلتها له جاسمين. ابتسم باهتًا. الضحك لم يعد يأتي من القلب، لكنه لم يعد مؤلمًا أيضًا. فقط... كأنه خيال ضحكةٍ.

فتح بريده الإلكتروني، لا جديد. تصفح رسائل الأصدقاء. الكل كتب شيئًا... بعضهم قصير، بعضهم طويل. "كيف حالك؟"، "اشتقنا لك"، "مرحبًا، أدم... هل أنت بخير؟"

لم يرد. لم يحذفهم أيضًا. فقط نظر إليهم كمن يقرأ قصائد على شواهد القبور.

بعد فترة، قام ببطء، كأن جسده أثقل مما يبدو. صعد السلالم نحو غرفته، توقف لحظة أمام باب غرفة ألكسندر، تلك التي باتت الآن تحمل هيبة المعابد المهجورة، ثم واصل طريقه.

في غرفته، خلع قميصه المريح، وارتدى قميصًا قطنيًا خفيفًا، ثم دخل الحمام، غسل وجهه بماء فاتر، وأطال النظر في المرآة. عيونه كانت أقل احمرارًا من ذي قبل، والهالات تحتها أخف قليلًا... لكن ذلك التعب الخفي في النظرات ما زال يسكن هناك، كأنه ساكن دائم.

عاد إلى غرفته. فتح النافذة قليلًا، فدخل نسيم الليل البارد، منعشًا، نظيفًا، كأن المدينة قررت أن تغسل وجهها أخيرًا. جلس على طرف السرير، يمرر يده على الغطاء، يتحسس ثنياته، يبحث عن أثرٍ لذلك الحضن الليلي الغريب الذي لم يستطع تفسيره.

تمدد فوق السرير، سحب الغطاء على جسده، وراقب ضوء القمر وهو يسقط على السقف. فكر في السيف... في ألكسندر... في الرسالة... في أنجي... وفي شيءٍ آخر، لا يعرف له اسمًا.

أغمض عينيه. سمع دقات الساعة. تذكّر شيئًا من الطفولة... لم يعرف لماذا الآن بالذات. ربما لأن النعاس كان يقترب، وربما لأن روحه كانت تحاول أن تُعيد تشكيل نفسها من شظاياها.

مرت دقائق... ثم بدأ قلبه يهدأ.

وبينما كانت أنفاسه تستقر، والليل يوشك أن يأخذه إليه، تمتم بصوت خافت:

"غدًا... سأفعل شيئًا مختلفًا... ربما."

كان الصباح مختلفًا. الهواء أنقى، والسماء أوسع، كأن الكون نفسه قد قرر أن يمنح هذا اليوم طابعًا خاصًا... من تلك الأيام التي تنتمي للذكريات أكثر مما تنتمي للواقع.

في إحدى ضواحي المدينة، حيث تمتد الحقول الخضراء وتتناثر الأشجار كنقاطٍ من الظل المتناثر، اجتمع الأصدقاء. اختاروا بقعة مرتفعة قليلًا، تطل على جدول ماء صغير ينساب بكسل بين الصخور، وتحيط به زهور بريّة من ألوانٍ لا حصر لها.

جوزيف كان أول الواصلين، مرتديًا قميصًا أبيض بأكمام مطوية وسروال جينز خفيف، ونظارة شمسية تجعله يبدو كمراسل صحفي متأنّق. أخرج من حقيبته مشروبًا باردا وبدأ يتفقد المكان باهتمام مصطنع، وكأنه القائد الميداني.

لونا وصلت بعده بلحظات، بفستان زهري ناعم، وشعرها مربوط بضفيرة جانبية تتمايل مع كل خطوة. كانت تحمل سلّة طعام أعدّتها بنفسها، تملأها رائحة الكعك الطازج والفاكهة الصيفية.

جيروم دخل المكان كعادته بصخب، مرتديًا قميصًا بألوان زاهية ونقوش استوائية، وسروالاً قصيرًا وكأنّه خارج لتوه من عطلة في هاواي. صرخ:

"ها قد وصل السحر يا سادة!"

ثم أخرج سماعة بلوتوث وبدأ بتشغيل موسيقى خفيفة من التسعينات، قائلًا:

"لا نزهة دون موسيقى تنعش الروح وتخدش الذوق العام."

ميرا كانت هادئة كنسمة ظل، بثياب بسيطة: بلوزة بلون السماء وسروال كتان رمادي، ووجهها النحيل يلمع من لمسة الشمس الأولى. كانت تمسك بكتاب صغير، كما تفعل دائمًا، لكنها لم تفتَها أي لحظة في مراقبة الآخرين.

أنجي وصلت بثقةٍ لا تشبه إلا نفسها، بسترة جلدية خفيفة فوق فستان قصير أسود، وشعرها مربوط على عجل بتلك الطريقة الفوضوية التي تجعلها تبدو كنجمة سينما خارجة من مشهد قتال. نظرت نحو الجميع بوجهٍ محايد، لكن عينيها حين وقعتا على آدم، أشرقت للحظة.

وأخيرًا، آدم. جاء بصمت. كان يرتدي قميصًا بلون رمادي باهت وسروال داكن، يضع في أذنيه سماعة واحدة فقط، كعادته مؤخرًا. وقف لحظة، نظر نحوهم جميعًا، ثم جلس بجوار لونا دون أن ينبس بكلمة. وجهه لم يعد باهتًا كما كان، لكن في عينيه ظلٌّ لم يرحل بعد... ظلٌّ يعيش، يتنفس، يراقب.

انتشرت البطانيات فوق العشب، وتوزع الجميع حولها. ميرا قرأت جملة بصوت مرتفع من كتابها:

"الحرية الحقيقية تبدأ عندما نصبح قادرين على الضحك على أوجاعنا."

فضحك جيروم فورًا: "يعني أنا أكثر حرية من نيلسون مانديلا؟"

انفجرت المجموعة في ضحكٍ خفيف، حتى آدم ضحك... قليلًا، لكنّه ضحك.

ثم بدأ الحديث يتنقل بين مواضيع لا تنتهي: من الذكريات الغريبة في الطفولة، إلى من لديه أسوأ ذوق موسيقي (وكان التصويت لصالح جوزيف طبعًا)، إلى تحليل غير علمي لشخصياتهم حسب أنواع البيتزا المفضلة.

في لحظةٍ معينة، مدت أنجي يدها ووضعت قبعتها السوداء على رأس آدم، قائلة:

"هكذا تبدو كقاتل محترف في إجازة صيفية."

أخذها بلطف عن رأسه وأعادها لها دون أن يتكلم، لكنه ابتسم، وهي فهمت.

بين الضحكات، كانت هناك نظرات.

بين القصص، كانت هناك صمتاتٌ مليئة بما لا يُقال.

لونا كانت تراقب آدم بين الفينة والأخرى، تفرح لابتسامته العابرة، وتتمنى لو كانت أطول.

ميرا كانت تراقب جيروم، من بعيد، ولا شيء في وجهها يدل على ما تفكر فيه.

أنجي كانت قريبة، قريبة جدًّا من آدم... دون أن تكون لصيقة. كأنها الحافة التي لا تجرؤ على عبورها.

جوزيف، كالعادة، كان يحاول أن يجعل الجميع ينسى أي شيء حزين... ربما لأنه لا يريد أن يتذكر حزنه هو.

بعد الغذاء، تمدد الجميع على العشب.

قال جيروم وهو ينظر إلى السماء: "تخيلوا أن كل غيمة تمثل قرارًا لم نتخذه في حياتنا..."

ردت أنجي: "لو كان الأمر كذلك، لكنت هذه السماء رمادية بالكامل."

ثم بصوتٍ خافت، سأل جوزيف: "آدم... سعيد لأنك معنا اليوم؟"

تردد، ثم نظر إليهم جميعًا... وقال:

"أنا... أحاول. وهذا كافٍ الآن."

في تلك اللحظة، لم يكن هناك حاجة لمزيد من الكلمات.

فقط النسيم كان يتكلم... والشمس بدأت تتهيأ للرحيل، ملونة الأفق بدرجات برتقالية وأرجوانية.

مشهد يستحق أن يُعلّق في زاوية الروح، لا في ألبوم صور.

العالم الأول - الفصل الخامس والعشرون :النهاية أمم؟؟؟؟

كانت الشمس تتهيّأ للغروب. قرصها البرتقالي انخفض بثقلٍ ناعم نحو الأفق، يرسم ظلالاً طويلة على وجوه الأصدقاء الذين جلسوا على التلّ، فوق البطانيات التي بدت الآن كأوراق خريفية نُثرت عمداً على العشب. الهواء تغيّر... لم يعد يحمل دفء النهار، بل مزيجًا بين البرودة الخفيفة ورائحة التراب النقيّ، وشيئاً من الوداع، كما لو أن الطبيعة كلها تتنهد نهاية هذا اليوم.

المدينة من بعيد بدت كلوحةٍ زيتية مطلية على طبقاتٍ من الضباب الذهبي. الأبنية بدت كأطياف متداخلة، والنوافذ تعكس وهجًا خفيفًا من شمسٍ تلفظ أنفاسها الأخيرة. من مكانهم المرتفع، يمكن رؤية السيارات تتحرك ببطء، والناس يتجهون إلى منازلهم، والأضواء تبدأ بالتناثر شيئاً فشيئاً، كنجومٍ صغيرة في زحمةٍ خافتة.

جوزيف كان يقف منتصبًا على صخرة، يرفع يديه كمن يلقي خطابًا:

"ها هو اليوم ينتهي... وقد نجونا منه دون كارثة واحدة! باستثناء فشل لونا في إشعال النار بالمشواة."

ضحكت لونا، وهي ترتب شعرها الذي تطاير مع النسيم:

"على الأقل لم أحاول إشعالها باستخدام العلكة وولاعة السيارة مثلك."

جيروم كان مستلقيًا، يضع يديه خلف رأسه، ينظر إلى السماء المتوهجة، وقال بنبرة شاعرية مزيفة:

"في لحظات الغروب، نتذكر من نحن... وننسى لماذا نحن كذلك."

ميرا رمقته بنظرة جانبية وقالت:

"لو أنك وضعت هذا الجهد في دروس الفيزياء، لنجحت منذ سنوات."

ضحك الجميع، وامتزج صوت ضحكاتهم مع صوت النسيم الذي صار يُصفّر بين الأغصان القريبة. آدم كان صامتًا أكثر من الآخرين، لكنه لم يكن بعيدًا. جلس على أطراف البطانية، ينظر إلى السماء كأنّه يحاول أن يقرأ فيها رسالة خفية.

أنجي اقتربت ببطء، ثم جلست بجانبه، قريبة بما يكفي لتلمس كتفه بذراعها. كانت عيناها تبحثان عن شيء ما في وجهه، شيء لم يُقال بعد.

همست وهي تراقب الغروب:

"جميل... لكنه ليس أجمل مما أراه الآن."

نظر إليها باستغراب خفيف، لكنه لم يقل شيئًا. فابتسمت، وأضافت، بصوتٍ ماكر:

"أعني انعكاس الغروب في عينيك، لا تفهمني خطأ يا شاعرنا المتجهم."

ثم أمالت رأسها نحو كتفه، تستند عليه بلطف، كأنها تزن حضورها بدقة، لا تُثقل ولا تبتعد.

صمتٌ خفيف. ثم قالت:

"أنا سعيدة... لأنك عدت."

رد دون أن يلتفت إليها، بصوتٍ هادئ، لكنه ثقيل بشيء لا يُسمّى:

"أحاول... وما زلت أتعلم كيف لا أهرب."

رفعت رأسها ونظرت إليه، وقالت بنبرةٍ أقرب إلى الهمس:

"لا بأس إن كنت تهرب، المهم ألا تتركنا خلفك."

جيروم من مكانه صرخ ممازحًا:

"آه... آه... بدأ الشعر والتلميحات الرومانسية. هل نحجز لهما عشاء على ضوء الشموع؟"

قالت لونا وهي ترمي عليه وسادة صغيرة:

"اصمت، أيها القاتل العاطفي، دع الناس تعيش لحظتها."

أما ميرا، فكانت تراقب بصمت، تكتب في مفكرتها الصغيرة شيئًا لم يرَه أحد، وتخفي ابتسامة خفيفة.

اقترب جوزيف وهو يحمل عصيرًا معلبًا، وجلس بينهم:

"طيب، من سيحمل كل هذه الأغراض؟ لأنني، بصفتي الوحيد الذي لم يطبخ ولم يشعل نارًا ولم يغني حتى، أعلن نفسي غير مسؤول."

ضحك الجميع، ثم بدأوا يجمعون الأغراض بتكاسل جماعي.

آدم ظلّ واقفًا، ينظر إلى قرص الشمس وهو يلامس حافة الأرض، وعيناه انعكاسٌ صامت لشيء يتبدد ببطء.

قال فجأة:

"الغروب يذكرني بأشخاص رحلوا... لكن أيضًا، بأنه يمكننا البقاء رغم كل شيء."

نظر إليه جوزيف مبتسمًا، وربت على كتفه:

"ورغم كل شيء، نحن هنا."

الطريق نحو المدينة كان مشيًا هادئًا، يرافقهم فيه ظلّ الغروب الطويل، ونسيمٌ عليل يحمل نكهة نادرة من السلام.

تحدثوا عن أشياء تافهة... الطعام، الأغاني القديمة، اختبار قادم، مشهد مضحك في أحد الأفلام.

لكن شيئًا أعمق كان ينمو بصمت بين تلك الكلمات... شيء مثل الأمل.

أو ربما... عودة الروح.

كان الليل يسير على أطراف أصابعه، يكسو المدينة بحريره الحالك، تتراقص أنفاسه بين أعمدة النور وصمت الأرصفة. المدينة لم تنم بعد، لكنها لم تكن مستيقظة تمامًا. نوع من السكينة المضطربة، كما لو أن شيئًا ما في عمق الكون يتحرك... يهمس للنجوم أن تتوتر.

عاد آدم إلى منزله بعد يوم طويل. تناول بعض الطعام دون شهية، غسل وجهه ببطء، ثم جلس في الصالة يتأمل السقف كما لو كان يتوقّع أن يتكلم. العتمة حوله كانت خفيفة، تعمّد أن لا يطفئ جميع الأنوار، لكن الضوء كان كافيًا ليعكس ظله المنحني، كأن الروح ذاتها تتدلّى من كتفيه.

شيء في قلبه لم يدعه يستسلم للهدوء. النبض في صدره كان غريبًا... منسجمًا مع شيء أبعد من إدراكه. ارتدى سترته، أغلق الباب خلفه، وبدأ يتجوّل في المدينة.

السماء من فوقه كانت تتنفّس غيوماً رقيقةً، تحجب نور القمر كما لو كانت تخشى أن يرى ما سيحدث. كان يسير دون وجهة، فقط رغبة خفية في أن يهرب من صمت جدرانه.

وفي زاوية شارع غير مزدحم، رأى فتاة عند الرصيف، انحنت لتلتقط بعض الأغراض المتناثرة من كيس مهترئ. اللحظة كانت عادية... حتى جاء الصوت. هدير شاحنة تمزّق الليل.

الفتاة في منتصف الطريق، رأسها للأسفل، لا ترى شيئًا.

وعيناه، اتسعتا، قلبه تسارع... ثم توقف الزمن.

"لا وقت."

ركض آدم. كل شيء من حوله صار بطيئًا، أصوات المدينة خفتت، الناس في الخلفية يتحرّكون ببطء كأنهم عالقون في لقطات تصوير. لكن داخله كان صاخبًا.

(صوت آدم الداخلي):

"هكذا؟ بهذه الطريقة؟ أهذا آخر ما أفعله؟

لكن... لا بأس... إن كان هذا كل ما أملك لأمنحه... سأمنحه."

اقترب، جسده صار خفيفًا، طيرًا يطير نحو الضوء الأخير. دفع جسده بكل ما فيه، وبلحظة خاطفة، ركل الفتاة بعيدًا عن مسار الموت.

ثم... الصدمة.

الشاحنة اصطدمت بجسده، قذفته في الهواء كما لو كان ظلًا هشًّا، انزلق عبر الهواء وسقط على الإسفلت بانفجار صامت. لا صراخ، لا أنين. فقط صوت اصطدام.

الفتاة ارتطمت بالأرض، التفتت مذعورة... ثم اتسعت عيناها كأنما رأت الموت ذاته.

كانت أمبر.

ركضت إليه، ترنّحت خطواتها، تلعثمت شهقاتها، سقطت بجانبه على ركبتيها. وجهه ملطّخ بالدماء، صدره يصعد ويهبط ببطء، وعيونه نصف مفتوحة كأنها تقاوم الرحيل.

أمبر (بصوت منكسر):

"آدم؟ لا... لا تفعل بي هذا... لم أنتهِ منك بعد... لا ترحل..."

كانت يداها ترجفان وهي تمسح وجهه بلطف، وكأنها تحاول إرجاع الحياة من خلال اللمس فقط.

آدم (بصوت خافت):

"أنتِ... بخير... هذا كل ما أردته."

أمبر:

"لماذا؟ لماذا ضحيت بنفسك؟ حتى الآن، رغم كل شيء... ما زلت تفكر في الآخرين؟"

ابتسم، كانت ابتسامة واهنة، لكن فيها ضوءًا... ضوء رجل فهم شيئًا لم يفهمه إلا في لحظة النهاية.

آدم (من داخله):

"الغريب في الحياة... أنها لا تمنحك الإجابات إلا حين تكاد تفقد القدرة على السؤال... والآن... أنا أفهم... ربما لهذا عشت... ولهذا سأموت."

اقتربت أمبر ببطء، عيناها دامعتان، ورجفت شفتاها وهي تنحني نحوه، تقرّب شفتيها من شفتيه... قبلة لا لتُمنَح، بل لتُستعاد... كأنها تعتذر أو تترجى، أو لعلها فقط... تُحب.

لكن آدم، بعينين أثقل من الألم، رفع يده المرتجفة، ووضع أصبعه على شفتيها، حاجزًا تلك القبلة.

آدم (هامسًا):

"اتركيها... لنفسك..."

سقطت يداه بعدها، ببطء، كزهرة أُجهِضت قبل أن تتفتّح.

وبينما كانت دموع أمبر تتساقط على وجنتيه، ارتفع نظرها إلى السماء... وهناك رأته.

القمر... تحول إلى دم.

لون قرمزي اشتعل في السماء، غطّى المدينة كدموع سماء

الجميع حوله تجمّدوا، صرخات، كاميرات، سيارات الإسعاف...

لكن المشهد كان أكبر من الحياة نفسها.

وفي الجهة المقابلة من الشارع، كانت أنجي.

تحمل كيسًا من الأغراض، عائدة من المتجر. نظرت إلى الجموع، إلى اللون الأحمر في السماء... ثم رأت جسدًا مألوفًا.

ركضت. لا... قفزت في الفراغ، عيناها معلّقتان عليه، تعرفه حتى من أنفاسه.

أنجي (بصرخة تهزّ أرواح الموتى):

"آآآآددم!!!"

سقطت بجانبه. لم تصرخ... بل اختنقت.

يدها امتدت لتلامس وجهه، ثم صدره... ثم هوت على الأرض بجانبه، لا صوت، لا دموع. عينان شاردتان كأنهما طعنتا في الروح.

أنجي (بهمس يكاد لا يُسمع):

"لا يمكن... هذا ملاكي... ليس هكذا..."

نظرت نحو أمبر، وشيء في داخلها انكسر... لكنها لم تصرخ، لم تهاجم... فقط، امتلأت عيناها بالدم، لا الدموع.

أنجي (همسًا بين نفسها):

"سأعيدك... لا أعلم كيف... ولا متى... لكنك لن تنتهي هكذا."

احتضنته، وكأن جسدها حاجزٌ أخيرٌ بينه وبين الموت.

انحنت على جسده مرة أخرى، هامسة بكلمات لا يسمعها أحد، وكأنها تتوسل للقدر أن يعيده.

وبين همس الريح، ونواح السماء، وتجمّد الوقت، كُتب ذلك الفصل، وذُرفت آخر دمعة.

الريح بدأت تعصف... كأن المدينة نفسها تبكي.

امتدت السماء فوق المقبرة كلوحة رمادية ثقيلة، حيث اختلطت ألوان الغيوم بصمت قاتم كأنها تعانق الأرض بعبء لا يُحتمل. النسيم البارد لا يحمل سوى همسات الحزن، وصدى وقع خطوات الحضور التي تملأ المكان بصمت ثقيل، فكل شيء كان يسير على إيقاع الحداد.

الجنازة لم تكن مجرد وداع لجسد، بل كانت اعترافًا بصمتٍ ثقيل، بصداقة انكسرت، وأحلام غابت في أفق لم يعد له أمل بالعودة. المدرسة والمدارس المجاورة كانت قد اجتمعت كلها، من تلاميذ وأساتذة، بعضهم يأتي غريبًا عن آدم، لكن الجميع شارك في الأسى، في فقدان بطل لم يكن يتوقع أن تموت أحلامه قبل أن تبدأ حقًا.

الملابس القاتمة التي ارتداها الجميع لم تكن مجرد عادة، بل كانت مرآة للأرواح التي حزنت على صديق رحل بعيدًا، من دون وداع. عيون دامعة تتكسر فيها أشعة الشمس الخافتة، وقلوب منهارة تدق ببطء، تقاوم الألم، لكنها تذوب في نهرٍ من الأسى.

وسط كل ذلك، وقف جوزيف، بيده قبضها مشدودة، ووجهه محاط بظل الغضب المُخفي وراء دموع لم تُطلق. كان يرتدي بذلة سوداء تكاد تندمج مع ظلاله، لكن عينيه لم تغفل لحظة، تتأجج بالنار على من تسبب في هذا الألم. بجانبه وقف جيروم، بنظراته الحادة التي تخترق الأفق، يوجه كلماته كسهام مسمومة نحو أمبر التي كانت ترتدي قميصًا أسود بسيطًا، وعلى عنقها قلادة زهرة اللوتس، الهدية التي كان آدم ينوي أن يقدمها لها، جنبًا إلى جنب قلادة الشعلة الغامضة التي أهدتها لها العجوز. تلك القلادات كانت أشبه بجناحي طائر مكسور، لا يزالان يرفرفان بذكريات الألم.

أنجي كانت هناك أيضًا، وقف قلبها يئن تحت عبء الحزن، عيونها تلمع بالدموع المكبوتة، ويدها تلهو بقلادة الشعلة الخاصة بأدم في يأس، قبل أن ترفعها ببطء، كأنها تحاول استرجاع روح آدم التي سُلبت من بين أيديهم.

الحشد صمت حين تقدمت أنجي، خطواتها كانت ثقيلة كأنها تحمل العالم كله، وقفت أمام أمبر بنظرة مشحونة بالمرارة والغضب، وقالت بصوت يكاد ينهار من الألم:

"كيف ترتدين قلادته؟ تلك القلادة التي كان سيهديها لك قبل أن تحطمي قلبه... كيف؟"

أمبر بدت مشوشة، حاولت أن تنطق كلمات، لكنها وجدت نفسها محاصرة بسياط اللوم والحقد الذي ينبعث من كل نظرة. كان صمتها يصرخ بصمت، كأنها تحاول الدفاع عن نفسها أمام قضاء لا يرحم.

هنا، انطلق جوزيف بصوت متقطع ومشتعل:

"لقد سرقتي منه كل شيء... لم يبقَ له شيء، لا قلب، لا روح... فقط وجع عميق لا يشفى."

جيروم أضاف بنبرة قاسية، وكأنها قاضية:

"قلادة اللوتس كانت وعدًا... حياة، حلم، أمل. أما أنتِ، فأخذتِ منه كل شيء، وتركتِ خلفك جرحًا لا يندمل."

الهواء أصبح ثقيلاً مع كل كلمة، الغضب مختلط بالحزن، واللوم ممزوج بالأسى. أمبر حاولت أن ترد، لكن كلماتها كانت أضعف من أن تزيل حتى ذرة واحدة من الألم الذي يغطي الجميع.

وسط ذلك، جاءت أم جوزيف، بخطواتها الهادئة ولكن الحازمة، تحاول تهدئة الوضع، بصوت ملؤه الحنان والوجع:

"دعونا نكرم ذكرى آدم... لا نجعل الألم يفرقنا أكثر، لقد فقدناه جميعًا، والحقد لن يعيده."

لكن أنجي لم تستطع أن توقف دموعها، وقالت بصوت مشحون بالحسرة:

"خسرنا صديقنا... تركنا وحيدين، محطمين... من أجل قلب لم يكن يستحقه."

ووقف الجميع بصمت ثقيل حين تم دفن آدم، وجهه الذي بدا هادئًا، حتى في موته كان ابتسامته خفيفة، وكأن روحه وجدت السلام الذي كان يبحث عنه طوال حياته.

أنجي اقتربت ببطء، وضعت وردة بيضاء بلطف على النعش، ثم لم تستطع الصمود، فأحضنته بحنان، همست له بصوت مكسور:

"لم أعد أستطيع رؤيتك... لكنني سأحملك في قلبي... وأعدك، سأنتقم لك."

وبينما تراجع الجميع إلى الوراء، بقيت أنجي واقفة، تحمل حزن العالم بين يديها، ونظرتها التي كانت تلتقي بأمبر في صراع صامت، أعادت تشكيل نيران الغضب في قلبها، تعاهدت أن لا تسكت أبدًا.

أحيانًا... حين تنتهي الحكاية، لا تنتهي حقًا.

هناك شيء في الأفق... شيء كان يكتب نفسه في الظلال، في الدماء، في الأحلام المتكسّرة.

آدم لم يكن مجرد فتى... وألكسندر لم يكن مجرد أخ...وما حدث... لم يكن إلا البداية."

العالم الثاني

العالم الثاني - الفصل السادس والعشرون: داركن فينيك

في المساء الذي سقط فيه آدم، لم يمت شابٌ فحسب، بل انكسر شيء في توازن الكون ذاته...

وكأن الأرض نفسها، لحظة اصطدام جسده، شهقت ثم صمتت، خجلاً من جبن الحياة أمام شجاعة القلب.

في تلك الليلة، لم تنطفئ نجمة من السماء... بل تبدلت إلى لون البنفسج الحزين، ثم اختفت تمامًا، وكأنها رفضت أن تضيء عالمًا خسر فيه آدم

في صباح اليوم التالي، لم يكن الضياء كما اعتادوا. الشمس أشرقت، نعم، لكنها بدت كأنها لا ترغب في الأمر. الألوان بهتت، الأصوات خفتت، حتى الهواء، بدا وكأنه يمشي على رؤوس أصابعه احترامًا لفقد لا يُقال.

كلٌّ من أصدقاء آدم عانوا بطريقتهم، وكأن الحياة من بعده قررت أن تضع مرآة أمام كل واحد منهم، مرآة لا تعكس وجوههم، بل تشققات قلوبهم.

أنجي لم تعد تضحك.

الفتاة التي كانت تقاوم الحزن بالعنف، أصبحت ساكنة، تائهة النظرات، تحمل في عينيها قصة لم تُروَ. تمشي إلى المدرسة، لا لتتعلم، بل لتتأكد أن العالم لم يتوقف فعلاً رغم موته، رغم أنها كانت تتمنى لو توقف.

في غرفتها ليلاً، تبكي بصمت.

لا تجهش بالبكاء، بل تنكمش كطفلة، تضم نفسها كما لو كانت تحتضنه في خيالها.

تكتب اسمه على أوراق مبعثرة ثم تمزقها.

تقرأ رسائله القديمة على هاتفها وتعيد تسجيل صوته بصمت في ذاكرتها.

جوزيف لم يسامح أحدًا.

ولم يسامح نفسه.

كان يغلي من الداخل، يتجنب النظر إلى أي شخص لا يبدو عليه الحزن العميق، وكأنهم جميعًا خانوا آدم بمجرد ابتسامة أو قهوة صباح.

في الليل، يجلس في غرفته متجمّدًا أمام صورة لهم معًا، يضع بجانبه الكأس الذي أهداه إياه في أحد أعياد الميلاد، ويحمل نفسه ذنبًا لا يعرف له اسمًا.

جيروم صرخ أولاً.

ثم صمت.

ثم قرر أن لا يتحدث إلا إذا اضطر.

حاول العودة إلى مزاحه المعتاد، لكنه كان يبدو كسخرية سوداء.

صار يؤمن أن الحب مرض، وأن الطيبة لعنة، وأن من يحب كثيرًا، يموت أولًا.

وحين رأى أمبر تمرّ ذات يوم، لم يقل شيئًا، لكنه نظر إليها نظرة تجعل حتى الحديد يشعر بالذنب.

لونا كانت تحاول أن تحتوي الجميع، لكنها كانت منهارة.

تخاف الليل، لأنه كان الوقت الذي مات فيه آدم.

تخاف الغروب، لأنه يحمل لونه المفضل.

تخاف النوم، لأنه صار يزورها في الحلم.

ميرا لم تكن تتوقع أن تتأثر، لكنها شعرت بشيء ينهار داخلها.

كانت دائمًا تقول إنها تكره المشاعر الزائدة، لكنها في تلك الليلة، رمت دفاترها وبكت حتى اختنقت.

أمبر...

لم تتكلم كثيرًا، لكن حضورها كان كفيلًا بإشعال صراعات كاملة.

ترتدي القلادتين كما لو كانت تحمل جُرمها حول عنقها.

تمشي وكل عين تلاحقها، كل لسان يطعنها، وكل قلب يتمنى لو لم تكن هناك.

لكن داخلها؟

داخلها فوضى لا تشبه أحدًا.

ضميرها يطاردها، صورتُه وهو يضع إصبعه على شفتيها يمنع قبلتها الأخيرة لا تتركها.

كأنها تعيد المشهد كل مرة، وكل مرة تسقط فيه أكثر.

آدم... الغائب الحاضر.

لم يكن آدم مجرد صديق.

كان النور في طرقاتهم، الكتف الذي لا يخون، الابتسامة التي تُصلح ما كسرته الأيام.

كان يحمل أسرارهم، يعرف نقاط ضعفهم ولا يستعملها، يشجعهم على الحلم حتى وهو غارق في ألمه.

برحيله، لم يخسروا شخصًا، بل خسروا ميزان العالم الذي يعرفونه.

لكن...

أين ذهب؟

هل انتهى حقًا؟

أم أن الحكاية لا تزال تخبئ ظلًا خلفها؟

شيئًا ما لم يُكشف بعد؟

بعيدًا عن الجسد... أقرب ما يكون إلى الحقيقة."

لم يكن موت آدم نهاية، بل كان مجرد فاصلة، صمتًا بين نغمتين، شهقة بين سطرين، ظلًا أخيرًا تركته شمس مغيبة على سطح الروح.

وها هو الآن، لا جسد له، لا أرض تحمله، لا سماء تغطيه. طاف في فراغٍ لا تُقاس أطرافه، فراغٍ لم يكن مظلمًا تمامًا ولا مضيئًا. فراغٌ يشبه اللازمن واللامكان، لكنه غريبًا... كان مريحًا.

تسربت إلى قلبه راحة لم يشعر بها أبدًا في حياته، لا حزن، لا فرح، لا رغبة، لا ألم. فقط سكون... كأن كل ما كان يعنيه العالم قد انسل من بين أصابعه وتبخر.

أدار آدم نظره الروحي، أو ما يشبه النظر، ولم يجد أحدًا، لم يجد شيئًا. فقط هو، ونفسه... وصدى فكرٍ خافت يدور داخله:

"هل هذه الراحة؟ أم هي خديعة بعد النهاية؟"

صوته لم يخرج من فمه، بل من أعماق نفسه. صوتٌ محمل بشوقٍ غامض.

كان هناك ندم. نعم، وسط كل ذلك السلام، ظل شيء يشبه شوكة ضائعة في صدره الشفاف.

"كنت أريد أن أودّعهم..."

"أن أقول لهم شيئًا... أي شيء... أن أقول لأنجي: شكرًا لأنكِ كنتِ النور عندما كنتُ ظلاً."

"أن أخبر جوزيف: أنت أخي الحقيقي مهما كذب الحمض النووي."

"أن ألمس جيروم في كتفه وأقول: كنت قوتي حين سقطت."

"أنظر إلى عيون أمي البديلة... وأقول لها: لقد أحببتك، ولو بصمتي."

فجأة، انشق ذلك السكون الأبديّ، وظهرت أمامه... شاشة.

شاشة ضخمة، مستطيلة، سوداء، يحيطها إطار مزخرف بخطوط قرمزية وبيضاء، تتوهج كلما تنفس الفراغ.

ثم...

ظهرت كتابة حمراء، قاتمة، كُتبت كأنها نُقشت بدم متجمد، وكانت الكلمات تقول:

"مبارك.

لقد أتممت جميع الشروط.

وأثبتَّ جدارتك."

اهتزّ كيانه اللامرئي. أحسّ بشيء أشبه بخفقة قلب... ولكن بلا قلب.

ثم بدأت الكلمات تظهر واحدة تلو الأخرى، ببطء:

البطل الميت.

العائد من القاع.

ثم ظهرت سطرٌ آخر، يتوسط الشاشة، قال:

"وبهذا... تمّت الصفقة بين..."

لكن لم يُكتب اسم.

كان المكان المخصص للأسماء يهتز... كلمات تتغير بسرعة، رموز تظهر وتختفي، كأن شيئًا أكبر من الكون ذاته يمنع ظهوره.

وفجأة...

انفجرت الشاشة في وميضٍ من نور أبيض طاغٍ، ثم...

عاد الظلام.

لكن لم يكن كالظلام السابق، لا...

بل كان أقرب، أضيق، محاصرًا.

كأن الجدران تقترب...

كأن الهواء صار ثقيلاً...

كأن التراب يضغط عليه...

كأن شيئًا... يغلق عليه.

ثم سمع صرخات.

أصوات بشر.

أقدام تركض.

رجل يصيح:

"من هنا! أبتعدوا! إنها قادمة من هنا! إنه هناك! نعم منه! هو!"

ثم... نور.

وجه.

رجل.

وجه مغمور بالدموع والفرحة، عيون خضراء تتلألأ بدهشة طفل.

الرجل احتضنه... رفعه في الهواء كأنه لا يزن شيئًا.

"ابني!! ابني يا ناس! عاد من الموت!!"

آدم سمع الصوت، لكنه لم يفهم في البداية.

ولكن حين نظر إلى انعكاس صورته في عيني الرجل...

شعر بقلبه يقفز من مكانه.

طفل.

طفل صغير... رضيع.

بشعر ناعم، عيون واسعة... لا تزيد عمره عن أيام.

"ماذا... من هذا؟ هذا أنا؟"

أحسّ بجسده الجديد... لا حول له، لكنه ينبض بالحياة.

وكان الجزء الأغرب؟ لم يشعر بالرفض.

لا، لقد كان يشعر بنوع غريب من القبول... وكأنه يعود من عمقٍ ما، بعقد جديد، بروح قديمة، بجراح لم تلتئم لكنها ستُخاط بطريقة مختلفة هذه المرة.

واحتضنه الرجل بقوة، يهمس في أذنه:

"لقد عدت، عدت إليّ. يا من حملت اسم داركن...

وفي عتمة الرضيع، في تلك الروح الصغيرة، سكنت شظايا الفتى القديم.

ولم يكن يعلم...

أن هذه ليست النهاية... بل البداية.

كانت الشمس قد عانقت الأفق بلونها الذهبي المتوهّج، ناشرة فوق السهول والقرى بهاءً يشبه الحلم، وكأن السماء ذاتها تُبارك هذه اللحظة، كأنها تقول: "ها هو، من عاد من الغياب، من عبر الموت وخرج منه حيًّا".

القرية تعيش احتفالًا غير مسبوق، كأنها كلها تنبض بقلبٍ واحد، ينبض من أجل "داركن فينيك"، الرضيع الذي انتُشل من التراب حيًّا، والذي قيل عنه إن الموت نفسه قد أنزل سلاحه أمامه.

ارتفعت الأهازيج، وامتلأت الساحة المركزية بأصوات الغناء والضحكات والدموع المذهولة. في أطراف المكان، كان الرجال يرقصون على الإيقاعات التقليدية، والنساء يصفّقن بإيقاع متناغم، يبرق في عيونهن خليط من الدهشة والفرح والرهبة.

كانت المأدبة مفتوحة كأنها وليمة أسطورية. لحم مشوي، فواكه مصفوفة في أطباق ضخمة، أرغفة خبز دافئة تعبق بروائح الأمس، وعصائر تتلألأ بألوان قوس قزح. الصغار يركضون بين الأرجل، يضحكون، ويعيدون رواية القصة وكأنها خرافة جميلة تُحكى لأول مرة.

وسط كل هذا الزخم، وُضع سرير صغير ناعم في وسط الميدان، وداخله يرقد داركن، ملفوفًا في بطانية بيضاء مُطرّزة بخيوط ذهبية. وجهه الطفولي هادئ، عيناه نصف مغمضتين، كأنه مستغرق في حلمٍ سعيد. لا بكاء، لا صراخ، فقط سكون... سكون غريب يشبه السلام.

وفي الطاولة الجانبية حيث اجتمعت النساء، كنّ يتبادلن التهاني والضحكات المكتومة، ويتأملن الطفل بنظرات فيها الفضول وفيها الإيمان بشيء أعظم.

اقتربت امرأة مسنّة من والدة داركن، ذات شعر فضيٍ يلمع كضوء القمر، وقالت بصوتٍ هامس لكنه يحمل دفءًا عتيقًا:

"ابنكِ... لم يبكِ منذ أن حملوه من التراب. إنه ساكنٌ كالماء. أخبريني، ألستِ قلقة؟"

رفعت الأم عينيها ببطء. عيناها محمرّتان من البكاء، لكن فيهما بريق قوي، بريق يشبه شمسًا نبتت داخل قلبها. ضمت الطفل إلى صدرها بحنان يُبكِي الحجر، وقبّلت جبينه بلطف، ثم قالت بصوتٍ يشبه الدعاء:

> "لا، لست قلقة... هذا الصغير مرّ على الموت، وحاربه... وربح. إنه الآن في استراحة محارب. قلبه الصغير قد ذاق ما لا ينبغي له أن يذوق، وها هو الآن يحتضن الحياة من جديد، بهدوء... لأنه لا يحتاج للصراخ كي يقول: أنا هنا."

ثم أضافت، وهي تهمس في أذنه:

"ارتَح، يا ملاكي. العالم قاسٍ بما فيه الكفاية... لكنك بين يديّ الآن، ولن أسمح لأحد أن يلمسك بسوء."

كان أدم ـ أو داركن كما صار يُعرف الآن ـ لا يفهم الكلمات، لكن روحه، تلك التي ما زالت تحمل بصمة ذلك العالم الآخر، ارتجفت بحنان. كانت دموع صغيرة ساخنة تنساب من عينيه الطفلتين، ليس من ألم، بل من نشوة لم يعرفها من قبل. هذه المرة الأولى في حياته التي يشعر فيها بشيء اسمه: أم.

كم حلم بهذا! كم تمنى، في ليالٍ طويلة ووحيدة، أن تلمسه يد حنان، أن تهمس له امرأة بنبرة دافئة: "أنا هنا"، أن يذوب في حضنٍ لا يسأل، لا يجرح، فقط... يحتويه.

كان قلبه الرضيع يخفق بفرح هادئ، ووجهه الصغير يضيء بابتسامة شبه خفية، كأن العالم صار مكانًا أقل وحدة.

اقترب الأب، ذو العينين الخضراوين اللتين تنضحان بعطفٍ جبلي، ومدّ إصبعه ليمسك بيد الطفل الصغيرة. قبض داركن عليها بلا تردد. لم تكن يدًا، بل كانت وعدًا.

قالت الأم، وهي تضمّه من جديد إلى صدرها:

"لا تقلق، صغيري... أنت الآن في أمان."

وكل شيء في الأفق، كل نسمة، كل طائر حلق، كل وردة في الميدان، بدا كأنه يهمس العبارة ذاتها، كأن الكون كله تواطأ على قولها في تناغمٍ لا يُرى:

"أنت الآن في أمان..."

هل حسبتم أن آدم قد انتهى؟

أن الموت كان خاتمة الحكاية؟

أن الظلال ابتلعت النور إلى الأبد؟

لا... ما عشتموه لم يكن إلا فصلاً في رواية كتبها القدر بحبرٍ من الأسرار.

لقد عاد آدم، لا كما كان، بل كما يجب أن يكون.

وفي عودته... سيهتز التوازن، وتتكشف الحقائق، ويُبعث ما لم يكن يجب أن يُبعث.

استعدوا...

فالقصة الحقيقية... بدأت الآن.

العالم الثاني - الفصل السابع والعشرون: ما خفي وراء الجسد

كنت أعتقدُ أن الموت هو النهاية... أن تلك اللحظة التي يتوقف فيها الجسد عن النبض، ويغلق القلب أبوابه، هي آخر ما يمكن لروحٍ مثل روحي أن تختبره. لكنني الآن أدركتُ... أنّ هناك أبوابًا لا تُفتح إلا بعد أن نُطرد من هذا العالم، وأنّ لبعض القلوب فرصةٌ ثانية، لا لتُكمل ما بدأته... بل لتبدأ من جديد.

حين فُتحت عيناي لأول مرة في هذا العالم، كنت مجرد طفل، ملفوفٍ في قماش أبيض، لا أملك إلا الصمت ودموع لا تفسير لها. لم أكن أعرف من هؤلاء الذين احتضنوني، ولا لماذا كانت قلوبهم تخفق لي بهذا الحنان. كنت في البداية مجرد ظِل لذاكرة، قطعة متكسّرة من فتى قديم مات في عالمٍ آخر... لكن شيئًا ما تغيّر.

مرت الأيام... وتحوّل الخوف إلى دفء، والغرابة إلى ألفة، وشيئًا فشيئًا، بدأت أتذوق طعم الطمأنينة.

القرية التي أصبحت عالمي الجديد كانت تُدعى "إيلسغارد". تقع جنوب مملكة تُعرف باسم ڤاليندور، على أطراف الغابات السوداء، وتحيط بها أسوارٌ حجرية عظيمة تعلو لأمتار، بُنيت منذ قرون لحماية أهلها من أخطار العالم الخارجي. لا أحد يتحدث كثيرًا عن تلك الأخطار، لكن وجوه الكبار، وعيونهم المتيقّظة ليلًا ونهارًا، تكفي لتقول إن ما خلف تلك الأسوار ليس مكانًا للضعفاء.

القرية صغيرة، منازلها مبنية من الحجارة المصقولة والخشب الداكن، أسطحها مثلثة مائلة لتواجه الشتاء العنيف. الأزقة ضيقة، لكن تعجّ بالحياة. أصوات السوق، صراخ الأطفال، وهدير نوافير الماء في الساحات... كل شيء فيها حيّ، ينبض... حقيقي.

لكن ما جعل هذا المكان فردوسًا بالنسبة لي لم يكن الحصون ولا الهواء النقي، بل شيء واحد فقط: أنني لست وحدي بعد الآن.

أصبح لي أمّ. وأصبح لي أب.

وأصبح لي اسم، يُنادى به دون خوف أو جرح.

داركن فينيك.

أمي، أليثيا فينيك... كانت شيئًا من الأساطير. شعرها البني ينهمر على كتفيها كستائر من الدفء، وعيناها... يا لتلك العينين، حمراوان بلون النبيذ القاني، فيهما وهج لا تخطئه عين. كانتا في الماضي، كما سمعت من الجارات، مرعبتين في الميدان، قادرتين على إخافة رجالٍ مدجّجين بالسلاح بمجرد نظرة. لكنهما اليوم، حين تنظر إليّ، تشبهان غطاء الليل حين يغمر الأرض بحنانه.

قوامها ممشوق، متناسق، بخطواتها الواثقة وابتسامتها التي تخفي خلفها تاريخًا حافلًا من المغامرات، والدماء، والخسارات.

لم تكن أمي دائمًا ربة بيت، بل كانت مغامِرة سابقة، مقاتلة ذات صيت، قاتلت الوحوش، وسافرت بين الممالك، وخاضت معارك لا تُحصى. لكنها قررت أن تترك كل شيء خلفها لأجل حلمٍ واحد: أن تبني بيتًا، وتُربّي طفلًا لا يعرف معنى القتال... على الأقل، لبعض الوقت.

كانت تحبني بطريقة غريبة، عميقة، وكأنها تُحبّ شيئًا أكثر من مجرد طفل. ربما رأت فيّ نفسها القديمة، أو ربما، بروحها الغريزية، شعرت أنني قادم من عالم محطم، وأن قلبي الصغير يحمل جروحًا لا تُرى.

كانت حين تُحممني، تهمس بأغاني لا أعرفها لكنها تطمئنني.

كانت حين تضمني، يتوقف العالم كله، ويذوب داخلي حائطٌ كان يُطوقني منذ الأزل.

أما أبي... نيرفال فينيك، فقد كان تمثالًا للجبروت والهدوء.

طويل القامة، ذو بنية عضلية مصقولة كأن جسده نُحت من صخر الجبال، شعره الأسود ينسدل حتى كتفيه بعشوائيةٍ محكمة، وفي عينيه - عينان خضراوان بلون الغابات العميقة - يسكن صمت الرجال الذين رأوا الكثير... وخسروا أكثر.

كان مقاتلًا محترفًا، يحمل سيفًا يكاد يكون امتدادًا لذراعه. في صغري، كان يضعني في حجره ليصقل سلاحه أمامي، وكان صرير الحديد بين يديه لا يُرهبني، بل يشعرني بالأمان، كأن لا شيء في العالم يمكن أن يؤذيني ما دام أبي على قيد الحياة.

كان يغيب أحيانًا... في مهامٍ لا نعرف عنها إلا الاسم: "عمل". قد تمتد لأيام أو أسابيع. وحين يعود، يعود بصندوق خشبي فيه لعبة صغيرة، أو قطعة فاكهة نادرة، أو كتاب غريب... وكان كل مرة، يعود وعيناه تبحث عني أولًا.

لم يكن كثير الكلام، لكنه حين يتحدث، كانت كلماته تشبه الجبال: قليلة، لكنها لا تُزاح.

"أنت ابني... وليس عليك أن تكون مثلي، لكن كن أقوى مني."

وكنت، وما زلت، أحاول.

حين كنت أجلس قرب نافذتي، أراقب الغروب من فوق أسوار القرية، كنت أشعر أن كل شيءٍ هنا تم تصميمه ليُرمم ذلك الطفل الذي انكسر ذات يوم.

الأم التي تحتضنني كأنها تحمل قلبها بين ذراعيها.

الأب الذي يحميني كما يحمي ملك مملكته.

والمكان... الذي رغم وحشته في الخارج، منحني في الداخل حضنًا لم أكن أحلم به حتى في أجمل أحلامي.

كنت أبتسم بلا سبب، وأبكي أحيانًا حين أفيق في حضن أمي، ليس من ألم... بل من فيض.

فيض فرحٍ لم أعتده.

فيض حبٍ يذيب ما تبقى فيّ من برد العزلة القديمة.

لم أعد مجرد ذكرى لفتى ميت.

بل أصبحت ابنًا، إنسانًا... بدايةً جديدة.

كان الصباح قد نثر ضوءه الذهبي فوق ممرات القرية الضيقة، تنساب بين الأشجار المتكئة على الحقول، كأنها تغفو بعد ليل طويل. لم تكن هذه الشمس جديدة، ولم

يكن هذا الهواء جديدًا، لكنه كان اليوم الأول الذي خرج فيه داركن فينيك ليحاول شيئًا بسيطًا... أن يُرى.

خطا خارج البيت الصغير ذي الجدران الطينية، حافيًا، بخطوات لا تزال تخشى الأرض. كانت خطواته تحمل شيئًا من الرهبة، لا لأنه يجهل الطريق، بل لأنه يعرف ما ينتظره في نهايته.

اقترب من الأطفال الذين يلعبون تحت ظل شجرة التين الكبيرة، يركضون ويضحكون ويتصايحون كفراشات الربيع. رفع يده بخجل، ابتسم، ووقف على مسافة، منتظرًا أن يفتح له أحدهم ثغرة في عالمهم. لكنه لم يسمع سوى جملة هامسة قالتها إحدى الأمهات القريبات، وقد سحبت ابنها جانبًا:

> "ذاك هو... الطفل الذي خرج من التراب."

كلمات كالصفعات، لم تكن قاسية فحسب، بل كانت تكرر صدىً يعرفه جيدًا... لقد عاد من الموت، والناس تخاف ما لا تفهمه.

تراجع داركن خطوتين، ثم جلس على حافة العتبة أمام البيت، تائه النظرة، يراقب خطوط الطين الجافة تحت قدميه.

همس بصوت بالكاد يُسمع:

> "بعض الأشياء... لا تتغير..."

ثم سكت، وغرق.

غرق في الذكريات، وكأن عقله قد شق نفقًا زمنيًا، عائدًا به إلى أولى حيواته... تذكّر كيف كان الصغير الغريب في الحي، الطفل الذي يفتقر لكلمات الانطلاق، الذي يراقب الأطفال الآخرين من بعيد، ويخاف أن يفسد عالمهم بمحاولته التقرّب.

تذكّر الوحدة. تذكّر ذلك اليوم الذي جلس فيه تحت المطر، يُخبئ دموعه في قطرة، إلى أن جاء "جوزيف" ومدّ له مظلة وقلبًا.

لكن في هذه الحياة الثانية... لا جوزيف، لا أحد.

وفجأة...

شقّ صوته الداخلي سكون التأمل، بشيء غير متوقع. خطوات خفيفة تقطع الأرض برقة ناعمة، أشبه برقصة شبح صغير على الرمال.

رفع عينيه، وإذا بها تقف أمامه.

فتاة...

كانت ترتدي ثوبًا بسيطًا بلون الخزامى الباهت، يتمايل مع النسيم، لكن ما سحره لم يكن الثوب.

بل هي.

شعرها كان برتقاليًا كما غروب نارٍ سقطت في بحيرة، تتخلله خصلات سوداء عميقة، كأن الظلال تسكن فيه، وشرارات حمراء كأنها أطراف لهبٍ ما تزال مشتعلة.

وجهها مستدير بعض الشيء، يحمل جمالًا بريئًا لا يتصنّع، وجبينًا عريضًا يكشف عن عقل متقد.

أما عيناها، فكانتا سوداوين تمامًا، من ذلك السواد الساحر الذي لا يخيف، بل يغريك أن تغوص فيه.

قالت بهدوء وكأنها لا تخشى ردة الفعل:

> "هل تلعب معي؟"

رفع حاجبيه، متفاجئًا، ثم همس:

> "أنا؟"

ابتسمت برقة:

> "نعم، أنت... لأنهم لا يريدون اللعب معي أيضًا."

سألها، ونبرته تحمل دهشة خجولة:

> "لماذا؟"

هزّت كتفيها:

> "لا أحد يعرف. يقولون إنني غريبة."

ساد صمت خفيف، ثم قالت وهي تبتسم بتحدٍّ طفولي:

> "فلنكن غريبين معًا."

وقبل أن يردّ، مدت يدها إليه، فأخذها.

وانطلقا.

ركضا خلف الفراشات، وضحكا حين علقت واحدة على أنف "داركن".

سقطت "أستيرا" في حفرة ماء صغيرة، وتلطخت بالطين، فضحكا كأن العالم لا شيء سوى تلك اللحظة.

في لحظةٍ ما، أمسكت عصًا طويلة وقالت:

> "أنا الحامية العظمى لمملكة الشوكولاتة! وأنت... فارس الظل الذي لا يُقهر!"

ضحك، لأول مرة... ضحكة حقيقية، نقية، تهز كيانه من الداخل.

ردّ عليها ملوّحًا بعصا قصيرة:

> "أنا فارس الظل، أُقسم بحلوى الكراميل، سأحمي الملكة أستيرا حتى آخر فتات بسكويت في العالم!"

سقطا أرضًا من الضحك، ثم جلسا يتحدثان.

سألها:

> "هل حقًا لا أحد يريد اللعب معك؟"

أومأت، وقالت:

> "لكن لا بأس... كنت أبحث عن صديق حقيقي، لا كثيرين."

سكت قليلًا، ثم قال وهو ينظر إلى السماء:

> "أنا أيضًا... ربما لهذا رجعت."

نظرت إليه باستغراب، لكنها لم تسأله ما الذي يعنيه.
وكأنها فهمت... أو قبلت الغموض دون حاجة لفهمه.

ومضت الساعة كأنها طيف.

وفي نهاية ذلك اليوم، جلس داركن على ذات العتبة، وأستيرا إلى جانبه.

قال وهو يضع يده على قلبه:

> "هذا اليوم... مختلف."

فأجابت بابتسامة هادئة:

> "ربما... لأننا غيرنا شيئًا بسيطًا في البدايات التي لا تتغير."

وهوى الظلّ الطويل للمساء عليهما، وظلّت ضحكاتهما الصغيرة تُسمع، كأول شقّ في جدار الوحدة.

في تلك الأمسية، بدا كل شيء في منزلهما الخشبي وكأنه يهمس بدفءٍ مؤقت. الجدران من خشب الأرز المشقوق، تفوح منها رائحة الطين المبتل، والريح بالخارج تنوح نواحًا خافتًا يشبه بكاءً كبت لزمن طويل.

في قلب الغرفة، كانت المدفأة تلفظ أنفاسها الأخيرة. جمرة تتوهج مثل قلب شيخٍ يحتضر. راقب داركن النار تتقلّص، كأنها تعكس شيئًا في داخله هو الآخر، شيئًا خامدًا ينتظر أن يشتعل أو... يندثر.

بهدوء، مدّ الأب يده نحو الرماد البارد، ثم حرك أصابعه بحركة دقيقة، غريبة، أشبه برقصة إصبع واثقة. لثانية، خيّم الصمت، ثم... انبثقت شعلةٌ صغيرة من راحته، قفزت خفيفة كفراشة اللهب، وانحدرت إلى الخشب الباهت.

واشتعلت المدفأة.

اشتعلت وكأن الحياة قررت العودة فجأة.

شهق داركن. لم تكن دهشة طفل فقط، بل دهشة روحٍ رأَت المعجزة تُمارس كأمرٍ عادي.

> "أبي... النار خرجت من يدك!" قالها وهو يتراجع نصف خطوة، يداه مضمومتان، وشفته ترتجف ما بين الرهبة والانبهار.

ضحك الأب بصوتٍ دافئ:

> "هذه ليست نارًا فقط يا بني... إنها نحن. هذا ما نصنعه، هذا ما وُلدنا نحمله. نحن البشر... مباركون."

اقتربت الأم، عينها الهادئة تلمع كأنها تخبّئ سِرًا طويلاً، ثم جلست أمام ابنها وجذبت يديه الصغيرة إلى حضنها.

> "كل منا يولد وهو يحمل نغمة داخلية، موهبة، جوهرة خفية... تسمى بالمانا." قالتها بصوت منخفض، كأنها تهمس إلى روحه لا أذنه.

أكملت:

> "أنا، مثلاً، أتحكم في عنصر الأرض. أستطيع أن أجعل التربة ترقص إن أردت... وسحري الثاني هو الشفاء. بسيط، لكنه مفيد."

ثم التفتت إلى زوجها، الذي قال بفخر أبوي:

> "أما أنا، فقد خُصصت بالنار... وسحر التحكم في الجماد. الأبواب، الأدوات، الصخور... كلها تصغي لي."

ظل داركن صامتًا، كأن الكلمات تُسكب في صدره لا عقله.

قالت الأم بنعومة وهي ترفع وجهه نحوها:

> "لكننا لا نعلم بعد... ماذا تحمل أنت، يا صغيري. هل تود أن نكتشف معًا؟"

كان في عينيه شيء لا يوصف... ليس الحماس، بل شيء أقرب إلى الفضول المرعوب.
لكنه أومأ.

وقف وسط الغرفة، قلبه يدقُّ في صدره الصغير كطبول مقدّسة. تنفّس، ثم أغلق عينيه. ارتخت أطرافه كما نصحته أمه، ورأى - للمرة الأولى - داخله.

لم يكن هناك ضوء... ولا ظلام.

كان هناك صوت صمت.

وبينما يتنفس ببطء، شعر وكأن دفئًا ينتشر من صدره نحو أطرافه. دفء غريب، ليس كالحرارة، بل كحنينٍ لا يعرف مصدره. المانا... تتحرك.

قالت الأم:

> "لا تخف، تلك الطاقة فيك، لا تأتي من عقلك، بل من قلبك. دع مشاعرك تقودك."

وفعل.

وفجأة، انبثقت من جسده هالة بيضاء شاحبة، كضوء قمر مكسور فوق بركة صامتة.

شهق الأب، وتقدمت الأم بخطوة، عيناها واسعتان:

> "جميلة... هادئة."

لكن سرعان ما بدأ الضوء... يتلوّن.

الأبيض تداخله أخضر، ثم أزرق، ثم أرجوان، ثم الأحمر.

دوامة من ألوانٍ تنبع من روحه... كأنه لا يملك طيفًا واحدًا بل أطيافًا كلها.

همس الأب وهو يحدق:

> "هذا... ليس طبيعيًا."

قالت الأم بقلق لا يخفيه صوتها:

> "لم أرَ شيئًا كهذا من قبل... إنه يتردد بين العناصر كلها... كأنه لا يعرف أيها ينتمي إليه... أو ربما... ينتمي لها جميعًا؟"

لكن داركن لم يكن معهم.

لقد غاص.

في ذاكرته.

في أصوات أنجي تهمس له باسمه...

في ضحكة أمبر حين رمته كدمية...

في الشعور بالبرد الذي لم يفارقه حتى في قبره...

> "ملاكي..."

نطقتها الأم... لا تدري ما تحمل تلك الكلمة من شيفرة، من زناد... من شعلة.

وفي لحظة، كل شيء انهار.

اختفى الضوء.

اختفت الألوان.

وبدأت الهالة تتكثّف... لا باللون، بل بالسواد.

سواد مطلق، ليس ظلامًا... بل فراغ.

تحولت الهالة إلى موجة متخثرة من الظل، امتدت حوله كدوّامة لا قاع لها، وكل ما لامسته صار رمادًا رماديًا كئيبًا.

صرخ الأب:

> "تراجعي! الهالة تغيّرت!"

لكن الأم كانت قد سقطت على ركبتيها، تحاول أن تصل إليه، أن تمسّه... لكن الهالة ترفضها.

وهو... لم يعد يسمعهم.

كان يرى...

ذلك الكائن.

كائنٌ بلا ملامح، وجهه مصنوع من كوابيس الطفولة، ضبابي، لكن أليف... مألوف، كأنه كان معه منذ بداية كل شيء.

> "المكان صحيح... والوقت قريب."

قالها، واختفى كما ظهر.

وفي اللحظة التالية، انهار جسد داركن.

سقط كدمية فقدت الخيط.

ركضت الأم نحوه، وبدأت تبكي وهي تضع يديها المرتجفتين فوق قلبه:

> "داركن! أجبني! حبيبي! ملاكي!"

لكن الكلمة لم تعد ذات نفع الآن...

هالته السوداء كانت تتلاشى، لكن الصدمة بقيت.

كان الأب يهمس بتعاويذ، يحاول تحويل ماناه إلى طاقة دعم، لكن جسم داركن... كان يرفض.

ثم... نظر الطفل المنهار إلى صدره.

شيء ما... يلمع في رقبته.

قلادة.

قلادة الشعلة.

تلك التي دفنت معه في قبره الأول.

تلك التي أعطته إياها العجوز حين كان يظن أن الحياة انتهت.

كانت هناك، تتدلّى بهدوء... وكأنها لم تختفِ أبدًا.

عينا داركن اتسعتا، والمحيط بدأ يذوب. الزمن يتشقق.

> "لم تكن هنا... كيف...؟"

تمتم، ثم أغمي عليه.

أما الأم... فقد كانت تبكي.

والأب... بقي جامدًا، عيناه على القلادة.

والموقد... رغم اشتعاله، بدا باردًا جدًا

العالم الثاني - الفصل الثامن والعشرون: شفاء الروح

لم يكن هناك صوت سوى أنفاسه المتقطّعة...

على السرير الخشبي المُبطّن بالقماش المُحاك يدويًا، كانت الشمس تتسلّل بخجل عبر الستائر الكتانية البيضاء، فتنسكب أشعتها الذهبية على وجهه الباهت كأنها تعتذر عن تأخرها في بعث الدفء إليه. كانت ملامحه ساكنة، بريئة، طفولية، تشبه نُسَخًا مطويّة من صفحات الأمل التي لم يُكتب لها أن تُقرأ بعد.

قربه جلست أليثيا فينيك، عيناها المحتقنتان ترفضان أن ترمشان حتى لا تفقدان لحظة قد تلوح فيها بادرة استيقاظ. كانت تضع كمادات باردة على جبينه الصغير، وتهمس بكلمات غير مفهومة، خليطٌ من دعاءٍ قديم وتوسّل أمٍّ تنهكها المشاعر. كانت أصابعها ترتجف وهي تُبدّل قطعة القماش، ليس من برودة الماء، بل من حرّ القلق الذي التهم صدرها منذ أن أُغمي عليه.

"يا صغيري... ملاكي..." تمتمت بصوت يكاد لا يُسمع، "لم أُخلق لأراك تتألم هكذا... ما كنت لأطلب شيئًا من هذا العالم سوى أن تحيا بسلام، أن تكبر دون أن تجرحك الأرواح ولا تحرقك النيران..."

ومن خلفها، كان نيرفال يقف عند الباب، ذراعاه معقودتان، لكنه بدا كجبل هشّ يُخفي خلف عضلاته خوفًا فطريًّا. لم يكن مُعتادًا على الشعور بالعجز، هو الذي

واجه وحوشًا وعواصف وسيوفًا مسمومة، لكن اليوم... كان ابنه هو مَن يُصارع، وكان خصمه مجهولاً، خفيًّا، يتلوّن بين الهالات ويُغشي العيون.

"أليثيا..." نطق بصوته الخافت، محاولًا إخفاء انكساره، "ذلك الشيء الذي حدث... تلك الهالة السوداء... لم تكن عادية. لم أرَ شيئًا كهذا من قبل."

نظرت إليه وهي تضم الكمادة بين كفّيها، "نعم... لقد بدأت بهالة بيضاء مثلما يفترض أن يحدث، ثم بدأت تتبدّل تدريجيًا... بنفسجية... قرمزية... ثم انقلبت سوداء... سوداء كالسّماء ليلة الخسوف، وكأن شيئًا ما في داخله تحوّل فجأة."

تقدّم نيرفال بخطوات ثقيلة، وجثا قرب السرير، ناظرًا إلى وجه ابنه الصغير. "أعرف الكثير عن السحر، عن انفجار الطاقات في سنّ مبكرة، لكن هذا... هذا يتجاوز كل حدود الفطرة. كأن السحر ليس ينبع من جسده... بل كأن جسده يحاول التأقلم مع شيء لا ينتمي لهذا العالم."

في تلك اللحظة، قاطع حديثهما صوت طرقٍ ناعم على الباب. تقدّمت أليثيا وفتحت الباب، ليظهر أحد حرّاس القرية، رجل في أوائل الثلاثينات، يحمل خوذته بين ذراعيه.

"معذرة سيّدي، سيّدتي..." قال وهو يطأطئ رأسه باحترام، "لقد شعرنا جميعًا بطاقة خارجة عن المألوف... طاقة اخترقت الهواء كأنها موجة نيران باردة... أردنا فقط التأكّد أن كل شيء بخير."

تبادل الأبوان نظرات سريعة، ثم أجابه نيرفال: "نعم، لقد... حاول استخدام سحره لأول مرة، وحدث شيء غريب. لا نملك تفسيرًا دقيقًا بعد، لكنه الآن بخير."

أومأ الحارس، ثم قال: "سأُحضر الطبيب حالاً."

مرّت دقائق لم يُسمع فيها سوى طنين الذكريات التي ترفرف حول الغرفة. ثم دخل الطبيب، رجل قصير القامة، أصلع الرأس، يرتدي عباءة رمادية بها نقوشٌ لأعشاب طبية. اقترب من السرير، وضع حقيبته على الكرسي الخشبي، وأخرج أدواته بهدوء.

كان الطبيب قد بدأ لتوه في وضع يده فوق قلب داركن، يتتبع نبض طاقته لا بجهازٍ ولا بأداة، بل بحسّه السحري وحدسه الذي تمرّس عليه لسنوات. كلّ شيء في الخارج بدا مُرهقًا بالصمت المتوتّر، وحدها أنفاس أليثيا المرتجفة ونظرات نيرفال المتشنّجة كانت تشي بالقلق.

أما في الداخل... فكان شيءٌ آخر يحدث.

كان داركن يطفو في فراغٍ بلا جدران، بلا سقف، بلا أرض. صمتٌ محض، لا يُسمع فيه سوى دقّات قلبه، لا يرى فيه سوى لونٍ أسود كأنّه الحبر المسكوب في بئرٍ بلا قرار.

تساءل:

«هل متُّ مرة أخرى؟ أم أنّ هذا مجرّد حلمٍ من تلك الأحلام الرمادية؟»

لكن بينما كان يسبح في ذلك السواد، شعر بشيءٍ يتغير.

الظلام أخذ يتخلخل تدريجيًا، كما لو أنّ النسيم يُزيح ستائر الليل... وشيئًا فشيئًا، بدأت ملامح مألوفة تتشكّل أمامه.

شوارع صغيرة، أرصفة متشققة، أبنية متراصّة كانت تملأها الذكريات. كانت تلك... مدينته. نعم، المدينة التي ترعرع فيها في حياته الأولى. لم يكن يعلم هل هي رؤيا، أم وهْمُ اشتياق، أم هلوسة لحظة الاحتضار.

لكنه لم يهتم.

لقد عاد.

تحرك بجسده الشفاف، لا وزن له، لا ظلّ. كان طيفًا يطوف، يمر بين الناس دون أن يلحظه أحد.

عبَر أمام مطعم شعبي لبيع الفطائر المقليةكان يتردد عليه، نظر إليه وتنهّد كمن يلتقط أنفاس الذكريات من الهواء.

«يااااه... كم اشتقت لهذه الرائحة، حتى التلوث كان له طعم خاص هنا...»

وفجأة، على الرصيف المقابل...

لمحه.

جوزيف.

صديقه. أخوه. توأم قلبه.

يمشي بخطواتٍ ثابتة، تعلو وجهه ابتسامة خفيفة غير معهودة، وكأنّه خرج لتوّه من نزهة قلبية.

لكن ما أدهش داركن حقًا، لم يكن جوزيف، بل الفتاة التي كانت تسير بجانبه.

شعرها أسود كسواد الليل، قصير يصل بالكاد إلى كتفيها، تراقصه نسمات المساء بهدوءٍ جذّاب.

عيناها بنيتان، دافئتان كألوان الخريف، فيهما مزيج من الحنين والمرح والتحدّي.

كانت ترتدي سترةً جلدية قصيرة فوق قميص أبيض فضفاض، وسروال جينز ضيق يُظهر أناقتها بلا تكلّف.

ضحكت... ضحكةً جعلت جوزيف يُخفض رأسه بخجلٍ طفولي نادر، ثم همس لها بشيء جعلهما يقتربان أكثر.

داركن تمتم ساخرًا وهو يطفو فوقهما:

«ذلك اللعين الرومانسي، يعيش قصص الحب في الخفاء بينما أنا وجيروم في حالة جفافٍ عاطفي تام...»

لكن السخرية لم تدم طويلًا.

شعر فجأة بدفءٍ غريب في صدره. ليس دفء غيرة، بل دفء حبّ صادق تجاه سعادة صديقه.

سعيدٌ له.

حقًا، لقد تمنى من كل قلبه أن يجد جوزيف شخصًا يفهمه، يحتويه، يضحك معه كما كان يفعل هو يومًا.

وتلك الفتاة... كانت مناسبة. مناسبة جدًّا. شعر بذلك، دون أن يعرف لماذا.

ربما لأنّها ابتسمت له –له، هو، الطيف– قبل أن تتابع سيرها كأنّها شعرت بوجوده.

وفي تلك اللحظة...

بدأ المشهد يتلاشى.

الضوء الأبيض طغى على كلّ شيء، والصوت أخذ يتسلل من جديد.

...تبعثر الضوء فوق وجهه، فتقلّصت عيناه بخفّة كما لو أنّ الشمس تخترق جفنيه. أنفاسه عادت تدريجيًا، متقطّعة في البداية، ثم أكثر استقرارًا.

وفجأة، تحركت أطرافه.

فتحت عيناه.

شهقت أليثيا، وكأنّها كانت تنتظر هذه اللحظة منذ قرن.

– "داركن!!"

أطبقت عليه بذراعيها وهي ترتجف، ثم همست بألف كلمة وكلمة لا تُفهم، سوى أنها من قلب أمّ خائف.

نيرفال اقترب بدوره، وضع يده على كتف ابنه، بعينين صلبتين لكن بداخلهما براكين حنانٍ لا تهدأ.

أما الطبيب، فقد ابتسم بهدوء وقال:

– "حمدًا للسماء... حالته الآن مستقرة، لكن..."

ثم نظر إليهم بجدّية:

– "اسمعاني جيدًا... جسده في طور التكيّف مع طاقته السحرية. لا يجب عليه إطلاقها بالقوة مجددًا... عليه أن يصادقها، لا أن يُجبرها. السحر يجب أن يتناغم مع كيانه، لا أن يُكسر أو يُستدرج."

صمتٌ تخلله صوت أنفاس داركن، الذي كان لا يزال ينظر إلى السقف... يتساءل في نفسه:

«هل كان ذلك مجرّد حلم؟ أم رسالة من الماضي... أم حنينٌ يأبى أن يموت؟»

كان داركن مستلقيًا على سريره، الغطاء الحريري قد سُحب حتى صدره، ووجهه الشاحب بدا أكثر نعومة في ضوء الصباح المتسلل من النافذة. عيناه المغلقتان لم تخفيا الهالات الخفيفة التي أحاطت بهما، وكأن سحره الذي تمرد قبل أيام لا يزال يترك أثره عليه. الهواء في الغرفة كان دافئًا، تختلط فيه رائحة الأزهار التي وضعتها والدته على الطاولة الجانبية، برائحة الحساء العشبي الذي كانت تحضّره في المطبخ.

في الجهة الأخرى من البيت، كانت الأم تقف مرتدية مئزرًا أبيض مزخرفًا ببقع الدقيق، تحرّك الملعقة في الوعاء الكبير بنشاطٍ وحب. نظراتها بين حين وآخر تتوجه إلى الممر المؤدي لغرفة ابنها، وقلبها يتمتم برجاء: "ليكن طعامي شفاءً له يا رب."

كانت قد لاحظت أنه فقد بعض الوزن، كتفاه لم تعودا ممتلئتين كما عهدتهما، وعظام وجنتيه بدت أوضح تحت بشرته الفاتحة. لم تتوقف عن الطهي، أعدّت له كل ما يحب: شوربة العدس بالكمون، كرات اللحم المشوية، وعصيدة الفانيليا بالعسل.

أما والده، فقد جلس على طرف السرير ممسكًا بكتاب قديم، لا يقرؤه حقًا، بل يبقى قربه فحسب، كمن يحرس روحه من أن تتوه مجددًا. بين لحظة وأخرى، كان يلمس جبهة داركن برفق، يطمئن إلى حرارته كأنما يطلب من الكون أن يبقي هذا الفتى بجانبه، مهما كان الثمن.

رنّ جرس الباب...

رفعت الأم رأسها سريعًا ومسحت يديها في المئزر، وهرعت نحو الباب.

عندما فتحته، وجدت فتاة صغيرة تقف بخجل، تحمل في يدٍ باقة من الزهور البرية الملونة، وفي الأخرى علبة صغيرة ملفوفة بشريط وردي.

قالت بصوت خافت، ونظراتها تنزلق أرضًا:

— "مرحبًا... يا خالتي... سمعت أن داركن مريض، ولم أره في الخارج اليوم. الحارس أخبرني، فقلت... ربما أزوره. جلبت معه بعض الكعك بالكريمة، صنعته أمي، وأنا ساعدتها."

ابتسمت الأم من قلبها، ونظرت إلى تلك الطفلة ذات الشعر المائل البرتقالي ذو الأطراف السوداء، وعينيها السوداوتين المتسعتين بشيء من التردد والرجاء.

— "يا روحي، تفضلي... إنه سيُسر كثيرًا برؤيتك."

دخلت أستيرا بخطوات ناعمة، ونظراتها تتحرك في أنحاء الغرفة بتوتر وفضول. وعندما وصلت إلى باب غرفة داركن، وقفت قليلًا تتردّد، قبل أن تفتحه ببطء، وتطلّ برأسها.

— "مرحبا، داركن... هل أنت مستيقظ؟"

فتح داركن عينيه ببطء، كأن صوته عاد إليه قبل وعيه الكامل، وقال بابتسامة ناعسة:

— "أوه، أستيرا... لم أتوقع رؤيتك."

اقتربت بخطى مترددة وجلست على الكرسي بجانبه، وضعت الزهور على الطاولة، وناولته علبة الكعك.

ـــــ "أمي تقول إن الحلويات تُسرّع الشفاء، وأنا أقول إن وجودي وحده كافٍ لتتحسن."

ضحك داركن بخفة، وردّ ممازحًا:

ـــــ "يا سلام، إذًا كنتِ تعتقدين نفسك دواءً متنقلًا؟"

ـــــ "على الأقل لستُ سحرًا خارج السيطرة مثلك!"

قالتها وضحكت وهي تضع طرف أصبعها على جبينه بلطف، كأنها تعاتبه.

خلال حديثهما، انسحب الأب من الغرفة مبتسمًا، تاركًا لهما بعض الخصوصية، بعدما تبادل نظرةً ذات مغزى مع الأم.

مرّت دقائق من أحاديث خفيفة، ضحكات صغيرة، ونظرات طريفة. ثم وقفت أستيرا، وقالت:

ـــــ "يبدو أنك ستتحسن قريبًا. سأتركك لترتاح... أو لتشتاق إليّ."

وغادرت الغرفة وهي تلوّح بيدها، ووجهها يزداد احمرارًا.

رافقتها الأم إلى الباب، وأثناء ذلك قالت برقة:

ـــــ "سلّمِي لي على والدتك... قولي لها إننا اشتقنا لرؤيتها."

ـــــ "بالطبع، يا خالتي... إلى اللقاء!"

أغلقت الأم الباب، ثم التفتت إلى زوجها، وتبادلا نظرة فيها شيء من الدعابة.

عادا معًا إلى الغرفة، يقفان عند الباب، يحدّقان في داركن الذي كان ما يزال يبتسم وهو ينظر إلى الزهور.

قالت الأم بضحكة خافتة، وعيناها تلمعان بمكر:

— "صغيرة، مؤدبة، وتعرف كيف تطبخ... ما رأيك؟ هل نعطي كلمتنا؟"

وأضاف الأب وهو يغمز له:

— "تعرفين أمها أعز المعرفة عائلة طيبة.."

انتفض داركن قليلًا وهو يعتدل في سريره وقال مستسلمًا وهو يرفع حاجبيه:

— "أوه لا... لا تبدأا الآن. نحن فقط... أصدقاء! أصدقاء، أتفهمان؟!"

ضحك الوالدان معًا، ثم جلست الأم بجانبه، تمسح على شعره وتقول برقة:

— "يا بني، لا تقلق... فقط ندردش."

وأردف الأب:

— "ندردش... بعيون الأحلام المستقبلية."

ضحك الجميع أخيرًا، والجو امتلأ بدفء لا يُشبه سوى لحظةٍ استثنائية يُشفى فيها الحزن ولو مؤقتًا.

العالم الثاني - الفصل التاسع والعشرون: تنفس خارج الأسوار

يحمل معه دفئًا بسيطًا يضيف نقطة ضوء في نفق المرض الطويل.

في صباح رمادي، كان السكون يلف الغرفة إلا من أصوات الطبيعة المتسلّلة من النافذة، غناء عصفور خافت، وخرير النسيم وهو يلامس الستائر القطنية. فتح داركن عينيه ببطء، كأنّ عودته إلى العالم كانت تدريجية، لا تحمل ضجيج الحياة بل صفاءها الخفيف.

كان جسده لا يزال واهنًا، ولكن السخونة الموجعة غادرت، والنبض المقلق الذي كان يخفق في صدره عند أي محاولة للحركة بات الآن همسًا بالكاد يُسمع. بدا جسده كحديقة أُعيد ترتيبها بعد عاصفة.

جلس في السرير مستندًا إلى الوسائد، وأمام عينيه رأى أمه في الزاوية، منشغلة بتزيين صحن من الحساء الدافئ المزين ببعض الأعشاب الطازجة، ورائحة الخبز المحمص تتراقص في الأجواء. ابتسم ابتسامة خافتة، كأن طعم الطعام بدأ يُشعره بأنه حيّ بحق.

"بدأتَ تستعيد لونك، يا صغيري،" قالت الأم وهي تضع الصحن بعناية على الطاولة الخشبية قرب السرير، ثم نظرت إلى وجهه نظرة تمزج بين القلق القديم وراحة القلب.

أما الأب، فكان يجلس بهدوء على الكرسي قربه، يقرأ بعض الأوراق لكنه بين الفينة والأخرى ينظر إلى داركن ليتأكد أنه بخير، ثم يقول بنبرة خفيفة:

"كلما فتحت عينيك دون أن تتأوه من الألم، أتنفّس بعمق يا بني."

مرت الأيام، وداركن بدأ يسترد وزنه رويدًا، وجهه استعاد نضارته شيئًا فشيئًا، وصوته عاد ليحمل ذلك القدر من التهكم الطفولي الذي لطالما أضحك والدَيه. يخطو خطواته الأولى نحو الحديقة بتثاقل، ولكن بثبات، والطيور تراقبه من الأغصان كأنها شاهدة على نهوضه من فراش المرض.

وأما أستيرا، فقد أصبحت جزءًا من تلك الأيام.

كانت تزوره بشكل شبه منتظم، تحمل معها شيئًا صغيرًا كل مرة: كعكة، زهورًا، أو حتى مجرد كتاب قرأته وأرادت أن تشاركه معه. في كل زيارة، كانت تزداد ألفة على وجهها، وتتراجع خجولتها شيئًا فشيئًا، لكنها لم تختفِ تمامًا.

ذات مرة، حين رآها تدخل ممسكة بسلة صغيرة من الخبز والعسل، ضحك داركن وقال:

"هل قررتِ أن تفتحي مطبخًا عندنا؟ لأنك بدأتِ تنافسين أمي في الكرم."

احمرّ وجه أستيرا، وضحكت بصوت خفيف:

"بل أردت أن أفتديك بسكّري، ما دمت تحب الحلوى."

كان بينهما ذلك النوع من الحديث الذي لا يُخطط له، بل يولد تلقائيًا من راحة القلب وفضوله. يحدّثها عن أحلامه، وهي تروي له عن مشاكلها الصغيرة مع أمها، وكيف أنها تغار من قطة الجيران.

وفي كل مرة كانت تغادر، كانت الأم توصلها إلى الباب، تبتسم لها بحنان ثم تراقب خطواتها وهي تبتعد، لتعود إلى الغرفة وتجد الأب قد سبقها.

يدخلان معًا إلى داركن، يتبادلان النظرات ثم تلك الابتسامة المريبة التي صارت تتكرر، وكأنها اتفاق صامت بين شخصين يعلمان ما لا يُقال.

"ما رأيك؟" قالت الأم ذات مرة بنبرة مشاكسة، "أمها امرأة فاضلة، وكريمة، وأنا أعرفها منذ زمن..."

ضحك الأب وأضاف:

"وكأن القدر قرّر أن يرسل لنا شيئًا جميلاً مع هذه الأزمة."

تنهّد داركن، مدركًا ما يدور في خلدهما، ثم قال ضاحكًا وهو يرفع يده:

"أصبرا، أصبرا، لا تجعلاني أخجل من نفسي... نحن أصدقاء فقط، لا أكثر!"

ضحك الجميع، ولكن في قلب داركن، كان هناك شيءٌ جديد... هدوء غير مألوف، وسكينة لم يعرفها من قبل. شعور بأن شيئًا ما ينمو بهدوء بين الأيام، وأن الشفاء لا يأتي فقط بالجسد، بل بالقلوب التي تزهر من حولك.

بدأت الأيام تمضي بهدوء وسلاسة، كأن الزمن أراد أن يعوّض داركن عن كل ما كابده من ألم ودوار واحتراق داخلي. شُفي الجسد شيئًا فشيئًا، استعادت عيناه بريق الطفولة الذكيّة، وغدًا صوته أكثر صفاءً، وصدره أقلّ ثقلاً. الطعام الشهيّ الذي كانت أليثيا تحرص على إعداده كل يوم، مملوءًا بالخضار المطهية بعناية، وباللحم الطري المنقوع بالتوابل العشبية، ساهم في استرداد وزنه وجزء من نشاطه، كما أن نيرفال كان يتكفّل كل مساء بتدليك كتفيه وتمرين يديه وساقيه بحركات دقيقة، أشبه ما تكون بتقنية سريّة ورثها من سنين الغربة والسيف.

في صباحٍ مشمس من أوائل الربيع، عندما تفتّحت زهور الخزامى البيضاء على حدود الطريق المؤدي إلى بوابة القرية، وأطلقت الأشجار أنفاسها الأولى بعد شتاء طويل، دلف نيرفال إلى غرفة ابنه ووجهه يفيض حماسة:

- «انهض يا بطل. اليوم سنخرج قليلاً... نُحيي فيك حسّ الأرض والهواء الطلق.»

رفع داركن رأسه ببطء وهو يفرك عينيه، قبل أن يهمس بنبرة نصف نائمة:

- «إلى أين؟»

ابتسم نيرفال وأجاب وهو يرمي حقيبة خفيفة على ظهره:

- «نزهة صغيرة إلى ما وراء الأسوار. فقط أنا وأنت. نستنشق الحياة من جديد، ونترك جسدك يتذكر كيف يكون العرق... والركض... وتسلق الصخور.»

قفز قلب داركن بشعورٍ لم يعرفه منذ قدومه إلى هذا العالم الجديد. المغامرة؟ الخروج؟! الهواء البري، الشمس خارج حدود الطمأنينة، والمجهول الجميل؟ شعر كأنه بطل قصة على وشك بدء فصله الأول.

أخذت أمه تُعدّ له زادًا صغيرًا: خبزًا محشوًا باللحم المتبّل، وتفاحتين حمراوين، وزجاجة من عصير التفاح المُثلّج. ثم أسرعت بتغطية رأسه بقبعة خفيفة، وناولته رداءً طويلًا يكفي لحمايته من أشعة الشمس، لكنه لا يعيق حركته.

نيرفال، من جهته، كان قد تجهّز كعادته بدقة تامة. على خاصرته سيفه الفضي اللامع، ذو المقبض المصنوع من عظم وحجر، وعلى ظهره حقيبة صغيرة تحتوي على حبال، خريطة قديمة، زجاجة ماء، وعدّة للإسعافات الأولية. كان واضحًا أنّه لم يخرج لمجرد نزهة.

حين وصلا إلى بوابة القرية الحجرية، التفت الحارسان لهما وحيّوهما بإيماءة سريعة. ثم فُتح الباب الحديدي الثقيل ببطءٍ يليق بمشاهد الأساطير، وغمر نور العالم الخارجي وجهيهما.

خطا داركن الخطوة الأولى خارج الأسوار، فتملّكه إحساس غريب... كأن الأرض نفسها تهتز تحت قدميه بخفة، كأن شيئًا قديمًا بداخله يستيقظ.

كانت السهول أمامهما تمتد كأنها بحر من الزمرد، تتمايل أعشابها تحت نسيم خفيف يعطره زهر البراري. وعلى البعد، ترتفع تلال مغطاة بغابات داكنة يهمس في جوفها سرٌّ ما. سمع داركن زقزقة طائرٍ لم يعرفه من قبل، ورأى أرنبًا بريًّا يعدو في البعيد. كان كل شيء حيًا بطريقة مختلفة، لا تشبه القرية الهادئة.

أخذ نيرفال يسير أمامه بخطى ثابتة، يشرح له أسماء النباتات، ويشير إلى الأعشاش المخبّأة، ويخبره عن طرق البقاء إن فُقد في البراري. وحين وصلا إلى شجرة معمّرة، توقف وقال:

.«سنبدأ تدريبات خفيفة، لا نريد إرهاقك، فقط لتُذكّر جسدك بما يستطيع فعله.»

بدأ داركن بالتمارين: جري خفيف، قفز على الصخور، اتزان على جذع مائل. في البداية، كان جسده يتألم، ولكن مع مرور الوقت، بدأ يشعر بعودة طاقته، بانسياب الدم في عروقه، وكأن كل حركة تُحرّر شيئًا من روحه.

ثم أخرج نيرفال سيفًا خشبيًا صغيرًا ناوله لابنه وقال:

.«لا تقلق، لن نقاتل الوحوش. فقط أريدك أن تتعلم كيف تمسكه. كيف تزن خطواتك. هذه أولى خطوات الثقة.»

أخذ داركن السيف، شعوره بالمسؤولية يسبق سنه، وبدأ يقلّد حركات والده البطيئة. السيف بدا ثقيلًا في البداية، لكن شيئًا في داخله كان يعرف أن هذه اليد، عاجلًا أو آجلًا، ستُمسك بسيفٍ حقيقي... وستكتب قصة لا تُنسى.

**

امتدّت الرحلة إلى ما بعد الظهيرة. جلس الاثنان على صخرة كبيرة، يحدّقان في الأفق حيث تلوح الجبال الرمادية كأنها تنام بهدوء على حضن الأرض. ناولا الطعام وتشاركا الصمت، ذلك الصمت الذي لا يحتاج إلى كلمات.

همس نيرفال وهو ينظر لابنه:

ـ «أنت بخير الآن. لكن تذكّر، القوة الحقيقية لا تكون فقط في العضلات، بل في السيطرة على النفس. السحر داخلك قوي... لكنه يحتاج إلى نُضج. يوماً ما، سيظهر كما ينبغي... ولكن لا تستعجله.»

نظر إليه داركن بعينين تشعّان بحكمة لم تَعد تنتمي لطفلٍ صغير. ثم ابتسم ابتسامة خفيفة، وقال:

ـ «أعدك... سأكون مستعدًا حين يأتي.»

ضحك نيرفال وربّت على كتفه:

.«هذا ما كنت أريد سماعه.»

ثم قام، ولوّح له ليعودا قبل حلول الظلام. لم تكن رحلة تدريب فقط... كانت ولادة جديدة.

في ظلّ شمس الأصيل التي راحت تميل نحو الغرب، وسط فسحةٍ خضراء تمتد على أطراف السهل، وقف الأب وابنه متقابلين، كلاهما يمسك بسيف خشبيٍّ صنعه الحرفيّون المحليّون بإتقان. نسيم لطيف داعب وجه داركن، بينما خيوط الشمس كانت تنعكس على شعره الكستنائي فتكشف وهجه الصحيّ بعد أيامٍ من النقاهة. ابتسم الأب، وتدلّت خصلة من شعره البني على جبينه، وهو يمدّ ذراعه ليعدّل من وضعيّة قبضته على السيف، ثم قال بنبرة هادئة ممزوجة بالحماسة:

"مبارزة خفيفة فقط... لنعيد لعضلاتك الذاكرة، ولنرَ إن كنت لا تزال تعرف كيف تمسك بسيف، صغيري."

ضحك داركن بخفةٍ، لكن في عينيه بريق آخر، مزيج من الحنين والحذر... سيف؟... هذا مجرد خشب، ولكنّه يذكّرني... بألكسندر. قبضته تشدّدت دون وعي، كأنّ ذكريات التدريبات العنيفة والصارمة التي خاضها في حياته الأولى عادت لتُلهب أنامله، لكنه تذكّر جسده الجديد، الصغير، الأقل مرونة، فتنفّس ببطء وهو يهمس في نفسه: لا تتسرّع، هذا والدك... وهذه حياة جديدة.

**

انطلقت المبارزة بخطى محسوبة، خطواتٍ تجسّد أكثر من مجرّد لعبة، بل حوارًا صامتًا بين جيلين. كانت خشخشة السيوف الخشبيّة تملأ الهواء، وكل ضربة تلتقي بأخرى بدقة، تكشف عن حذرٍ متبادل.

ضربةٌ من الأب إلى الجانب... تصدّاها داركن بذراعيه المرتجفتين قليلاً، لكنه ظلّ ثابتًا.

خطوة سريعة للأب إلى الأمام، سحبٌ خفيف للقدم على العشب... صوت الخشب يضرب الخشب مجددًا، ورنة لطيفة تنبعث.

كان الأب يراقب تحرّكات ابنه بإعجابٍ خفيّ. في كل مراوغة، كان يرى اتزانًا يفوق سنّه، وفي كل التفافٍ للمعصم كان يشهد تقنية لم يكن يتوقّعها من طفلٍ قضى الأسابيع الماضية طريح الفراش. ابتسم، ولكنّه كتم تلك الدهشة.

أما داركن، فكان يشعر كأنّه يخطو في حقل ألغام... كل حركة من جسده الجديد تذكّره بحدوده، كل انحناءة تحفّه ببطء، وكل اندفاعة تعيقه بقامته القصيرة، فغمره نوع من الإحباط... كم أشتاق لجسدي القديم، لقد كنت أسرع، أذكى... ألكسندر كان لا يرحم، وأنا كذلك تعلمت ألا أرحم.

**

وفي لحظة، بعد صدّة باهتة من الأب، رأى داركن الفرصة.

ذراع الأب لم تكن في موقعها الدفاعي الصحيح، وكأنّه تراخى... فشَرَد عقل داركن برغبة شديدة: إنها فرصتي... فليكن درسًا ممتعًا له.

قفز خطوة إلى الأمام بخفةٍ لا تليق بعمره الجديد، ودار بجسده الصغير بحركةٍ خاطفة، ووجه ضربة مزدوجة، واحدة وهميّة نحو الساعد، والثانية الحقيقية انزلقت نحو الكتف – لم تكن مؤذية، لكنها مدروسة بدقّة ومهارة... ضربة من كان يوماً ما محاربًا، لا طفلًا.

ارتدّ الأب للخلف وهو يطلق ضحكة دهشة خالطها شيء من الحذر، ونظر إلى ابنه بدهشة صادقة:

"من أين تعلمت تلك الحركة؟ لا أظن أنّ أحدًا في قريتنا يستخدم هذا النوع من التمويه!"

داركن أخفى ابتسامة جانبية وهو يرفع السيف إلى مستوى كتفه:

"ربما... تعلمت من ملاحظتي لك."

ردّ الأب بضحكة: "أهكذا؟ إذًا عليك أن تتوقّع ما سيأتي الآن."

**

تحوّلت المبارزة من تدريب روتيني إلى لعبة ذكية، كلٌّ منهما يحاول كبح قوّته ولكن يختبر الآخر بحدوده. الأب صار أكثر يقظة، وداركن – وقد اشتعلت فيه روح المبارز القديمة – صار أكثر رشاقة. ركض حوله، التفت، تسلّل من دفاعه، وصدّ ضرباته بدقة. كل رنّة لسيفيهما الخشبيّين كانت أشبه برقصة متناغمة، مليئة بالمفاجآت.

وفي لحظة خاطفة، وجد الأب نفسه يتراجع مجددًا، يرفع حاجبه وهو يلهث بخفة:

"أنت أسرع مما توقّعت... وذكي أيضًا... لست فقط ابن مغامر، بل ربما وريث حقيقي."

توقّف داركن، ضاحكًا:

"أبي، أنا فقط أريد أن أراك تتصبّب عرقًا. هذه أقلّ مكافأة لي بعد كل هذه الأيام في السرير."

ضحك الأب، واقترب ليبعثر شعره:

"هنيئًا لك إذًا... لكن لا تتوقّع أنّني سأبقى متساهلًا إلى الأبد. المرة القادمة، سأستخدم السيف المعدني!"

قالها بمزاحٍ ثقيل، فتجمّد داركن لحظة، ثم ابتسم بخبث:

"تحدّي مقبول... يومًا ما، لن أكون خصمًا سهلًا."

غابت الشمس خلف الأشجار، وامتلأت السماء بلونٍ برتقاليّ ناعم، بينما تناثرت ضحكات الأب والابن في الأفق، تحملها الرياح على امتداد السهل... كأنّها عزف خفيف على أوتار علاقةٍ يعاد بناؤها، يومًا بعد يوم.

كان الليل قد بسط عباءته على طريق العودة، والنجوم تلمع في السماء وكأنها عيون يقظة تراقب العالم من عليائه. ساد الهدوء المكان، ولم يكن يُسمع سوى صوت أقدام الأب والابن تطأ التراب الرطب، وتلك الأنفاس الخفيفة التي تتخللها نبرات من الدفء.

قال الأب مبتسمًا: "لقد كنت مفاجأة حقيقية يا داركن، لم أتوقع كل تلك الليونة في الحركة... من دربك؟" ضحك آدم بخفوت، ثم تمتم: "أظن أن لديَّ بعض الذكاء الفطري... أو أن جسمي يتذكر شيئًا لا أعلمه."

لكن ما إن اقتربا من أحد المنعطفات الجبلية حتى توقف الأب فجأة، تغيرت ملامحه، وتحولت من اللطف إلى الصرامة، ثم همس بصوت منخفض وعيناه تبحثان في الظلال: "داركن، توقف. امشِ ببطء وتوجه نحو تلك الصخرة هناك. اختبئ خلفها ولا تتحرك مهما حدث. هذا وضع جدي."

ارتبك آدم، لكنه أطاع الأمر دون نقاش، وفي خطوات هادئة وسريعة انحنى خلف صخرة ضخمة، ليراه والده يستخدم سحر تحريك الصخور ليبني له حجابًا واقيًا.

لم تكد تمر لحظات حتى شَعَر الأب بشيء يخترق الهواء نحوه — سهم! انطلق بسرعة قاتلة، لكن الأب التقطه بيده العارية دون جهد، ثم استدار فجأة.

هناك، وسط العتمة، ظهرت جحافل من الوحوش... هياكل عظمية متشققة تطلق الأسهم، وموتى أحياء يسيرون بتمايل، وأعداد لا تحصى من العقارب ذات الحجم المتوسط والضخم تملأ المكان.

لم يملك الأب ترف التفكير، فقد أشهر سيفه بيد، وأشعل النار باليد الأخرى. اندفعت لهبٌ حارق يُحيل الموتى رمادًا، وسيفه كان يرقص وسطهم كأنما روح مغامر أسطوري تحركه.

أما داركن، فقد راقب ما يحدث من وراء الصخور، عينه تتوهج بالإعجاب والخوف، ويده ترتجف قليلًا. لقد كان يشاهد والده لأول مرة وهو في قمة قوته، ساحرٌ ومحاربٌ في آنٍ واحد.

وفجأة، ظهر عقرب ضخم من بين الصخور وقفز فوق الأب، لكن سيف الأب ارتفع وأطاح به، إلا أن آخر استطاع أن ينفذ من جانب آخر وقفز على الأب وجرحه في كتفه، فاستدار الأب بسرعة وأحرقه بنار حارقة.

هنا بدأ القلق يأكل صدر داركن، وبدأت ذاكرته تسيل بمرارة الصور القديمة — ألكسندر... جثته... دمه... صرخاته الأخيرة، الوحدة، العجز، ذلك الألم الذي لم يُمحَ بعد.

تصلبت ملامحه، وشد على قبضته، وهمس لنفسه: "ليس مجددًا... لن أسمح بذلك. أما الآن أو أبدًا!"

بدأت شرارات بيضاء تتراقص حول يده اليمنى، وتجمعت حول ساعده، شعر بطاقة دافئة تنبع من أعماقه. لم يكن يعرف ما الذي يفعله تحديدًا، لكنه تذكر إحدى التقنيات من الكتب القديمة.

انفجار صغير من الطاقة البيضاء دفع الصخور جانبًا، وخرج داركن من بين الغبار، حاملاً سيفه الخشبي، لكن السيف كان يشتعل بهالة بيضاء، وقدماه كذلك، كأن الريح تسنده.

انطلق بسرعة مهولة، كالسهم، كأنما لا وزن له. كان يقاتل لا كطفل، بل كمحارب نضجت روحه رغم جسده الصغير. قبضته تضرب، وسيفه يشق، وطاقته البيضاء تمزق الأعداء.

كان يقتلهم بلا تردد، بشراسة فيها نوع من الراحة... راحة المقاتل الذي يدافع لا يهاجم، الذي لا يهرب بل يحمي.

انتهت المعركة بعد دقائق مشحونة بالضوضاء والحرائق. الأب وقف يلهث، ينظر حوله، ثم تمتم: "رغم عددهم الكبير، أشعر أني لم أقتلهم جميعًا... لكن ليس مهمًا الآن. يجب أن آخذ داركن وأبلغ الحراس."

توجه نحو الصخرة التي خبأ خلفها ولده، لكن قلبه انكمش فجأة حين لم يجده.

صاح بصوت مرتجف: "داركن!! داركن!! أين أنت؟!"

لكن جاءه صوت خافت من بعيد: "أبي! أنا هنا... بخير، لا تقلق!"

ركض الأب نحو الصوت، وما إن وصل حتى تجمد في مكانه.

داركن، الصغير، يقف وسط كومة من جثث الموتى الأحياء، والعظام المكسرة، وأنهار من الدماء الفاسدة التي لوّثت الأرض وثيابه وشعره ووجهه... عيناه كانتا تلمعان بضوء باهت، ونفسه المتقطع يوحي بإجهاد هائل، لكنه واقف... واقف كمنتصر.

الدهشة ارتسمت على وجه الأب، ثم شقها الخوف. "ما الذي... ما الذي حدث لك؟..."

لكنه لم يتلق جوابًا، فقط سكون مهيب، وطفل صغير وسط مشهد من الجحيم.

ظل الأب واقفًا مذهولًا، يحدق في منظر الجثث المتناثرة، وداركن في وسطها، مغطى بدماء الموتى، عيناه متوهجتان بوميض أبيض باهت، ونفسه متقطع بين الإنهاك والنشوة.

تقدم نحوه ببطء، والخوف ينسلّ كخيط بارد في صدره.

لكن صوت داركن سبقه، هادئًا، غير مبالٍ بملابسه الملطخة ولا الدماء التي تتساقط من أطرافه الصغيرة:

— «أظن... لم يحدث شيء خطير يا أبي، أنا بخير. فقط... لم أستطع تحمّل فكرة أن تقاتل وحدك... بينما أنا... عبءٌ عليك.»

تجمد الأب. كان يهمّ بعتابٍ خفيفٍ على اندفاع ابنه، لكن الكلمات جفّت على لسانه. ذلك الصوت لم يكن صوت طفل... وتلك النظرة... لم تكن بريئة.

فجأة، تغيّرت ملامح داركن. ذاب لطف وجهه، وتحولت عيناه إلى عدستين قاسيتين تلمعان بعزم صلب، وعقد حاجبيه بأسلوب مَن اعتاد خوض القتال.

خطا خطوة نحو أبيه.

ثم أخرى.

ثم انطلق فجأة كالسهم!

— «داركن؟!»

لم يفهم الأب شيئًا. ارتبك، وانعكس التوتر في عضلاته، لكن لم يحرّك ساكنًا. هل يجب أن يصده؟ هل هو تحت تأثير سحر ما؟ هل فقد السيطرة؟

وفي تلك اللحظة، وقبل أن يتّخذ قراره، انزلقت قدما داركن بسرعة ساحقة أسفل قدميه، وعبرت أنامله السيف الخشبي إلى الأعلى في حركة حادة خاطفة.

صرير حادّ شقّ الأفق، وصوت طقطقة معدنية تبعه، ثم...

رأس عقربٍ عملاقٍ يطير في الهواء، يتلوّى في السماء قبل أن يسقط أرضًا مطلقًا دفعة من الدم الأخضر الكثيف.

ارتدّ الأب إلى الوراء مذهولًا، ثم سمع صوت ابنه بلطفه الطفولي وقد عادت البراءة إلى ملامحه:

— «ما هذا يا أبي؟ كيف تترك دفاعك مفتوحًا هكذا؟»

ارتسمت ابتسامة مشوشة على شفتي الأب، مزيجٌ من الدهشة والذنب... والارتياح.

أخفض رأسه قليلًا، ثم سعل بخفة، محاولًا استعادة رباطة جأشه، بينما كانت يده ترتجف بخفة دون أن يشعر.

في طريق العودة، بينما كانت الريح تداعب أوراق الأشجار وأثر المعركة يلوّن الهواء برائحة الرماد والدم، قال الأب بهدوء:

— «ذلك الضوء... الذي كان يحيط بك... وتلك السرعة... لم أرَ شيئًا كهذا من قبل. كيف فعلت ذلك؟»

رد داركن وهو ينظر إلى يديه بشيء من التمعن:

— «قرأت عن التقنية في أحد الكتب القديمة. ليست معقدة كثيرًا في الفكرة... فقط أخرجت قليلًا من المانا... وركّزتها في أجزاء معينة من جسدي. مثل الساقين والذراعين. هذا يمنح دفعة في السرعة والقوة، لكنه يتطلب توازنًا دقيقًا... وإلا يتحطم الجسد من الداخل.»

توقف الأب فجأة، حدّق بابنه لثوانٍ طويلة، ثم قال:

— «هل... جربتها من قبل؟»

هزّ داركن رأسه بابتسامة:

— «لا. لكنني لم أكن مستعدًا لأشاهد أحدًا أُحبّه يموت مرةً أخرى.»

صمت الأب. لم يملك شيئًا ليقوله. سوى أن يربت على كتف ابنه... وربما أن يتعلم أن هذا الطفل، لم يعُد طفلاً فقط.